محاضرات
في التفسير الموضوعي

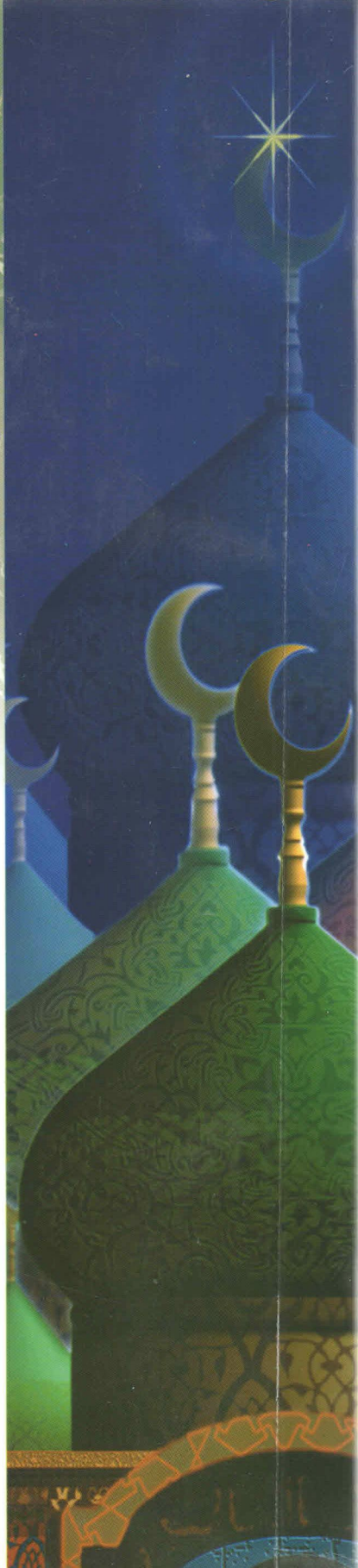

تأليف

دكتور / عباس عوض الله عباس

كلية المعلمين في بيشة

الناشر

مكتبة الخبتي الثقافية

محاضرات في التفسير الموضوعي

د. عباس عوض الله عباس
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم المشارك
بجامعة أم درمان الإسلامية
وكلية المعلمين في بيشة

الناشر :
مكتبة الخبتي للطباعة والنشر بيشة

© مكتبة الخبتي الثقافية ، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عباس ، عباس عوض الله
محاضرات في التفسير الموضوعي. / عباس عوض الله عباس .-
بيشة ، ١٤٢٤هـ
٢٥٤ ص ؛ ..سم

ردمك: ٩-٤-٩٢٩٩-٩٩٦٠

١- القرآن - تفسير أ.العنوان
ديوي ٢٢٧ ١٤٢٤/١٢

رقم الإيداع: ١٤٢٤/١٢
ردمك: ٩-٤-٩٢٩٩-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر
مكتبة الخبتي الثقافية

المملكة العربية السعودية بيشة ص ب : (٢) فاكس ٠٧/٦٢٢٢٢٤٨ ت : ٠٧/٦٢٢٣٦٤٧

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ، نحمده تعالى خلق الإنسان ، علمه البيان ونصلي ونسلم على معلم البشرية نبينا ورسولنا محمد بن عبد الله ، نشهد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

أما بعد :-

فقد جعل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم معجزة الرسول الكريم ﷺ العظمى، والحجة الدائمة على الخلق، والنور المبين للدعاة إلى يوم القيامة، يستمدون من نبعه أكثر الهداية ويقتبسون من نوره مشاعل الهداية الدالة إلى أعظم حضارة عرفتها البشرية عبر تاريخها الطويل، والبراهين الساطع التي تبدد الشبهات، والإرشادات اليقينية التي تطفأ نار الوسواس في الصدور،ويجد كل متدبر لآيات الله في القرآن الكريم كمال الوفاء لحاجات البشر في مختلف العصور وبخاصة في الآيات التي تتحدث عن الكون والحياة والإنسان.

وإن الكلام عن إعجاز القرآن الكريم ونواحيه ليس بالأمر اليسير الهين الذي ينتهي في رسالة أو كتيب،لذا كان القرآن الكريم هو الكتاب الجامع لفروع الدين وأصوله نصا أو استنباطا عقيدة وشريعة ونظام حياة،أودع الله فيه من كنوز المعرفة وأصول العدل ومناهج الخير ما يسعد الإنسانسة ويفتح أمامها أفاقا رحبة في عمارة الكون والتعارف والتعامل في ظل دستور قرآني خالد يرعي الحقوق

ويصون المواثيق والعهود ويبشر الإنسانية المؤمنة بحسن مصيرها في الدار الآخرة إذا هي آمنت بالله واهتدت بهداه.

وقد اهتم علماء المسلمين بتفسير كتاب الله، واستنباط أحكامه وهداياته، ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب الكريم علوما جمة وآفاقا رحبة في جميع جوانب الكون ووجوه النشاط في الحياة فهو كتاب علم وهداية، ومنهاج تربية وحضارة.

واهتدي علماء السلف من هذه الأمة في تفسير كتاب الله تعالى بهدي مدارس الصحابة رضوان الله عليهم التي عرفها تاريخ القرآن الكريم من خلال مدرسة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في مكة والتي خرج فيها كل من أئمة التابعين في التفسير سعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وعكرمة مولى ابن عباس وطاوس وعطاء بن أبي رباح.

ومدرسة الصاحبي الجليل أبي بن كعب رضي الله عنه في المدينة المنورة والتي تخرج فيها زيد بن أسلم وأبو العالية الرياحي ومجموعة أخرى منهم محمد بن كعب القرظي.

ومدرسة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الكوفة والتي تخرج فيها علقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع وعامر الشعبي وعمرو بن شرحبيل وأبو عبد الرحمن السلمي.([1])

وزعماء هذه المدارس التفسيرية الكبرى هم الذين تخرجوا في مدرسة النبوة فعبد الله بن عباس رضي الله عنهما هو الذي دعا له النبي ﷺ بقوله :"اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل"([2]). وأبي بن كعب رضي الله عنه يكفي أنه كان من كتاب

([1]) انظر دراسات في علوم القرآن الكريم ، للدكتور فهد الرومي ، طباعة مكتبة التوبة الرياض ١٤١٥هـ ١٩٩٤م ص ٣٩ .

([2]) رواه الإمام أحمد في مسنده ج١ ص ٢٦٦ .

الوحي الذين عهد إليهم الرسول الكريم بكتابة القرآن ولم يكتمل نزول الوحي عليه من السماء، أما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقد كان قارئ القرآن لرسول الله ﷺ والذي قال عنه "من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد"([1]). وعلى منهاج أئمة التفسير من الصحابة سار أئمة التفسير من التابعين فكانت أساليب التفسير المعروفة وهي:

١) التفسير التحليلي.

٢) والتفسير المقارن.

٣) والتفسير الجملي أو الإجمالي.

٤) والتفسير الموضوعي.

أما التفسير التحليلي فهو الذي يتتبع فيه المفسر الآيات حسب ترتيب المصحف سواء تناول جملة من الآيات متتابعة أو سورة كاملة أو القرآن الكريم كله، ويبين ما يتعلق بكل آية من معاني الفاظها ووجوه البلاغة فيها وأسباب نزولها وأحكامها ومعناها ونحو ذلك ، فهو أقدم أساليب التفسير فقد كان التفسير في نشأته الأولى يتناول الآيات المتتابعة ولا يتجاوزها المفسر إلى غيره.

وهذا الأسلوب من التفسير هو الغالب على المؤلفات في التفسير وأشهر التفاسير وأهمها قديما وحديثا ومن ذلك تفسير جامع البيان للإمام الطبري وفتح القدير للشوكاني وتفسير القرآن العظيم لابن كثير.([2])

والتفسير المقارن هو الذي يعمد المفسر فيه إلى الآية أو الآيات فيجمع ما حول موضوعها من نصوص سواء كانت نصوص قرآنية أخرى أو نصوص نبوية

([1]) مسند الإمام أحمد ج١ ص٧ .

([2]) راجع بحوث في أصول التفسير ومناهجها للدكتور فهد الرومي طباعة مكتبة الرياض الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ ص ٥٧ وما بعدها.

أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم أو أقوال التابعين والمفسرين أو الكتب السماوية الأخرى، ثم يقارن بين هذه النصوص ويوازن بين الآراء ، ويستعرض الأدلة ويبين الراجح منها.(١).

والتفسير الإجمالي أو الجملي هو الأسلوب الذي يعمد فيه المفسر إلى الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف فيبين معاني الجمل فيها متتبعا ما ترمي إليه الجمل من أهداف ويصوغ ذلك بعبارات من ألفاظه ليسهل فهمها وتتضح مقاصدها للقارئ والمستمع ومن أمثلة المؤلفات بهذا الأسلوب تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي.(٢)

وأما التفسير الموضوعي وهو أسلوب لا يفسر فيه صاحبه الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف بل يجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع فيفسرها، كتفسير القرآن بالقرآن أو تفسير آيات الأحكام ومن أمثلته الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي والأشباه والنظائر للثعلبي والدراسات التفسيرية كأمثال القرآن للماوردي(٣)، وهذا الأسلوب هو موضوع بحثنا وهو ما سنتناوله إن شاء الله تعالى بشيء من التفصيل.

والسبب الرئيسي الذي دفعني للكتابة عن التفسير الموضوعي هو أنه عندما طلب مني أن أقوم بتدريس مادة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لطلاب كلية الدعوة والإعلام بجامعة أم درمان الإسلامية ومن بعد طلاب الدراسات القرآنية بكلية المعلمين في بيشة، رأيت أن أعيش مع كتاب الله تعالى وأن أقوم بقدر ما أستطيع من جهد بجمع المادة العلمية حسب المنهاج المقرر من التفسير الموضوعي.

---

(١) ١ و ٢و ٣ راجع نفس المرجع السابق ص ٥٧ وما بعدها.

ولعل الباحث والدارس لهذا الجانب من التفسير يجد عناء شديدا لإفتقار المكتبة الإسلامية لهذا اللون من التفسير ومع أن تاريخ هذا العلم "التفسير الموضوعي" قديم فلا يوجد في الكتب القديمة كتاب أو مرجع يعول الإنسان عليه كثيرا، ومع ظهور هذا المصطلح حديثا فإنك لا تجد إلا متفرقات هنا وهناك، لأن المفسرين للقرآن الكريم غلب على تفسيرهم جمع آيات القرآن الكريم وسوره حسب ترتيب المصحف وقاموا بتفسيره، كما أن الذي كتبه العلماء القدماء والمحدثون من موضوعات مثل الإعجاز والأشباه والنظائر والناسخ والمنسوخ والجدل والأمثال وأسباب النزول ما هي إلا مباحث من علوم القرآن الكريم وليست تفسيرا موضوعيا مع وجود صلة بين تلك الموضوعات والتفسير الموضوعي بوجه من الوجوه.

ومن هذا المنطلق رأيت أن أقوم بدارسة متواضعة لهذا اللون من التفسير محاولا تغطية بعض الجوانب الهامة فيه خدمة لكتاب الله سبحانه وتعالى في المقام الأول ، ثم لإفادة طلاب العلم منه مما جعلني أن أسميه "محاضرات في التفسير الموضوعي" فقد كانت المحاضرة الأولى بعنوان مدخل إلى التفسير الموضوعي فشملت تعريفه ونشأته وتطوره وأنواعه وأهميته.

والمحاضرة الثانية جعلتها في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم تعريفها، ومعناها، وأمثلة لها، ومن ذلك الوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم، وأما المحاضرة الثالثة فقد دخلت بها إلى الموضوعات التي تتعلق بسور وآيات القرآن الكريم والتي تأخذ وحدة موضوعية في موضوع واحد، وكانت المحاضرة الثالثة في الولاء والبراء في القرآن الكريم وشمل ذلك عدة مباحث : المبحث الأول الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها والمبحث الثاني: وجوب موالاة المؤمنين والمبحث الثالث: وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار

عداوتهم كالكفار والمشركين وأهل الكتاب من يهود ونصارى والمنافقين والمحادين لله ورسوله ولو كانوا ذوي قربى والمبحث الرابع تحدثت فيه عن صور من التولي المنهي عنه في القرآن الكريم كالمحبة والموادة واتخاذهم أنصارا وأعوانا والإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر أو التحاكم إليهم أو الركون إليهم أو اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين أو طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون والتشبه بهم، أما المبحث الخامس فقد تناولت فيه الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى وشيء من صور المعاملة الجائزة.

أما المحاضرة الرابعة فقد جاءت عن منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم وشمل ذلك الحديث عن بعض صفات إبراهيم عليه السلام من أنه كان أمة قانتا لله حنيفا ، شاكرا لنعم ربه، أواه حليم ، خليل ، سخي وكريم وبرا بأبيه وصبره وتحمله وتوكله وشجاعته وأثر ذلك في دعوته إلى الله تعالى، كما تناولت أساليب إبراهيم النظرية في الدعوة إلى الله كالمناظرة والمحاجاة والمعاريض والاستعطاف وأستعارة الخصم والأساليب العلمية كالقدوة والبداءة بالأهم، والبداءة بالأقربين، واللين أولا ثم الشدة والتحدي والمفاصلة والدعاء والتضرع إلى الله وتحطيم الأصنام والهجرة وبناء البيت والمبادرة بامتثال أمر الله بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

أما المحاضرة الخامسة فكان عنوانها منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت، ولقد سلك القرآن في ذلك مسالك تجمع بين الجوانب الفطرية والعقلية والحسية كالاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، والاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيهما، والاستدلال بخروج النبات من الأرض، والاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت في الحياة الدنيا كصاحب القرية وإحياء الطيور لإبراهيم عليه السلام والملأ من بنى إسرائيل وقوم موسى السبعون والقتيل الذي

ضرب بعضو من أعضاء البقرة ، وكذلك الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر، والاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم، والاستدلال بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء.

وجاءت المحاضرة السادسة في الحديث عن مكائد الشيطان للإنسان وطوق الحيطة والحذر كما عرضها القرآن الكريم، وذلك من تزيينه الباطل، وتسميته الأمور بغير إسمها، والوعد والتمني، وإظهار النصح للإنسان ، والعمل على إنساء الإنسان ما فيه الخير والصلاح، وتخويف المؤمنين من أوليائه، وإلقاء الشبهات، والخمر والميسر والسحر، ومن طرق الحيطة والحذر: الالتزام بالكتاب والسنة والالتجاء إلى الله والاحتماء والاستعاذة من الشيطان بكثرة الذكر حتى يخنس الشيطان ويختفي من قلب المؤمن.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعلناه عنوانا للمحاضرة السابعة فبينا أولا مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم كما وقفنا على حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصفات التي ينبغي أن يتصف بها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ومن تلك الصفات العلم والعمل بما يقول والصبر والرفق واللين والتيسير والتبشير.

أما المحاضرة الثامنة فتحدثت عن الجهاد في الإسلام من خلال سور القرآن الكريم وشمل ذلك الحديث عن فضل الجهاد والمجاهدين وأهداف القتال في القرآن الكريم وفضل الشهداء.

أما الصلاة في سور القرآن الكريم فقد كانت موضوع محاضرتنا التاسعة، فتناولنا أدلة فرضيتها في القرآن الكريم، ومنزلتها في القرآن الكريم، والخشوع فيها

والمحافظة عليها والمداومة فيها، وأثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع، وما أعده الله من الثواب لمقيمين للصلاة في القرآن الكريم.

وجعلنا بر الوالدين محاضرتنا العاشرة فبينا عناية القرآن الكريم بالوالدين وبيان حقوقهما بالإحسان إليهما وبالكلمة الطيبة وحسن المعاملة، وبالتواضع ولين الجانب ، والدعاء لهما، وبطاعتهما في غير معصية الله.

أما المحاضرة الحادية عشرة فقد تحدثت عن الصبر في القرآن الكريم متناولين مجالات الصبر من قيام بالواجبات الدينية ومخالطة الناس والجهاد في سبيل الله والدراسة والبحث العلمي كل تلك الجوانب تحتاج إلى صبر جميل، وبينا فضل الصبر وثوابه، وروائع أمثلة الصبر على البلاء وأخذنا نموذجين على ذلك من القرآن الكريم هما نبي الله إبراهيم ونبي الله أيوب عليهما وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم إمام الصابرين والمجاهدين.

أما أثر المعاصي على الأمم فجعلناه موضوع محاضرتنا الثانية عشرة في محاضراتنا في التفسير الموضوعي، فتناولنا هذا الموضوع الهام من خلال تحذير آيات القرآن الكريم من المعاصي وتعرضنا لآثار المعاصي في القرآن الكريم من زوال النعمة ومحو البركة من الأرض وزوال الأمن والعقوبة والهلاك أعاذنا الله منها.

وجاءت المحاضرة الثالة عشرة والأخيرة في التطبيق العملي للوحدة الموضوعية في سورة من القرآن ، وشمل ذلك الحديث عن الوحدة الموضوعية في سورة النور.

وبعد: فعلى الرغم من تلك المحاضرات التي ألقيتها على طلابي عدة سنوات إلا أنني أقول أنها لم تحصر كل ما تعلق بآيات التفسير الموضوعي في القرآن الكريم لأن البحث في موضوعات آيات وسور القرآن مرتبطة بعجائب

القرآن ومعجزاته فهذا مداد الله الذي لا تنفد كلماته ، إلا أننا قمنا بتفسير الآيات التي جمعناها في وحدة موضوعية معينة تفسيرا يفهم منه المراد بتلك الوحدة المجموعة من الآيات، كما قمنا بدراسة كل موضوع باعتباره وحدة متكاملة واصطحبنا الاستدلال بالسنة ما أمكننا ذلك، والله أسأل أن يغفر لنا الخطأ والذلل في سفرنا هذا وأن يثبتنا على الصواب الذي وفقنا إليه خدمة لكتابة العزيز هذا والله أعلا واعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم،

كتبه الراجي لعفو ربه د/عباس عوض الله عباس

بيشة كلية المعلمين في العام الدراسي ١٤٢١/١٤٢٢هـ

المحاضرة الأولى:

مدخل إلى التفسير الموضوعي

المبحث الأول: تعريف التفسير الموضوعي

إن كلمة تفسير وموضوعي تتألف من جزئين ركبا تركيبا وصفيا فلابد من تعريف كل جزء من هذين الجزئين.

فالتفسير لغة: من الفسر وهو الكشف والبيان وإظهار المعنى المعقول والتفسير مبالغة من الفسر([1])، ويقال أيضا أسفر الصبح إذا بان ووضح.

والتفسير في اصطلاح الشرع: هو عبارة عن الكشف عن معاني آيات القرآن الكريم والغوص في أعماقها للوصول إلى مراد الله تعالى منها بقدر طاقة البشر.([2])

أو هو علم يكشف به عن معاني آيات القرآن وبيان مراد الله تعالى منها حسب الطاقة البشرية.([3])

أما كلمة موضوعي في اللغة: الموضوع لغة من الوضع وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض أو بمعنى الأبقاء والتثبيت في المكان، يقال ناقة واضعة: إن رعت الحمض حول الماء ولم تبرح، وقيل وضعت تضع وضيعة فهي واضعة، وكذلك موضوعة يتعدى ولا يتعدى، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به.([4])

([1]) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ٥٧١ .

([2]) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم د.زاهر عواض الألمعي ص ٧ .

([3]) المدخل إلى التفسير الموضوعي د.عبد الستار سعيد ص ٢٠،٢٣ .

([4]) مباحث في التفسير الموضوعي د.مصطفى مسلم ص ١٥ .

وفي الاصطلاح: قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي أو مظاهر الكون تعرضت لها آيات القرآن الكريم.

أما تعريف المصطلح (التفسير الموضوعي): بعد أن أضيفت كلمة تفسير إلى موضوعي صارت علما على هذا الفن بعد أن ركبت معها وصارت كلمة واحدة كتركيب (معد يكرب)، فالتفسير الموضوعي عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد مشتركة في الهدف وترتيبها على حسب النزول كلما ما أمكن ذلك، ثم تناولها بالشرح والتفصيل وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين والملحدين من أعداء الدين.([1])

أو هو بعبارة موجزة: التفسير الموضوعي: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال آيات أو سورة أو أكثر.([2])

ولعل هذا التعريف المختصر هو الأرجح لخلوه من التكرار والشرح والتوضيح كما في التعريف الأول.

ويرى بعض العلماء : أن التفسير الموضوعي يطلق ويراد به أمران بينهما ارتباط من بعض الوجوه.

الأول:

جمع الأشباه والنظائر في القرآن الكريم حسب مادة الكلمة اللغوية، ثم ترتيبها ترتيبا معجميا، ككتاب (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للفقيه الدامغاني) وكتاب (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي).

([1]) انظر التفسير الموضوعي د.محمد القاسم ص ٨،٧ .

([2]) انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي د.عبد الستار سعيد ص٢٠ .

الثاني:

ذكر الموضوع ثم جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن مما لها علاقة بـــه، سواء اشتركت معه في اللفظ أو المعنى أو ارتبطت بالموضوع إرتباطا قويًا ولو مـن بعض الوجوده وذلك مثل "موضوع المرأة في القرآن الكريم" فتجمع الآيـــات التـــي تحدثت عن المرأة في الزواج والطلاق والحضانة والميراث والعلاقة الزوجية وغير ذلك مما يتعلق بشئون المرأة كما تناولته الآيات القرآنية.([1])

وهناك موضوعات كثيرة في القرآن الكريم لا حصر لها كما أشرت إلـــى ذلك في مقدمة الكتاب، ومن كل ما تقدم من حديث فإنه يمكن أن نعـــرف التفســير الموضوعي: بقولنا: هو جمع الآيات المتفرقة في سور القـــرآن الكريـــم المتعلقـــة بالموضوع الواحد لفظًا أو حكمًا وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.

([1]) بتصرف من دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور الألمعي ، ص ٨ وما بعدها.

المبحث الثاني

نشأة وتطور التفسير الموضوعي

يرى البعض أن التفسير الموضوعي كان متناولا منذ عهد الرسول الكريم ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم وإن لم يعرف بهذا الاسم أو المصطلح.([1]) "التفسير الموضوعي".

إلا أن البعض يرى أن هذا العلم لم يعرف إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر إلا أن لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله ﷺ .([2])

ومما يدل على ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية: (﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .....الأنعام ٨٢) شق ذلك على الناس ، فقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال :"إنه ليست الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح :(﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (لقمان ١٣) إنما هو الشرك).([3]).

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ فسر مفاتح الغيب في قوله تعالى: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ الأنعام (٥٩) فقال الغيب خمس:"إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ....لقمان ٣٤)([4]).

([1]) انظر أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي ص ٦٣ .

([2]) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص ١٧ .

([3]) صحيح البخاري كتاب التفسير ٢٠/٦ وصحيح مسلم كتاب الإيمان ٨٠/١ .

([4]) صحيح البخاري كتاب التفسير ١٩٣/٥ .

ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة رضوان الله عليهم من الجمع بين الآيات القرآنية التي يظن بها بعضهم التعارض ، كما روى البخاري قال: وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال:قال : رجل لابن عباس رضي الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي قال: (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) (ولايكتمون الله حديثا) (والله ربنا ما كنا مشركين) فقد كتموا في هذه الآية وقال تعالى: ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها إلى قوله والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين إلى قوله :طائعين﴾فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والأكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى ﴿ دحاها﴾ ([1])

وقد وضع العلماء بعد ذلك قاعدة في أصول التفسير بضرورة العودة إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة تفسير آية ما، فما أجمل في مكان فصل في مكان آخر، وما أطلق في سورة مقيد في سورة أخرى، يقول ابن تيمية رحمه الله "٠٠٠٠ إن أصح الطرق في ذلك أي في تفسير القرآن، أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما أختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر"([2])٠

والمثال على ذلك قوله تعالى في سورة النحل ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ النحل (١١٨) فقد أفادت الآية الكريمة أن ما حرم على اليهود قد سبق أن قصه على نبيه مفصلا في الآية ١٤٦ سورة الأنعام قوله تعالى

([1]) صحيح البخاري كتاب التفسير: ٣٦/٦ ٠

([2]) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تحقيق عدنان زرزور ص ٩٣ ٠

﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر من البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾([1]).

والمثال الثاني ما يتعلق بالمحرمات من بهيمة الأنعام فقد جاءت مجملة في قوله تعالى:﴿ ...أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ المائدة (١)وقد جاء التفصيل على ما حرم من بهيمة الأنعام على هذه الأمة قوله تعالى:﴿ قلا لا أجد فيما أوحي إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ﴾ الأنعام (١٤٥).

وقد جمع الفقهاء هذه الآيات ذات الصلة بموضوع واحد في كتبهم الفقهية، فجمعوا ما يتعلق بالوضوء والتيمم تحت كتاب الطهارة واستنبطوا منها الأحكام الخاصة بها، كما جمعوا في الآيات ما ورد في الصلاة في كتاب الصلاة،وما يتعلق بآيات الصدقات والمصارف والزكاة وأنواع المال التي تخرج منها الصدقة تحت كتاب الزكاة، فيعد كل ذلك لون من ألوان التفسير الموضوعي في مراحله الأولى([2])

كما اتجهت الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم اتجاها لغويا بتتبع الألفاظ القرآنية ومحاولة معرفة مدلولاتها المختلفة ككتاب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان البلخي، كما ألف الإمام علي بن المديني شيخ الإمام البخاري والمتوفي سنة ٢٣٤هـ في أسباب النزول، وأبو بكر الجصاص المتوفي ٣٧٠هـ كتابة أحكام القرآن وأمثال القرآن الكريم للماوردي المتوفي ٤٥٠هـ

([1]) سورة الأنعام ، الآية ١٤٦ .

([2]) انظر مباحث في التفسير الموضوعي د.مصطفى مسلم ص١٩ .

وأقسام القرآن لابن القيم المتوفي ٧٥١هـ وهذه الكتب كلها جانب في التفسير الموضوعي في ألوان مختلفة.([1])

واستمر الأمر كذلك إلى عصرنا الحاضر حيث توجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الكريم في الاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية والعلوم الكونية والطبيعية فنجد مؤلفات مثل الإنسان في القرآن والأخلاق في القرآن والصبر في القرآن واليهود في القرآن والرحمة في القرآن وكتاب المستشرق الفرنسي جول لابوم "تفصيل آيات القرآن الكريم" ومن خلال تصفحك لأبواب هذا الكتاب وفروعه المختلفة كالتاريخ والشريعة والتجارة والعلوم والفنون فهو بهذا يعد لم شتات موضوع من الموضوعات القرآنية.([2])

وإذا تتبعنا التفاسير نجد في بعضها الاتجاه إلى التفسير الموضوعي ولو من بعض الوجوه، كتفسير ابن كثير رحمه الله فنجده يجمع كثيرا من الآيات التي ضرب فيها المثل كقوله تعالى ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ البقرة (٢٦) فيقول :"فاخبر أنه لا يستصغر شيئا يضرب به مثلا ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت"([3]) ، فهذه الأمثال كلها تكلمت عن موضوع واحد هو قدرة الله تعالى.

ومن تلك النماذج القديمة للتفسير الموضوعي كتاب: التبيان في أقسام القرآن ، والناسخ والمنسوخ ، في موضوعات متعددة من القرآن، كما ظهرت بجوار التفاسير الكاملة للقرآن أنواع أخرى من المؤلفات في موضوعات القرآن

([1]) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص ٢٠ .

([2]) انظر دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر الألمعي ص ١٥ .

([3]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير مجلد ١ ص ٦٤-٦٥ .

الكريم، كالمجاز في القرآن ومجاز القرآن والقراءات وما يتعلق بها واستمرت هذه الدراسات لتصب في لون جديد من ألوان التفسير في عصرنا الحاضر وهو ما عرف بالتفسير الموضوعي ككتاب الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا ودستور الأخلاق للدكتور/محمد عبد الله دراز وأثر التربية في القرآن لمحمد الشرقاوي، والتفسير الموضوعي لبعض سور القرآن للدكتور/ محمد البهي.

وتطور التفسير الموضوعي حتى أصبح علما يقصده الباحثون متناولين فيه كل ما يتعلق بموضوعات القرآن الكريم.

ولقد اهتم بالتأليف في موضوعات القرآن الكريم عدد من العلماء على اختلاف عصورهم ومذاهبهم واهتمامهم كما سنرى:

أولا : فقد ألف في موضوع الناسخ والمنسوخ كل من:

١) قتادة بن دعامة السدوسي المتوفي سنة ١١٨هـ.

٢) أبو عبيد القاسم المتوفي سنة ٢٢٤هـ.

٣) أبو جعفر النحاس المتوفي سنة ٣٣٨هـ.

ثانيا : وألف في معاني القرآن الكريم:

أبو زكريا الفراء المتوفي سنة ٢٠٧هـ.

ثالثا : وألف في غريب القرآن الكريم:

١) أبو بكر السجستاني المتوفي سنة ٣٣٠هـ.

٢) الراغب الأصفاني المتوفي ٥٠٣ .

رابعا : وألف في مشكل القرآن:

ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦هـ.

خامسا : وألف في مجاز القرآن الكريم:

١) أبو عبيدة المتوفي سنة ٢٠٦هـ.

٢)الشريف الرضى المتوفي سنة ٤٠٦هـ.

سادسا : وألف في إعجاز القرآن الكريم:

١) الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ.

٢) الرماني المتوفي سنة ٣٨٦هـ.

٣) الخطابي المتوفي سنة ٣٨٨هـ.

٤) الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣هـ.

٥) الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١هـ وغيرهم كثير.

سابعا : وألف في أقسام القرآن:

ابن القيم الجوزية المتوفي سنة ٧٢١هـ.

ثامنا : وألف في أسباب النزول:

١) علي بن المديني المتوفي سنة ٢٣٤هـ.

٢) أبو الحسن الواحدي المتوفي سنة ٤٦٨هـ.

٣) الإمام السيوطي بالإضافة لكتابة القيم الاتقان في علوم القرآن.

تاسعا : وألف في تناسب الآيات والسور البقاعي المتوفي سنة ٨٨٥هـ.

إن كل تلك المؤلفات أسهمت بشكل فاعل في نشأة التفسير الموضوعي بمفهومه الشامل.([1])

([1]) راجع دراسات في التفسير الموضوعي لقصص القرآني للدكتور أحمد جمال العمري ص٥٠ وما بعدها.

المبحث الثالث

أنواع التفسير الموضوعي

ينقسم التفسير الموضوعي إلى ثلاثة أنواع رئيسية: ([1])

الأول: أن يتتبع الباحث كلمة من كلمات القرآن الكريم ويجمع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية ثم يقوم بتفسيرها واستنباط دلالاتها واستعمالات القرآن الكريم لها.

وقد اهتمت بهذا الموضوع من التفسير كتب الأشباه والنظائر مع وقوفها عند دلالة الكلمة من غير ربط بين مواضع ورودها واستعمالاتها في كل موضع فلم يتعد ذلك كله الدلالة اللفظية.

ثم اتسع هذا اللون من التفسير فتتبع المفسرون الكلمة وحاولوا الربط بين دلالتها في مختلف المواضع وأظهروا بهذه الطريقة معاني جديدة، وألوانا من البلاغة ووجوها من الإعجاز القرآني واستنبطوا دلالات قرآنية دقيقة لا تظهر بغير هذا المسلك. ومن أمثلة المؤلفات على هذا النوع: كلمة الحق في القرآن الكريم للشيخ محمد عبد الرحمن الراوي والمصطلحات الأربعة في القرآن الكريم "دلالة الرب-العبادة-الدين" للشيخ أبي الأعلى المودودي، والحمد في القرآن الكريم للدكتور محمد محمد خليفة ومن مفردات القرآن "المنافقون" للدكتور محمد جميل غازي وتأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم (الحواس-القلب-الفؤاد) للدكتور محمد الشرقاوي وكتاب الأمة في الدلالة العربية والقرآنية للدكتور أحمد فرحات.

الثاني: جمع الآيات القرآنية التي تتناول قضية واحدة بأساليب مختلفة عرضا وتحليلا ومناقشة وتعليقا وبيان حكم القرآن فيها.

([1]) بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي ص٦٦ وما بعدها.

والمفسر يجعل الموضوع ذاته همه الأول فلا يشتغل بذكر القراءات ووجوه الإعراب وصور البلاغة إلا بمقدار صلتها بما تخدم الموضوع الذي اختاره ، وهذا النوع هو أشهر أنواع التفسير الموضوعي وأكثرها تأليفا ودارسة، والمؤلفات في هذا النوع كثيرة قديما وحديثا مثل إعجاز القرآن والناسخ والمنسوخ وأحكام القرآن وأمثال القرآن وجدل القرآن وبلاغة القرآن ، وفي العصر الحديث أضيفت إلى هذه العلوم موضوعات اجتماعية واقتصادية وساسية وغير ذلك، كآيات الجهاد في القرآن الكريم لكامل سلامة والمال في القرآن لمحمود غريب ، والقرآن والطب لمحمد وصفي، ودستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز وموضوعات أخرى كثيرة.

النوع الثالث: هو تحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة وحدها فدائرة هذا النوع أضيق من النوع الثاني، ومن المعلوم أن لكل سورة من السور القرآنية شخصيتها المستقلة وأن لها هدفا واضحا ترمي إلى إيضاحه وبيانه، وإدراك هدف السورة يكشف للباحث معاني دقيقة ومناسبات لطيفة وصورا بليغة.

ومن تميز تفسيره بالعناية ببيان مقاصد السور وأهدافها الأستاذ سيد قطب – تقبله الله ورحمه– حيث التزم أن يقدم لكل سورة مقدمة يبين أهدافها وينطلق في تفسيرها على هذا المحور مما أعطى تفسيره الظلال صبغة فريدة.

ومن المؤلفات في هذا النوع من التفسير: تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام للدكتور إبراهيم كيلاني ونماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم عبد المنعم الشفيع وقضايا العقيدة في ضوء دراسة سورة ق للأستاذ كمال محمد عيسى وقضايا المرأة في سورة النساء للدكتور محمد يوسف وسورة الواقعة ومنهجها في العقائد للدكتور محمود غريب والوحدة الموضوعية في سورة يوسف

للدكتور محمد باجودة والوحدة الموضوعية في سورة الأنعام للدكتور عباس عوض الله.

ومن هنا يتضح لنا أن التفسير الموضوعي من أهم أساليب التفسير وله مزايا عديدة وكثيرة.

ومما تقدم ذكره يتضح لنا أن أنواع التفسير تنحصر في ألوان ثلاثة فاللون الأول: هو الذي يتتبع فيه الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية ومن تفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها وذلك كمعنى كلمة "الخير" في قوله تعالى ﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم ﴾ يعني من مال ، وفي قوله تعالى ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ يعني لو علم الله فيهم إيمانا، والخير بمعنى الإسلام في قوله تعالى ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير ربكم ﴾ والخير بمعنى العافية في قوله تعالى ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ والخير بمعنى الأجر في قوله تعالى ﴿ لكم فيها خير ﴾ والخير بمعنى الطعام ﴿قال ربي إني لما أنزلت إلى من خير فقير﴾ يعني الطعام، والخير بمعنى الظفر والغنيمة كما في قول الله سبحانه وتعالى:﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا﴾ يعني ظفرا وغنيمة، فبقيت الكلمة في دلالة اللفظ المفرد دون استنباط الدلالات التوجيهية القرآنية.

أما اللون الثاني: والذي يتعلق بتحديد الموضوع بما عرضه القرآن الكريم له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق، وذلك بتتبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، ثم يحاول الباحث إستنباط عناصر الموضوع وينسق بين عناصر الآيات ثم يقسم الموضوع

إلى أبواب وفصول ومباحث،متجنبا التعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات من القراءات والإعراب إلا بمقدار ما يحتاج إليه ويهتم ببيان مقاصد الآيات والحكمة الإلهية في عرض الموضوع بأساليب معينة وألفاظ محددة.

وهذا اللون هو أقرب الألوان لما تحتويه كلمة "تفسير موضوعي من معنى".

أما اللون الثالث: فهو الهدف الأساسي في السورة الواحدة ويكون هذا الهدف هو محور التفسير الموضوعي في السورة وطريقة البحث في هذا اللون : هو أن يستوعب الباحث هدف السورة ثم يبحث عن مميزات وفضل أسباب نزول السورة ويضيف إليها الأساليب القرآنية في عرض الموضوع والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة، مما يجعل لكل سورة شخصيتهاالمستقلة فالسورة المكية تعرض أسس العقيدة والمدنية تبرز أصول الأحكام الشرعية، ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي عند قدماء المفسرين، بل جاء في ثنايا تفاسيرهم ، ولكنه برز بصورة واضحة عند المحدثين وخاصة في عصرنا الحاضر.([1])

والحديث عن أنواع التفسير الموضوعي يقودنا للتحدث عن صلة التفسير الموضوعي بالأنواع الأخرى من التفسير (تحليلي-جملي-مقارن) لأن مجال البحث واحد هو كتاب الله سبحانه وتعالى، فالتفسير التحليلي لا يستغني عنه الباحث في التفسير الإجمالي أو الموضوعي أو المقارن لأن التفسير التحليلي ينصب في معرفة دلالة الكلمة اللغوية والشرعية والربط بين الكلمات في الجملة وبين الجمل، وكذلك لمن أراد تناول الآيات وتفسيرها بالأسلوب المقارن بين المفسرين ليحكم على صواب منهج المفسر، فلا غنى للباحث في التفسير الموضوعي عن الأنواع المتقدمة من التفسير، لأن التفسير الموضوعي هو ثمرة أساليب التفسير مجتمعة،إذ

([1]) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص٢٥ وما بعدها.

لابد من الإحاطة بأنواع التفسير لمن أراد أن يقيم بنيانه على التفسير الموضوعـــــي للقرآن الكريم.([1])

([1])راجع المرجع السابق ص٥٢ وما بعدها.

المبحث الرابع

أهمية التفسير الموضوعي

تكمن أهمية الحاجة إلى التفسير الموضوعي في مجتمعاتنا المعاصرة من أي وقت مضى ، وذلك لبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية، وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة حيث لا يمكن تغطيتها وإيجاد الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

وذلك من خلال معرفة الهدايات القرآنية وإرشادات السنة النبوية بحيث تكون للمفسر ملكة لإدراك مقاصد القرآن الكريم في هذا الصدد، وبمنظار القرآن الكريم ينظر إلى حل المشكلات المستجدة، فيصل الباحث في التفسير الموضوعي من خلال تلك الهدايات إلى أنوار كاشفة ترسم لنا طريق المعرفة وتحدد لنا معالم تقويم كل ما استحدث من جديد، لذا فإنه لا يمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم الذي هو أسلوب التفسير الموضوعي.

إن تخصيص موضوع معين من خلال النصوص القرآنية ودراسته من جميع أطرافه من أسباب نزول وتحديد المرحلة التي نزلت فيها الآيات من معالجة القضايا، هيأ للموضوع مناخا علميا لدراسة الموضوع بعمق وشمولية تثري المعلومات وتبلور القضايا وتبرز المعالم.

ومثل هذا العمق والتوسع لإبراز معالم الموضوع لا يتيسر للباحث في أي نوع من أنواع التفسير التحليلي أو الإجمالي أو المقارن، بل نجد أن التفسير الموضوعي هو الأسلوب الأمثل في بحث مثل هذه الأمور.([1])

([1]) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص٣١ .

ومن أهمية التفسير الموضوعي أن الباحث فيه يستطيع أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، ويجد أهل الاختصاص في كل فن أن المعجزة الخالدة الباقية تقيم الحجة على الأجيال وأن في القرآن كفاية عن كل شيء ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ۰ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾۰۰۰العنكبوت (٥٠،٥١)۰

وتكمن أهمية التفسير الموضوعي في تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها، فقد نالت بعض العلوم القرآنية حظا وافرا من جهود العلماء وصنفت فيها عشرات المصنفات مثل العلوم المتعلقة بالجوانب اللغوية، والدراسات الفقهية لآيات الأحكام، لكن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم برز إلى الساحة الإنسانية حديثا فهو يحتاج إلى الضبط بقواعد العلم المستمدة من هداية القرآن الكريم للبعد عن الإفراط فيه بمعاملة الآيات القرآنية معاملة العلوم التجريبية من علوم الفلك والطبيعة والإنسان۰

والتفسير الموضوعي يعطي مدا جديدا لإنتشار تعاليم هدي القرآن كما أنه يفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ليحاول كل واحد منهم "فهم تخصصه من خلال الهدي القرآني بصورة أعمق وأدق ، فرجل الفقه يعنى بآيات التشريع والأحكام والحدود، ورجل الاقتصاد يعنى بآيات المال والإنتاج والتوزيع والإنفاق، ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية، ورجل التربية يعتمد على آيات التوجيه والإرشاد والقصص، وهكذا يعني كل متخصص بموضوع تخصصه ومجال اهتمامه، ويركز عليه ويجد فيه بكل ما آوتي من علم وفق قواعد التفسير المعتبرة، كما أن تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة كفيل بأن يبين للناس لونا جديدا من الإعجاز يتمثل في معنى القرآن لسعة القرآن وما أحتوت عليه

الموضوعات القيمة والمختلفة مما يجعل للتفسير الموضوعي أهمية قصوى في عصرنا الحاضر.([1])

إن التفسير الموضوعي منهج يغطي كل تلك المجالات المختلفة ويؤصل للعلوم ويضع الأسس والضوابط لها، فيمكن لمن تناول التفسير الموضوعي أن يستشف من النصوص القرآنية هدايات القرآن في كافة المجالات المختلفةوليست هنالك من وسيلة للوصول لتلك الأهداف إلا من خلال وضع نماذج لهذه العلوم وبيان ضوابطها من خلال التعامل مع الآيات الكريمة وفق منهج التفسير الموضوعي الذي يجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة هدفها واحد وإن تعددت الموضوعات فهي تدور حول الغرض الأساسي، وأن تجمع الآيات ذات الهدف المشترك وترتب على حسب النزول وتتناول بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط مع الإحاطة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم بقصد الوصول إلى الغاية من البحث القرآني وإفادة المجتمع الإسلامي منه، ليخرج الموضوع في صورة متكاملة تامة ويكون هدف الباحث في ذلك إبراز محاسن القرآن الكريم.([2])

من كل ذلك يتبين لنا أهمية التفسير الموضوعي في تفسير القرآن الكريم.

([1]) بتصرف من دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر الألمعي ص٢١ .

([2]) انظر التفسير الموضوعي للدكتور محمد القاسم ص ١٢-١٩ .

المحاضرة الثانية

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

المبحث الأول : تعريفها ومعناها .

الوحدة في اللغة : الوحدة الإنفراد والواحد في الحقيقة هو الشيء الـــذي لا جزء له البته ثم يطلق على كل موجود . . فالواحد لفظ مشترك يطلق علـــى ســتة أوجه ما كان واحدا في الجنس مثل الإنسان والفرس ، أو النوع مثل محمد وعلـــي، أو ما كان واحدا بالاتصال في الشخص أو الصفة، أو ما كان واحدا لعـــدم النظـــير مثل الشمس، أو ما كان واحدا لعدم التجزئة فيه مثل الذرة، أو ما كان واحـــدا فـــي مبدأ العدد مثل واحد ، أو في مبدأ الخط كالنقطة، والوحدة في الكل عارضة.([1])

أما الوحدة فقد فسرت في المعاجم بالإنفراد وتستعمل الآن في معنىالإتحـــاد أو صيرورة الإثنين فما فوقها واحدا فيقال: وحدة الدولتين ووحدة قوانين التجـــارة، والوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم ،وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام.([2])

حينما درس النقاد المسرحية والقصة وهما من الفنون الأدبية المستحدثة فـــي اللغة العربية، تبين لهم أن الوحدة الموضوعية من أهم الشروط التي يجب توافرهـــا في العمل الأدبي، ونحن حينما نتكلم عن الوحدة الموضوعية في سورة معينة، فإننـــا لا نريد أبدا أن نقارن بين القرآن من جهة والفنون الأدبية من جهة أخرى، إنما نريد أن نوضح تلك الوحدة الموضوعية، ونبين التماسك العضوي ونؤكد الترابط الفنـــي الدقيق .

والمراد بالوحدة الموضوعية أن يكون العمل الفنـــي متماســـكا إلـــى أبعـــد درجات التماسك بحيث إن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئيـــة

([1]) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ضبط محمد خليل ،طباعة دار المعرفة، بيروت،ص٤٣٥

([2]) من مقال للشيخ محمد النجار في مجلة الأزهر ، عدد رمضان سنة ١٣٧٧هـ .

واحدة لأن العمل الفني يستغني عنها أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها، وينبغي أن نقرر ابتداء أن القرآن الكريم يجمع احسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى فتكتمل بذلك وحدة الأحداث الموضوعية في القرآن الكريم.([1])

إن القرآن الكريم يصور وحدة الأحداث الموضوعية في تسلسل فريد تجعل المتتبع للسرد القرآني خاصة في السورة التي تتحدث عن موضوع واحد، يحس بالسبك المتكامل في وحدة الموضوع من خلال السور القرآنية.

ويقول العلامة الشاطبي في موافقاته عن الوحدة الموضوعية:"إن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها تكون قضية واحدة أي تهدف إلى غرض واحد أو تسعى لإتمامه وإن اشتملت على العديد من المعاني كسورة المؤمنون"([2])

وهناك منهج آخر في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وهو المنهج الذي يقوم على جمع بعض الآيات المتفرقة في موضوع واحد وترتيبها حسب النزول مع الوقف على أسباب النزول ودراستها دراسة منهجية موضوعية كاملة لتعطينا موضوعا واحدا له وحدة موضوعية متكاملة متناسقة لا تباين فيها ولا اختلاف، ومن الظواهر القرآنية الملفتة للنظر والتي تأسر القلب ظاهرة تكرار الموضوع الواحد في سور مختلفة وبأساليب متباينة.([3])

([1]) بتصرف من الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام للدكتور حسن محمد باجودة ،طباعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، بدون تاريخ ،ص ٢٥ .

([2]) كتاب الموافقات للإمام الشاطبي ، مجلد ٣ ، ص ٢٤٩ .

([3]) كتاب الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمود محمد حجازي ،طباعة دار الكتب الحديثة مصر، ص٢٥ .

فالقرآن الكريم وصف الإنسان بأوصاف متعددة في أماكن متعددة في السور المكية تارة وفي السور المدينة تارة أخرى، نجد في السو المكية أن الله تعالى يقول: ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ سورة العلق وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود ﴾ سورة العاديات" وفي سورة الكهف: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾

وفي السور المدنية يقول تعالى: ﴿وخلق الإنسان ضعيفا﴾ النساء ٠ فهذه الأوصاف تكشف الإنسان وتظهره على حقيقته في تناسق تام وفي موضوع واحد رغم اختلاف الآيات والسور ٠

وكذلك نجد وحدة الموضوع في آيات كثيرة مثل الآيات التي تتحدث عن الخمر والقتال، تكسب وحدة الموضوع في القرآن الكريم أهمية قصوى، إن كل تلك القضايا التي تناولها القرآن عبر آياته إذا جمعت تكون موضوعا واحدا متكاملا وهو ما نسميه بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ذلك أن القرآن الكريم يطرق الموضوع الواحد بعدة أساليب وفي أماكن كثيرة مع ترابط الآيات والسور في موضوع واحد، فيمكننا أن نعرف الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم باختصار بأنها "هي وحدة الموضوع في القرآن الكريم مشتملا على منهجية البحث في جمع الآيات التي تتعلق بموضوع واحد وترتيبها حسب النزول مع بحثها في سورتها لبيان العلاقة بما قبلها وبما بعدها وبحث تسلسل الموضوع في السورة الواحدة للوصول للغاية المنشودة والتي هي الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال سوره وآياته٠(١)

معنى الوحدة الموضوعية:

أما بالنسبة لمعنى الوحدة فهي كون الشيء بحيث لا ينقسم وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والأنقسام، والموضوعية في استعمال اللغة: وضع يضع موضعا

---

(١) انظر المرجع السابق ، ص٣١ ٠

وموضوعا، والوضع يطلق على الحط مثل: وضعت رحلي "حططتـــه" ووضعـــت المرأة ولدها "ألقته" واستعمل مجازا في القرآن الكريم على عدة معان٠

﴿ والأرض وضعها للأنام﴾ بمعنى خلقها وأوجدها٠

﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ بمعنى بني وخصص للعبادة٠

﴿ ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ بمعنى حملوكم على السير بســـرعة لها٠

والموضوع في الكتب المؤلفة "موضوع العلم" ما بحث فيه عن عوارضـــه الذاتيـــة كجسم الإنسان بالنسبة لعلم الطب واللفظ العربي بالنسبة للنحو والموضوعية مصـــدر صناعي نسبة للموضوع المأخوذ من الموضع٠([1])

أما الوحدة الموضوعية كمركب وصفي فمعناها: ([2])

اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثرا وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف بل يؤلـــف وحدة موضوعية له كاملة كما نقول بعبارة أخرى "وحدة الموضوع"٠

وأما الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فالمراد منها: ([3])

البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القـــرآن الكريـــم فـــي ســـوره المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه لنحقـــق الهدف وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم٠

والمثال على ذلك التشريع في تحريم الخمر فإننا نجـــد أن القـــرآن الكريـــم تعرض لها في أربع سور وفي كل سورة كان له معنى وغرض ،فإذا جمعنـــا هـــذه القضايا ورتبناها لخلصنا من ذلك كله إلى أن موضوع تحريم الخمر الذي ذكر فـــي

([1])([2])([3]) بتصرف من الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي ص٣٣وما بعدها٠

أربع سور يكون وحدة موضوعية تامة كاملة هي تحريم الخمر تحريما كاملا،وإنما سلك القرآن فيها مسلك التدرج والتربية الحكيمة.

ولو أخذنا مثالا آخر كمسألة القتال أو الربا أو العقيدة نجد أن القرآن تكلم عنها كثيرا وتعرض لها في شتى صورها المختلفة ولفت النظر إلى الكون كله وما فيه، وبعد البحث والدقة في الفهم نخلص إلى حقيقة واحدة هي: أن كل هذه القضايا التي ذكرت تكون وحدة موضوعية كاملة.

والوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ترتكز إلى[1]: تكرار الموضوع الواحد في القرأن الكريم، وذكر الموضوع غير تام في سورة واحدة، وكمال الوحدة الموضوعية وتناسقه في جميع السور التي تكرر فيها الموضوع، وعدم كمال الوحدة الموضوعية بالنسبة لكل سورة ذكر فيها الموضوع على حدة، فهذه هي المرتكزات الهامة التي ترتكز عليها الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

---

(1) راجع الوحدة الموضوعية للدكتور حجازي ، ص٣٥ .

المبحث الثاني

أمثلة للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

ونريد بالأمثلة هنا على تعددها واختلافها نوعين من الأمثلة ٠ النوع الأول: الآيات المتفرقة التي تتحدث في موضوع واحد، والنوع الثاني: السورة أو السور القرآنية التي تتحدث في موضوع واحد٠

المثال الأول: جمع الآيات المتفرقة والتي تتحدث في موضوع واحد،إذا أراد الباحث أن يطرق مثل هذا الموضوع من موضوعات القرآن الكريم، لابد أن يكون تصورا لأبعاد الموضوع وأن يتدرج في جمع المادة العلمية متبعا الخطوات التالية: (١)

(أ) أن يختار عنوانا للموضوع القرآني الذي يريد البحث في آياته بعد تحديد معالم حدوده ومعرفة أبعاده٠

(ب) أن يجمع بقدر الإمكان كل الآيات التي تتعلق بالموضوع أو تشير إلى جانب من جوانبه٠

(ج) أن يرتب الآيات حسب النزول مكية كانت أو مدنية٠

(د) دراسة تفسير الآيات بالرجوع إلى كتب التفسير التحليلي ولابد من التعرف إلى دلالات الألفاظ واستعمالاتها والروابط بين الألفاظ في الجملة وبين الجمل في الآية وبين الآيات التي تتحدث عن الموضوع٠

(هـ) بعد الإحاطة بمعاني الآيات مجتمعة يحاول الباحث أن يستنبط العناصر الأساسية للموضوع من خلال التوجيهات القرآنية إن أحاط بها ٠ وللباحث أن يقدم أو يؤخر العناصر حسب أهميتها في موضوع الآيات٠

---

(١) راجع مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص ٣٧ وما بعدها٠

(و) ثم يلجأ الباحث بعد ذلك إلى التفسير الإجمالي في عرض الأفكار لبحثه مستشهدا بالأحاديث النبوية وفهم الصحابة رضوان الله عليهم لنصوص آيات القرآن الكريم.

(ز) كما لابد للباحث من الالتزام بمنهج البحث العلمي ، فإن كان الموضوع متشعب المباحث والمجالات فلابد من وضع تمهيد يبين الباحث فيه منهجه في تناول الموضوع ، ثم يقسم الموضوع إلى أبواب وفصول ومباحث، ويجعل للباب عنوانا وللفصل كذلك وللمبحث عنوانا خاصا له، أما إذا كان الموضوع محدد المعالم، واضح المجالات، قليل العناصر، فيمكن أن يجعل الباحث بحثه في شكل مقالة علمية تتكون من مقدمة والموضوع والخاتمة متناولا القضية بأسلوب علمي رصين.

(ح) وليكن هدف الباحث : إبراز حقائق القرآن الكريم مع ذكره حكمة التشريع وجماله ووفائه بحاجات البشر وملاءمته للفطرة السليمة وإطلاقه للطاقات الإيجابية في الإنسان.

ونأخذ مثالا على ذلك : صفات الأنبياء عليهم السلام: إذا تتبعنا القرآن الكريم واستعرضنا آياته التي تتحدث عن الأنبياء الكرام نجد فيها الذكر العطر والثناء الحسن لهؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين الذين اكرمهم الله بالنبوة ليكونوا حملة الهداية والإصلاح وقادة ركب الإنسانية إلى السعادة ، ومن صفاتهم في القرآن قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ الأنبياء (٧٣).

وصفات الأنبياء والرسل تتلخص في الآتي:([1])

(١) الصدق : وهذه الصفة ملازمة للنبوة وهي وإن كانت ضرورية للبشر إلا أنها بالنسبة لدعوة الأنبياء صفة لازمة ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى في حق النبي الكريم ﷺ ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ٠فما منكم من أحد عنه حاجزين٠ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾الحاقة الآيات٤٤-٤٨

(٢) الأمانة: وهو أن يكون النبي أمينا على الوحي يؤديه دون زيادة أو نقصان بلا تحريف ولا تبديل، فالأنبياء مؤتمنون على الوحي، قال تعالى في وصف النبي ﴿إني لكم ناصح أمين﴾ وقال عن نبينا محمد ﷺ ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ النجم الآية ٣،٤ ٠

(٣) التبليغ: وهذه صفة ملازمة للرسالة قال تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ المائدة ٦٧،فكل رسول مكلف بالتبليغ وكل نبي قد بلغ قومه ومنهم نوح وصالح وهود وشعيب وغيرهم من أهلك الله أقوامهم لعدم استجابتهم للدعوة ، وكل من هؤلاء يقول لقومه:﴿ لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾٠

(٤) الفطانة: وهي الذكاء والنباهة، فلم يبعث أحد من الأنبياء إلا وكان على جانب عظيم من النباهة والذكاء مع كمال العقل والرشد ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ الأنعام آية ١٢٤ ٠

وإذا كان البشر يعتريهم الضعف والشيخوخة ويصل بعضهم إلى حالة (الخرف) فإن الأنبياء يظلون على رجاحة العقل وقوة التفكير مهما أمتدت أعمارهم بعناية الله وحفظه لهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم٠

([1]) انظر هذه الصفات كاملة في كتاب دراسات في التفسير الموضوعي الألمعي ص٢٢٣ وما بعدها٠

(٥) السلامة من العيوب المنفرة: خلقية أو خلقية تنفر الناس منهم ، والأمراض المنفرة كالبرص والجذام فلا يمكن أن تصيب أحد الأنبياء عليهم السلام، وما روي عن ما أصاب نبي الله أيوب عليه السلام فهو من الإسرائليات الكاذبة التي لا يعتمد عليها، وقد ذكر لنا القرآن أن هناك ضر أصابه فدعا ربه فكشف الله عنه هذا الضر قال تعالى:﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ الأنبياء ٨٣،٨٤ . ونسب ما أصابه من ضر إلى الشيطان لأن الشيطان كان يوسوس إليه ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ ص ٤١ ،وظاهر الآيات أن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق بالبشر ويلحق الأنبياء، فإن المرض يعتريهم كالموت، وليس في ذلك ما ينقص من قدرهم أو مكانتهم.

(٦) العصمة: سميت العصمة عصمة ، لأنها تمنع من أرتكاب المعصية، وأما في الشرع: فهي حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي وارتكاب المنكرات والحرمات، فهم معصومون من الصغائر والكبائر، بعد النبوة باتفاق ، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعض المخالفات اليسيرة التي لا تخل بالمرؤة ولا تقدح بالكرامة والشرف.([1])

فهذا نموذج للتفسير الموضوعي لبعض الآيات التي تتعلق بموضوع واحد هو صفات الأنبياء كما جاءت في القرآن الكريم.

والمثال الثاني: التفسير الموضوعي لسورة من القرآن الكريم تشتمل على وحدة موضوعية:

([1]) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي مجلد ١ ، ص٣٠٨ .

قبل البدء في تفسير السورة لابد من دراسة أولية للسورة تحت عنوان "بين يدي السورة تتناول فضل السورة ومميزاتها وسبب تسميتها إن وجد وسبب النزول لأنها تعين على التعرف على موضوع السورة، ثم التعرف على الهدف الأساسي للسورة وذلك من خلال استعراض الأحداث والقضايا الأساسية التي تناولتها السورة والرابط الذي يربط تلك القضايا مع بعضها البعض، وكذلك يمكن التعرف على هدف السورة من خلال الفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة ومن ذلك نجد أن السورة المكية تناولت قضايا الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالرسالات السماوية، والدعوة إلى أمهات الأخلاق، وأما السور المدنية فقد كان طابعها بناء المجتمع الإسلامي على أسس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شئون الحياة وحماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والخارجية بكشف خطط المتأمرين وهتك استار المنافقين وأولياؤهم من اليهود الماكرين.

هنالك سور كثيرة في القرآن الكريم تشكل وحدة موضوعية كسورة البقرة وسورة آل عمران وسور النساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويوسف والكهف والنور، ولكننا سنتعرض بالمثال لا الحصر لثلاثة سور هي: الأنعام ، ويوسف ، والكهف.

المثال الأول: الوحدة المضوعية في سورة الأنعام:([1])

فإن الموضوع الذي تحدثت عنه السورة هو العقيدة الإسلامية من جميع جوانبها بدءا بالآيات التي تناولت الوحدانية بكل معانيها فقد تطرقت الآيات في سورة الأنعام لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد الولاية

([1]) راجع الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام رسالة دكتوراة للدكتور عباس عوض الله عباس جامعة أم درمان الإسلامية .

التشريعية بمعنى أنه ينبغي أن نعتقد أن الله وحده هو المشرع وتوحيد الحاكمية بمعنى أن الله سبحانه وتعالى له الحكم في كل شيء كما تناولت سورة الأنعام في وحدتها الموضوعية وصايا الدين الإسلامي الجامعة، والأسس التشريعية، وكذلك تناولت جانب هام في العقيدة الإسلامية جانب الأصول الإيمانية،وبذلك تكون سورة الأنعام وحدة موضوعية تتناول العقيدة الإسلامية متمثلة في الآيات التي تحدثت عن قضية الألوهية وقضية الوحي والرسالة وقضية البعث والجزاء.

المثال الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام:([1])

تناولت سورة يوسف عليه السلام وحدة الأحداث الموضوعية بشقيها القصصي والتعقيبي والتي تهدف إضافة لإرساء أسس العقيدة ، إلى تسلية المصطفى ﷺ وهو ما يزال في مكة المكرمة، ويتبين الباحث أدوات الشخصيات المختلفة في سبيل تحقيق الوحدة الموضوعية فالشخصية الرئيسية التي تدور حولها الأحداث في سورة يوسف هو يوسف عليه السلام، كما يجد الباحث من خلال الوحدة الموضوعية لهذه السورة الكريمة دراسة للمجتمعات المكية والشامية والمصرية، وكذلك الدروس المستفادة من سورة يوسف عليه السلام.

لذلك فإن قصة يوسف عليه السلام ينبغي أن تتلى كلها متوالية الحلقات والمشاهد من البداية حتى النهاية، فالسورة ذات طابع خاص منفرد في احتوائها على قصة يوسف عليه السلام كاملة. وقصة يوسف عليه السلام وحدة موضوعية متماسكة وهي أطول قصة في القرآن الكريم تجتمع حلقاتها كلها في سورة واحدة، حيث أننا نجد أن قصة موسى عليه السلام مثلا موزعة على سور القرآن الكريم من البقرة إلى سورة النازعات تارة بإسهاب شديد أو إيجاز بديع تارة أخرى، لذلك فإننا نجد في سورة يوسف الخصائص الفنية البحتة للقصة من: خصائص الموضوع

([1]) رسالة للدكتور حسن محمد باجودة طباعة دار الكتب الحديثة مصر.

وخصائص العرض والأداء، قالى تعالى :﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ يوسف (٣) يقول الإمام القرطبي:"ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر والإعجاز لمن تأمل "أ هـ([1])، ونجد أن كل العظات المبثوثة في حنايا السورة تتناسب مع القصة ، والقصة تتكامل معها لتحقيق القضية الكبرى التي جاء بها هذا القرآن للبشرية كما جاءت بها رسالات الأنبياء في العصور اللاحقة.

المثال الثالث: الوحدة الموضوعية في سورة الكهف:([2])

إن القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، وما تبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على تلك القصص إلى جانب ذكر مشاهد الحياة ومشاهد القيامة.

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها ويدور حوله سياقها فهو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر ، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة بدء في قوله تعالى:﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا﴾ الكهف(٤)، وختاما بقوله تعالى:﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عمل صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ الكهف(١١٠)، وهكذا يتساوى البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك. وبهذا يتجلى

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٩،ص١١٨ .

([2]) انظر دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور الألمعي ، ص ١٤٥ وما بعدها.

للناظر في السورة أنها منتظمة النسق ، مطردة السياق ، واضحة الغـــرض، قويـــة الأسلوب في أولها وأخرها وأثنائها في معنى واحد تلتقي عنده وحدة الموضوع فـــي السورة الكريمة من أمثال وقصص ووعد ووعيد وتذكير وبيان.

لقد تناولت السورة قضية توحيد الله سبحانه وتعالى فلا يخلـــو مقطـــع مـــن المقاطع من توجيه العبادة لله سبحانه وتعالى والإخلاص له في القول والعمل وتـــرك عبادة الطواغيت والشركاء ، وكذلك الدعوة للإيمان باليوم الآخر من أبرز القضايـــا التي تناولتها السورة، وكذلك استهدفت السورة أمهات الأخلاق بضرب الأمثال للقيـــم الحقيقية، والقيم الزائفة الخادعة التي تموه الباطل وتظهره على غير حقيقته بتركـــها والبعد عنها مما يجعل عناصر الوحدة الموضوعية في ســـورة الكـــهف واضحـــة المعالم.

ولقد امتاز القرآن الكريم من جملة ما أمتـــاز بـــه، بأنـــه حيـــن يعـــرض لموضوعاته، يعرض لها بطريقة لم يسبق إليها، فلا يستطيع أن يسلكها ســـالك أو أن ينتهجها ناهج فهو في عرضه يتخذ له أسلوبا يختص به، أعجز الإنس والجن عـــن معارضته، فتراه حين يعرض، يأتي بوجوه متعـــددة وأســـاليب متنوعـــة وأفـــانين متجددة، يراعي المقام في كل موقف من مواقفه، ويطابق جميع مقتضيات الحال فـــي كل عبارة من عبارته فله في كل مقام مقال، وفي كل موضوع مجال، له طرق فـــي الأداء لا عهد للبشر بها في أبلغ كلام، ولا مثيل لها في أفصـــح بيـــان غايـــة فـــي البلاغة، ليست لها نهاية، ونهاية في الفصاحة، لايجاوز الفصحاء مبتداها، ثـــم هـــو فيما يعرضه من موضوعات شتى لا يهمل جانب النظر ولا يغض من شـــأنه، بـــل يحث عليه، ويدعو إليه، وتتحاكم إليه العقول في كشف الحق، وبيان الصدق ، يشـــفع حكمه ببيان حكمته ، وتوجيه شرعته ثم يدع للسامع الحرية وحسن الاختيار، فمـــن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وإن تعجب فعجب عرضه للموضـــوع الواحـــد، ذي

المعنى المتحد، والهدف المشترك فإنك تجده مع تفرقه في القرآن في امـــاكن عـــدة، ومع تباعد أوقات نزوله، وتباين أزمان وصوله، ليست بين آياته مفارقة ولا تشـــويه ولا تناقض، بل هي وحدة واحدة، مترابطة ، متناسقة، تكون لنا صورة واحدة، فـــي أحسن تقويم، وتعطينا منظرا متألقا في أبدع تنظيم، وتصـــور لنـــا كائنـــا متناســـق الأعضاء، مترابط الأجزاء، متكامل البناء، جيد السبك، قوي المعنى، متين النظـــر، لا تناكر بين معانيه في العقول والأفهام، ولا تباين بين مبانيه في الأســـماع والآذان، بل يكمل بعضه بعضا، ويأخذ بعضها بعجز بعض، كل جزء يستدعي الآخر، وكـــل لفظ يقع مع الثاني في موقعه، وخلاصة القول: إن القـــرآن العظيـــم فـــي عرضـــه لموضوعات سوره وآياته فريد في هذا الباب ، ونجد أن الوحدة الموضوعيـــة فـــي القرآن الكريم تجعل القارئ يستكشف هداية القرآن ومواضعه وما جـــاء بـــه لأداء مهمته ورسالته.([1])

وفي معرض حديثنا عن الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم فلابـــد أن نتحدث عن الوحدة الموضوعية في السور القصيرة كمثال ثابت لوحـــدة الموضـــوع فيها ونأخذ مثالا على ذلك سورة الإخلاص والتي كان موضوعها تقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى، وسورة الكافرون والتي كان موضوعها المفاصلة عـــن الكـــافرين، وسورتي الزلزلة ، والقارعة والتي تدور احداثها حول احداث يوم القيامة والحســـاب فيه.

([1]) راجع دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني للدكتور أحمد جمال العمري طباعة مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الأولى١٤٠٦هـ١٩٨٦م،ص١٠،٤٤، وكذلك راجـــع التفســـير الموضوعي للدكتور أحمد السيد الكومي طباعة دار الهدى مصر ســـنة ١٩٨٠م ص١٣ ومـــا بعدها.

وهناك بعض السور القصيرة التي تتعدد أهدافها وأغراضها ولكنها لا تخرج في الغالب عن هدفين أو ثلاثة كسورة الطارق والتي تحدثت عن قدرة الله سبحانه وتعالى في الخلق وعن تقرير الوحي المنزل على الرسول الكريم محمد ﷺ وسورة الغاشية، والتي تناولت أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة والاستدلال على قدرته بالمخلوقات ، وسورة القلم والتي كان موضوعها الأساسي الدفاع عن شخصية رسول الله ﷺ وتحذير الكافرين من التقول عليه والصاق التهم الباطلة به.

ومن هنا نقول: ومن خلال دراستنا للوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم، إننا لسنا في حاجة إلى التفسير الموضوعي في أي زمان مثل حاجتنا إليه في هذا الزمان، الذي يطالب فيه المسلمون أن نخرج لهم البحوث العلمية الصحيحة والتي تنظم علاقتهم بربهم، وبمجتمعهم الكبير وأسرهم وأولادهم ومتطلبات أنفسهم، لأنه إذا كانت المباحث القرآنية متجلية للباحث بجميع نواحيها، متجهة به إلى غايتها، مبرزة لنواحي الحكمة في دعوة القرآن إليها، كان ذلك النهج باعثا للمطلع عليه إلى أن يسلك الطريق الذي رسمه القرآن، حيث كان واضح الغاية، محدد النهاية، بارزا في تصويره، باعثا لإشباع رغبة الإنسان من موضوع إلى موضوع آخر، فالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم هو الطريق الأمثل الذي يؤدي بالناس إلى أن يفهموا القرآن ، فيتبينوا اتصالهم بواقع حياتهم، حيث يرشدهم إلى الصالح منها، ويجنبهم ما يكون حذرا لهم ، وعائقا عن طريق إسعادهم وهذه هي أمثل الطرق في إبراز موضوعات القرآن الكريم.

المحاضرة الثالثة

الولاء والبراء في القرآن الكريم

المبحث الأول:

في معنى الولاء والبراء:-

الولاء في اللغة: ولي :الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد. والولاية: النصرة ، والولاية تولى الأمر، وقيل الولاية والولاية نحو الدلالة والدلالة ، وحقيقته تولي الأمر، والولي والمولى يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أى الموالي، وفي معنى المفعول أي الموالى، فيقال للمؤمن هو ولي الله عز وجل ولم يرد مولاه، وقد يقال الله تعالى ولي المؤمنين ومولاهم ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ والوالي الذي في قوله تعالى ﴿ وما لهم من دون الله من وال ﴾ بمعنى الولي، ونفى الله تعالى الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ ، وجعل بين الكافرين والشياطين موالاة في الدنيا ونفى بينهم الموالاة في الآخرة، ففي موالاتهم في الدنيا قال :﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ وقال ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ فكما جعل بينهم وبين الشياطين موالاة جعل للشياطين في الدنيا عليهم سلطان فقال :﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ ونفى الموالاة بينهم في الآخرة فقال في موالاة الكفار بعضهم بعضا ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم

ببعض ﴾ وإذا عدي بمن لفظا أو تقديرا اقتضى معنى الإعراض وترك قربه فمن الأول قوله تعالى ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ومن الثاني قوله ﴿ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ والتولي قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء.([1])

والمولى اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرب والمالك والسيد والمنعم والمعتق والناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف والفقير والصهر والعبد والمعتق والمنعم عليه ويلاحظ أن هذه المعاني تقوم على النصرة والمحبة.([2])

والولاية بالفتح في النسب والنصرة والعتق والموالاة بالضم من والى القوم، والموالاة ضد المعاداة والولي ضد العدو قال تعالى:﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾ وكل من عبد شيئا من دون الله فقد اتخذه وليا وقوله تعالى: ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ وليهم في نصرهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مخالفيه وقيل وليهم أي :يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم، والتولي يكون بمعنى الإعراض ويكون بمعنى الاتباع قال تعالى:﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم﴾ أي: إن تعرضوا عن الإسلام وقوله تعالى:﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ معناه يتبعهم وينصرهم.([3])

وقال صاحب المصباح المنير: الولي فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به ومنه قوله تعالى:﴿ الله ولي الذين آمنوا﴾ ويكون الولي بمعنى مفعول في حق المطيع فيقال: المؤمن ولي الله ووالاه موالاه وولاء من باب "قاتل" أي تابعه.([4])

([1]) المفردات للراغب الأصفهاني ، ص ٥٤٧، ٥٤٨ .

([2]) لسان العرب لابن منظور ،ج٣ ، ص٩٨٥-٩٨٦ .

([3]) القاموس المحيط للفيروز آبادي ، ج٤ ، ص ٢٩٤ .

([4]) المصباح المنير للفيومي ، ج٢ ، ص٨٤١ .

مما تقدم يتضح لنا معنى الولاء في اللغة وننتقل إلى تعريف الولاء بالمعنى الإصطلاحي فنقول:

الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهرا أو باطنا ، فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا.([1])

والبراء في اللغة:

برئ إذا تخلص، وبرئ إذا تنزه وتباعد وبرئ إذا اعذر وانذر ومنه قوله تعالى:﴿ براءة من الله ورسوله﴾ أي إعذار وانذار ، والبراء والبرئ سواء، وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس وهي أول ليلة من الشهر.([2])

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي:

هو البعد والخلاص والعدواة بعد الإعذار والإنذار وهو التبرؤ من الجاهلية بجميع مظاهرها من الشرك والوثنية وهي تعني المفاصلة بين الكفر والإيمان وبين الشرك والتوحيد، وبين الحق والباطل ﴿ براءة من الله ورسوله للذين عاهدتم من المشركين﴾ فالتبرؤ هو الخروج من الكفر والشرك والمعصية، والتميز عن الكافرين المشركين العاصين وبعبارة أخرى هو: الهروب من دون الله إلى دين الله كما أُجمل في النفي ثم الإثبات في كلمة التوحيد لا إله إلا الله.([3])

([1]) كتاب الإيمان لنعيم يس ، ص١٤٥ .

([2]) لسان العرب لإبن منظور ، ج١، ص١٨٣ .

([3]) راجع هذه المعاني الإصطلاحية في كتاب الولاء والبراء في الإسلام للشيخ محمد سعيد القحطاني ،ط دار طيبة ، ط ١٤١٨هـ ، ص٨٩،٩٠ ، وكذلك التفسير الموضوعي للدكتور الألمعي ، ص ٣٠٦،٣٠٧ .

والتبروء من الجاهلية يبدأ من القلب ويستقر فيه بالمفاصلة الشعورية ، والعدواة والبغضاء والإعراض الباطني،ثم هو يظهر على أشده باللسان والجوارح، وفي هجر الأرض وإعلان الحرب وإهدار الدم والمال وقطع صلات القربى وروابط القوم والعشيرة عندما تكون مصلحة الإسلام العليا في ذلك، وفيما بين الحالين يظهر التبرؤ بما يناسب الحال من المدارة والمصابرة التي تمعر الوجه وغلظة القول والعزلة الاجتماعية والمقاطعة التامة بكافة أشكالها.

إن الحكمة وحدها التي تحدد نوع التبرؤ ودرجته ولكل ميدان سلاحه ولكل حال أسلوبه، ولذلك فإن التبرؤ بالقلب ثابت دائم، وفي غيره البعد التشبه بمظهر الكفار فإن هزيمة المظهر هي بداية الهزيمة النفسية والمعنوية فمن شابه قوما صار واحد منهم.

وإذا تعرفنا على الولاء والبراء في اللغة والاصطلاح بكل ما تحمل من معنى فإن القرآن الكريم تناول هذه القضية تناولا شاملا حدد فيه كل الأبعاد التي تجعل المؤمن الحق يحب في الله تعالى ويبغض في الله تعالى ويعادي في الله تعالى ، فكلمة التوحيد لا إله إلا الله هي فيصل الأمر بين الولاء والبراء الذي هو من معتقدات العقيدة ولوازمها، كما أنه يجب موالاة المؤمنين ، والقرآن الكريم يحدثنا عن وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عداوتهم من كفار ومشركين وأهل الكتاب من يهود ونصارى ومن المنافقين المحادين لله ورسوله ولو كانوا من ذوي القربى ، وأبانت آيات القرآن البينات صور التولي المنهي عنه كما فرقت الآيات بين الموالاة والمعاملة بالحسنى وسنتناول هذه المعاني بالتفصيل في المباحث التالية إنشاء الله.

المبحث الثاني

الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم في سوره المختلفة يجد في سياق هذه الآيات حقيقة أن الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾(١).

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية :"فيه مسألتان : الأولى: قال ابن عباس :نهى المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء ومثل ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ وهناك يأتي بيان هذا المعنى، ومعنى ﴿ فليس من الله في شيء﴾ أي فليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء مثل ﴿ وأسأل القرية﴾.

الثانية: فقال:﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاه﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد: كانت التقية في جدة الإسلام قبل قوة المسلمين أما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم، قال ابن عباس: هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتي أثما ، وقال الحسن: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ولا تقية في القتل، وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحاك "إلا أن تتقوا منهم تقية" وقيل: إن المؤمن إذا كان قائما بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفا على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان، والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم، ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلب ولا يجيب إلى التلفظ بكلمة الكفر وأمال حمزة والكسائي (تقاة) وفخم الباقون ، وأصل (تقاه) وقتة على وزن فعلة مثل تؤدة وتهمة قلب الواو تاء والياء ألفا، وروى الضحاك عن ابن عباس أن هذه الآيات

---

(١) سورة آل عمران آية (٢٨).

نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري وكان بدريا تقيا وكان له حلف من اليهود فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبي الله إن معي خمسمائة رجل من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي استظهر بهم على العدو فأنزل الله تعالى ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ الآية، وقيل إنها نزلت في عمار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون.

وقوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه﴾ قال الزجاج: أي يحذركم الله إياه ثم استغنوا عن ذلك بذا وصار المستعمل، وقيل المعنى ويحذركم الله عقابه ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإلى جزاء الله المصير وفيه إقرار بالبعث.([1])

فالآية توضح أن ولاء الكافرين يناقض عقيدة المؤمن بالله تبارك وتعالى فعليه كما تأمر الآية أن لا يوالي الكافرين.

ويقول الحق تبارك وتعالى في ذات المعنى في سورة النساء: ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكنون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾([2])

فمعنى الآية:أي هم يودون لكم الضلالة لتستوا أنتم وأياهم فيها وما ذاك إلا بشدة عداوتهم وبغضهم لكم ولهذا قال :﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا﴾ أي تركوا الهجرة قال العوفي عن ابن عباس وقال السدي

([1]) الجامع لأحكام القرآني للقرطبي مكتبة الرياض الحديثة مجلد ٤ ، ص٥٧ .

([2]) سورة النساء آية ٨٩ .

اظهروا كفرهم ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾ أي لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك.([1])

ويقول تعالى في موضع آخر من كتابه العزيز : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين ﴾ ([2])

إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى انصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله واخبر أنه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين وأن الله ورسوله منه بريئان، وقد يجوز أن تكون الآية نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي سلول وحلفائهما من اليهود ويجوز أن تكون نزلت في أبي لبابة بسبب قتله في بني قريظة والصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عم، وأما قوله ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ فإنه يعني بذلك أن بعض اليهود انصار بعضهم على المؤمنين ويد واحدة على جميعهم وأن النصارى كذلك بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم معرفا بذلك عباده المؤمنين أن كان لهم أو بعضهم وليا فإنما هو وليهم على من خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين كاليهود والنصارى لهم حربا فقال تعالى ذكره للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضا لبعضكم أولياء بعض ولليهودي والنصراني حربا كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أوليلء، لأن من والاهم فقد اظهر لأهل الإيمان الحرب ومنهم البراءة وأبان قطع ولايتهم ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ يعني تعالى ذكره ومن يتولى اليهود والنصارى دون

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير طباعة مكتبة دار الفيحاء دمشق ومكتبة دار السلام الرياض ١٩٩٤م مجلد ١ ، ص٧٠٨ .

([2]) سورة المائدة الآية ٥١ .

المؤمنين فإنه منهم يقول: فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم فإنه لا يتولى متولي احدا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه، ولذلك حكم من حكم العلم لنصارى بني تغلب في ذبائحهم ونكاح نسائهم وغير ذلك من أمورهم وأحكامهم فصار من بني إسرائيل لموالاتهم أياهم ورضاهم بملتهم ونصرتهم لهم عليها وإن كانت أنسابهم لأنسابهم مخالفة ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ إن الله لا يوفق من وضع الولاية في غير موضعها فوالى اليهود والنصار مع عداوتهم لله ورسوله والمؤمنين على المؤمنين وكان لهم ظهيرا ونصيرا لأن من تولاهم فهو لله ولرسوله حرب ظالم يضع الشيء في غير موضعه.([1])

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ ([2])

إن قوله تعالى ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ نزلت في أهل اليمن قوم أبي موسى الأشعري اظهروا الإسلام في عهد رسول الله الكريم ﷺ ثم ارتدوا على ادبارهم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وأن الله سوف يستبدل المرتدين بقوم آخرين مؤمنين يحبهم ويحبونه رحماء بالمؤمنين أشداء أقوياء على الكافرين غلظاء بهم، يجاهدون في قتال أعداء الله على النحو الذي أمر الله بقتالهم والوجه الذي أذن لهم به ويجاهدون عدوهم ولا يخافون لومة لائم يقول ولا يخافون

([1]) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري ، طباعة دار المعرفة ،بيروت لبنان ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م ، مجلد ٤ ، ص ١٧٧ .

([2]) سورة المائدة آية ٥٤ .

في ذات الله أحدا ولا يوقفهم عن العمل بما أمرهم الله به من قتال عدوهم لومة لائم لهم في ذلك، وأما قوله ذلك فضل الله فإنه يعني هذا النعت الذي نعت به تعالى ذكره من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، فضل الله الذي تفضل به عليهم والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه منة عليه وتطولا والله واسع جواد بفضله على من جاد به عليه.

وتتداخل الآيات التي تتحدث عن واجبات عقيدة المسلم والتزامه بمنهج الحق تبارك وتعالى في وجوب الولاء والبراء من أعداء الله تعالى فيقول سبحانه وتعالى في خواتيم سورة المجادلة: ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا أبائهم أو أبنائهم أو أخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾(١).

إنها المفاصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان والإنحياز النهائي للصف المتميز والتجرد من كل عائق وكل جاذب والإرتباط في العروة الواحدة بالحبل الواحد ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودين: ودا لله ورسوله وودا لأعداء الله ورسوله فإما إيمان أو لا إيمان ، أما هما معا فلا يجتمعان ﴿ ولو كانوا آبائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان ، إنها يمكن أن تراعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين لواء الله ولواء الشيطان والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان، فأما

---

(١) سورة المجادلة آية ٢٢ .

إذا كانت المحاداة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد ولقد قتل أبو عبيدة أباه في بدر وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقربائهم وعشيرتهم متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة وكان هذا أبلغ ما أرتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ فهو مثبت في قلوبهم مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن فلا زوال له ولا إندثار ولا إنطماس فيه ولا غموض ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ وما يمكن أن يفرقوا هذه الفرقة إلا بروح من الله وما يمكن أن تشرق في قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمدهم بالقوة والإشراق ويصلهم بمصدر القوة والإشراق ﴿ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ جزاء ما تجردوا في الأرض من كل رابطة وأصرة، ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية ﴿ رضي الله ورضوا عنه ﴾ وهذه صورة وضيئة راضية مطمئنة ترسم حالة المؤمنين هؤلاء في مقام عال رفيع وفي جو راض وديع، ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربهم، انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به، فتقبلهم في كنفه وأفسح لهم في جناته وأشعرهم برضاه فرضوا، رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه ﴿ أولئك حزب الله﴾ ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون، فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق وهو وجميع الواقفيين تحت هذه الراية إخوة في الله تختلف الوانهم وتختلف أوطانهم، وتختلف عشائرهم، وتختلف أسرهم ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة ، ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله

رابطة لا من أرض ولا من جنس ولا من وطن ولا من لون ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر.(١)

ويقول عز من قائل :﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برأء منكم ومما تعبدون من الله كفرنابكم وبدا بيننا وبينكم العدواة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ (٢)

يقول صاحب الظلال في تفسير هذه الآية:

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيها المسلمون المهاجرون وفيهم أسوة حسنة ﴿ إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وهو الكفر بهم والإيمان بالله ، وهي العدواة ولبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده وهي المفاصلة الحاسمة الجامة التي لا تستبقي شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان، وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين، ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين، فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه :﴿ لاستغفرن لك ﴾ فلقد قال قبل هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك قال وهو يرجو إيمانه ويتوقعه، ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله وتوكل إليه بالتوكل والأنابة والرجوع إليه على كل

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، طباعة دار الشروق القاهرة بيروت ، ط٥ ، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م مجلد ٦ ، ص ٣٥١٤ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٤ .

حـــال :﴿وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنـــــا وإليـــك أنبنـــا وإليـــك المصير﴾ وهذا التسليم المطلق لله هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزهـــا هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بـــالقصص والتعقيب عليه وإبراز ما في ثناياها من ملامح وسمات وتوجيـــهات علـــى طريقـــة القرآن الكريم.([1])

ويتضح لنا مما سبق أن الولاء والبراء من لوازم العقيدة وأن الولاء والـبراء هو الركن الهام من أركان العقيدة الإسلامية يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله ، ولا يبغـــض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبـــه الله ويبغـــض مـــا أبغضه الله"([2])

وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود و نصارى ومســـتعربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هي تمييع عقيدة المسلمين وتذويب شـــخصيتهم المنفردة، لجعلهم حميرا للشعب المختار كما تنص على ذلـــك "برتكولاتـــهم" فإنـــه يتضح للمسلم أهمية هذا الموضوع حتى يحذر هو ومن معه، بل يحـــذر المســـلمون عامة ، من الإنزلاق في مهاوي الردى خاصة وإن الدعـــوات المشـــبوهة الملحـــدة تدعوا إلى ما يسمى بالأخوة والمساوة وإن الدين لله والوطن للجميع وكل الشـــعارات التي يعرفها أعداء الإسلام يجب أن تقابل بالرفض التام.([3])

([1]) انظر في ظلال القرآن سيد قطب ، ج٦ ، ص ٣٥٤٢ .

([2]) الاحتجاج بالقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية ،طباعة المكتب الإسلامي ١٣٩٣هـ، ص٦٢ .

([3]) بتصرف من كتاب الولاء والبراء في الإسلام د.أحمد سعيد القحطاني ، ص ٤٥ .

ونصوص السنة النبوية تبين تلك المعاني وتؤكدها في وضوح تام فعن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن "تنصح لكل مسلم وتبرأ من الكافر" ([1])

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:"أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعادة في الله والحب في الله والبغض في الله"([2]).

فهذه النصوص النبوية صريحة في إثبات أن الولاء والبراء من لوازم العقيدة ومقتضياتها.

([1]) المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ج٤ ، ص ٣٥٧/٣٥٨ ،ط الثانية ١٣٩٨هـ المكتب الإسلامي.

([2]) الجامع الصغير للسيوطي ، ج١ ، ص ١٦٩ .

المبحث الثالث

وجوب موالاة المؤمنين

عرفنا في المبحث السابق أن عقيدة الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها فنتعرف في هذا المبحث على وجوب موالاة المؤمنين من مودتهم ومحبتهم ونصرتهم من خلال بعض الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا الجانب الهام من عقيدة الولاء والبراء.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة: ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين ءامنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهو راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين ءامنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (١)

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:(قوله تعالى :﴿إنما وليكم الله ورسوله ﴾ قال جابر بن عبد الله: قال عبد الله بن سلام للنبي ﷺ :إن قومنا قريظة والنضير قد هجرونا واقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع أن نجالس أصحابك لبعد المنازل فنزلت هذه الآية، فقال : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء ﴿والذين﴾ عام في جميع المؤمنين ومعنى يقيمون الصلاة يأتون بها في أوقاتها بجميع حقوقها والمراد صلاة الفرض ﴿وهم راكعون﴾وأفرد الركوع بالذكر تشريفا، وقيل المؤمنون وقت نزول الآية بين مقيم الصلاة وراكع، قوله تعالى:﴿ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي من فوض أمره إلى الله، وامتثل أمر رسوله ووالى المسلمين فهو من حزب الله وقيل:أي من يتولى القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ حزب الله جند الله وأنصار الله، والمؤمنون حزب الله فلا جرم غلبوا اليهود بالسبي والقتل والإجلاء وضرب الجزية والحزب الصنف من الناس ، فكان المتحزبين مجتمعون كاجتماع أهل النائبة

---

(١) سورة المائدة الآيات ٥٥، ٥٦ .

عليها، وحزب الرجل أصحابه، والحزب الورد "حزبت القرآن" والحزبة الطائفة وتحزبوا : اجتمعوا، والأحزاب الطوائف التي تجتمع في محاربة الأنبياء وحزبه أمر أي أصابه.([1])

ويقول سبحانه وتعالى في معنى المحبة والمودة والاتحاد والتعاطف بين المؤمنين ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾([2])

قوله تعالى:﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ أي قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف ﴿ يأمرون بالمعروف ﴾ أي بعبادة الله تعالى وتوحيده وكل ما اتبع ذلك ﴿وينهون عن المنكر﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما اتبع ذلك، ﴿ويقيمون الصلاة ﴾ هي الصلوات الخمس قاله ابن عباس، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة ﴿ ويطيعون الله ﴾ في الفرائض ﴿ ورسوله ﴾ فيما سن لهم ، والسين في قوله ﴿سيرحمهم الله ﴾ مدخلة في الوعد مسهلة لتكون النفوس متعلقة برجائه وفضله تعالى زعيم بالإنجاز.([3])

إن ولاية المؤمنين بعضهم لبعض في هذه الآية تعم ولاية النصرة وولاية الأخوة والمودة ولكن نصرة النساء تكون فيما دون القتال بالفعل فللنصرة أعمال كثيرة مالية وبدنية وأدبية، وكان نساء النبي ﷺ ونساء أصحابه يخرجن مع الجيش يسقين الماء ويجهزون الطعام ويضمدون جراح الجرحى، وكان النساء يحرضن على القتال ويرددن المنهزم من الرجال، كما كانت تحرض الخنساء رضي الله عنها

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، مجلد ٦ ، ص ٢٢١،٢٢٢ .

([2]) سورة التوبة آية ٧١ .

([3]) باختصار من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، مجلد ٨ ، ص ٢٠٣ .

أبناءها على القتال، وإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض في الولاية العامة من إخوة ومودة وتعاون وتراحم حتى شبه النبي ﷺ جماعتهم بالجسد الواحد وبالبنيان يشد بعضه بعضا ، وولاية النصرة في الدفاع عن الحق وعن العدل والملة والوطن وإعلاء كلمة الله عز وجل.(١)

وتمضي الآيات في هذا السياق فيقول الحق تبارك تعالى:﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين.إنما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾(٢)

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: يقول تعالى أمرا بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ﴾ فسماهم مؤمنين مع القتال وقوله : ﴿ فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيقه كما ثبت في الصحيح عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال:"انصر أخاك ظالما أو مظلوما" قلت يا رسول الله نصرته مظلوما فكيف انصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه" (٣). وذكر سعيد بن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال فأنزل الله هذه الآية فأمر بالصلح بينهما، وقوله: ﴿ فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ أي اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل لأن

---

(١) تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار" للشيخ محمد رشيد رضا ،طباعة دار المعرفة بيروت لبنان ،ج ١ ، ص ٥٤٢ .

(٢) سورة الحجرات آية ٩،١٠ .

(٣) صحيح البخاري ، حديث رقم ٢٤٤٣ .

الله يحب المقسطين فهم على منابر من نور يوم القيامة، وقوله: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ أي الجميع إخوة في الدين وفي الصحيح "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " وفي الصحيح أيضا:"المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه"([1]) وقوله : ﴿ فاصلحوا بين اخويكم ﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ .

وهذا تحقيق فيه تعالى للرحمة لمن اتقاه.([2])

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة ليردوهم إلى الصف والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في انحاء الأرض إمامة واحدة تقام على طاعة الله ورسوله تحكم الشريعة وتبسط العدل والشورى والأمن لكل الرعية فتوقف الظالم وهذا هو مطلق العدل الذي يريده الله تعالى في قوله :﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ فهذه الآية الكريمة دليل واضح على وجوب موالاة المؤمنين ونصرهم والعمل على وحدتهم حتى يكونوا جميعا يدا على من سواهم وعاداهم حتى تحقق لهم العزة من الله القوي العزيز .([3])

يتضح لنا من خلال هذا المبحث أن المحبة في الله هي الوشيجة العظمى التي يلتقي عليها المؤمنون، ويلتقون عليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

([1]) صحيح البخاري حديث رقم ٦٠١١ ومسلم ٢٥٨٦ من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب

([2]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير مجلد ٧ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

([3]) انظر ظلال القرآن سيد قطب، ج٦ ص ٣٣٤٣ والولاء البراء للقحطاني ص ٢٦٧ .

وعلى هذه الوشيجة تبنى حقوق الأخوة الإسلامية الإيمانية من نصرة ومودة وزيـارة وإكرام وسلام وحماية للعرض والدم والمال والمواساة والتعـاضد تحقيقـا لواجـب موالاة المؤمنين.

المبحث الرابع

وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عدواتهم

تحدثت آيات القرآن الكريم عن وجوب البراء من جميع أعداء الله سبحانه وتعالى وإظهار عدواتهم ، ويشمل الحديث في وجوب البراء من أعداء الله في هذا المبحث وجوب البراء من الكفار والمشركين، ووجوب البراء من أهل الكتاب، ووجوب البراء من المنافقين، ووجوب البراء من المحادين لله ورسوله.

(١)وجوب البراء من الكفار والمشركين:-

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب اليم ﴾ ([1])

هذا خطاب للمؤمنين في أمر له علاقة بما كان بينهم وبين اليهود فهو متعلق بماضي السياق الخاص ببني إسرائيل، نهاهم تعالى عن كلمة كانوا يقولونها وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها ﴿ انظرنا ﴾ وأمرهم بالسماع للنبي ﷺ ليعوا عنه ما يقول من الدين وهو أمريتضمن الطاعة والاستجابة ، ثم ختم الآية بقوله ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ لبيان أن ما صدر عن اليهود من سوء الأدب في خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب الموجع أشد الألم ، فلا بد من طاعة الرسول الكريم ﷺ في التبرأ من المشركين والكفار.([2])

تأتي الآيات القرآنية الكريمة في افتتاحية سورة التوبة معلنة في سمع الزمان وجوب البراء من الكفار والمشركين يقول عز شأنه :﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين * وأذان من الله ورسوله

([1]) سورة البقرة آية ١٠٥ .

([2]) باختصار من تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ، ج١ ، ص ٤١١ .

إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون. اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون* لايرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا واقاموا الله الصلاة واءتوا الزكاة فأخونكم في الدين* ونفصل الآيات لقوم يعلمون * وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون* ألا تقتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين* ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾(١)

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:" قوله تعالى﴿براءة﴾ تقول برئت من الشيء أبرأ براءة فأنا منه بريء إذا أزلته عن نفسك وقطعت سبب ما بينك وبينه وبراءة رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره هذه براءة وقرأ عيسى

---

(١) سورة براءة الآيات من ١ – ١٥ .

بن عمر براءة بالنصب على تقدير التزموا براءة، قوله تعالى ﴿ إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ يعني إلى الذين عاهدهم رسول الله ﷺ لأنه كان المتولي للعقود ﴿فسيحوا﴾ أي قل لهم سيحوا أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين غير خائفين أحدا من المسلمين – بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر، وهؤلاء الذين برأ الله منهم ورسوله هما صنفان من المشركين أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأمهل تمام أربعة أشهر، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فقصر به على أربعة أشهر يرتاد لنفسه ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله وللمؤمنين يقتل حيث ما أدرك ويؤسر إلا أن يتوب، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر، وقيل إن هذه الآية نزلت في أهل مكة عندما صالح الرسول ﷺ قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ونقض هذا العهد من قبل المشركين كما تضمنت الآية جواز قطع العهد بين المسلمين والمشركين في حالة إنقضاء مدة العهد أو أن يخاف المسلمين من المشركين غدرا فينبذ إليهم عهدهم ، قوله تعالى:﴿وأذان﴾ عطف على براءة والأذان الإعلان ﴿إلى الناس﴾ جميع الخلق ﴿يوم الحج الأكبر﴾ يوم عرفة وقال: ابن سيرين : يوم الحج الأكبر العام الذي حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع وحجت فيه الأمم ﴿ إن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ الله ورسوله بريء منهم ﴿ فإن تبتم ﴾ عن الشرك ﴿ فهو خير لكم ﴾ أي أنفع لكم ﴿ وإن توليتم ﴾ عن الإيمان ﴿ فاعلموا أنكم غير معجزي الله ﴾ أي فائتيه فإنه محيط بكم ومنزل عقابه عليكم ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ﴾ المعنى أن الله برئ من المشركين إلا من المعاهدين في مدة عهدهم ﴿ ثم لم ينقصوكم ﴾ يدل على أنه كان من أهل العهد من خاس بعهده (نقضه) ومنهم من ثبت على الوفاء ، فإذن الله لنبيه ﷺ في نقض عهد من خاس ﴿ ولم يظاهروا ﴾ ولم يعاونوا ﴿ فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾

المعلومة وإن كانت أكثر من أربعة أشهر ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحـــرم ﴾ ســلخت الشهر إذا صرت في أواخر أيامه ومدتها خمسين يوما على ما ذكره ابن عبـــاس ، وقيل لها حرم لأنه حرم على المؤمنين فيها دماء المشركين والتعرض لهم إلى علـى سبيل الخير ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ عام في كل مشرك ، فالأمر يقتضي جواز قتلـهم بأي وجه كان ﴿ حيث وجدتموهم ﴾ عام في كل موضع ﴿ وخذوهم ﴾ الأخـذ هـو الأسر ومعنى ﴿ احصروهم ﴾ يرد عن التصرف إلى بلادكم والدخول إليكـم إلا أن تأذنوا لهم فيدخلوا إليكم بأمان ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ المرصد هـو الموضـع الذي يرقب فيه العدو ﴿ تابوا ﴾ أي من الشرك ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ فيسقط القتل بمجرد التوبة بشرط أداء فريضتي الصـلاة والزكـاة ﴿ وإن أحد من المشركين ﴾ أي من الذين أمرتك بقتالهم ﴿ استجارك ﴾ سأل جـوارك أي أمانك وذمامك فأعطه إياه ليسمع القرآن أي يفهم أحكامه وأوامره ونواهيه ﴿ كيـف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ﴾ كيف يكون للمشركين عهد عنـد الله يأمنون به عذابه غدا ، وكيف يكون لهم عند رسول الله عهد يأمنو به عذاب الدنيـا ثم استثنى ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾أي ليس العهد إلا لهؤلاء الذيـن لم ينقضوا ولم ينكثوا وهم بنو بكر ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لـهم ﴾ أي فيمـا أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك ﴿ كيف وإن يظهروا عليكـم ﴾ أعاد التعجب من أن يكون لهم عهد مع خبث أعمالهم ﴿ لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة﴾ يرقبوا يحافظوا والرقيب حافظ ﴿ إلا ﴾ عهدا ﴿ ولا ذمة ﴾ أي عـهدا وهـي كـل حرمة يلزمك إذا ضيعتها ذنب وأهل الذمة أهل العقـد ﴿ يرضونكـم بأفواهـهم ﴾ يقولون بألسنتهم ما يرضي ظاهره ﴿ وتأبى قلوبهم واكثرهم فاسقون ﴾ أي نـاقضون للعهود وكل كافر فاسق ولكنه أراد هنا المجاهرين بالقبائح ونقض العهد ، ﴿اشـتروا بآيات الله ثمنا قليلا ﴾ يعني المشركين في نقضهم العهود واستبدلوا بالقرآن الدنيـا،

﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي أعرضوا ومنعوا عن سبيل من الصد ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ﴾ ليس هذا تكرار ولكن الأول لجميع المشركين والثاني لليهود خاصة ﴿ وأولئك هم المعتدون ﴾ المجازون الحلال إلى الحرام بنقض العهد ﴿فإن تابوا﴾ عن الشرك والتزموا احكام الإسلام فاخوانكم في الدين ﴿ ونفصل الآيات﴾ نبينها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ خصهم لأنهم هم المنعتون بها ﴿ وإن نكثوا ﴾ نقضوا العهود ﴿ وطعنوا في دينكم ﴾ بالاستنقاض والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك، واستدل العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين إذ هو كافر ، والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ صناديد قريش وقتال كل من كان رأسا للكفر ﴿ إنهم لا إيمان لهم ﴾ لا عهود لهم أي ليست لهم عهود صادقة يوفون بها ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ عن الشرك وعن كفرهم وباطلهم وأذيتهم للمسلمين وذلك يقتضي أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم لينتهوا عن مقاتلتنا ويدخلوا في ديننا ﴿ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ﴾ توبيخ ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾ اخرجوا الرسول ﷺ من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذي كان منهم ﴿ وهم بدءوكم ﴾ بالقتال ﴿ أول مرة ﴾ أي نقضوا العهد وأعانوا بنو بكر على خزاعة ، وقيل بدوءكم بالقتال يوم بدر فالله أحق أن تخشوه ﴾ تخافوا عقابه في ترك قتالهم من أن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكروه ﴿قاتلوهم﴾ أمر ﴿يعذبهم﴾ جوابه والتقدير إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ دليل على أن غيظهم كان قد اشتد ﴿ ويتوب الله من يشاء ﴾ منهم مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسليم بن أبي عمرو فإنهم أسلموا والمعنى أيضا إذا قاتلتموهم يتوب الله عليكم، وقد تكون التوبة بغير قتال لمن شاء الله أن يتوب عليه في كل حال.([1])

([1]) راجع تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، مجلد ٨، ص ٦١ ، ٨٨ .

وتستمر الآيات في وجوب البراء من الكفار والمشركين المحاربين لـــدين الله بأقوالهم وأفعالهم ظنا منهم أنه بمقدورهم أن يطفئوا نور الإسلام لكنهم من فـرط جهلهم لا يعلمون أن هذا الدين لا يحارب وأن الله متم هذا النور هداية للخلق قـــال تعالى :﴿ يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكـــافرون هـــو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحـــق ليظـــهره علـــى الديـــن كلـــه ولـــو كـــره المشركون﴾([1])

يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ ساحر ليبطلوا الحق الذي جاء بـــه بقولـــهم ساحر وما جاء به سحر، والله معلن الحق، ومظهر دينه وناصر رسوله علـــى مـــن عاداه فذلك إتمام نوره ﴿ هو الذي أرسل رسوله ﴾ يعني محمدا ﷺ ﴿بالهدى وديـــن الحق ليظهره على الدين كله ﴾ أي على كل دين سواه فلا يكون دين غير الإســـلام فما بقي من الأديان إلا وهو مقلوب مقهور بدين الإسلام ﴿ ولو كره المشـــركون ﴾ لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك.([2])

قد أوجب الله سبحانه وتعالى معاداة المشركين وحرم موالاتهم وشدد فيـــها في آية ليست في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من التبرؤ مـــن الكفار والمشركين ووجوب توحيد الله سبحانه وتعالى بالتبرأ من أعدائه من الكفـــار والمشركين كما أمر الحق تبارك وتعالى بذلك.

إن البراء من الكفار والمشركين يعد من ثوابت الإيمان العملية والتي يثبـــت بها العبد المؤمن صدق إيمانه بالله سبحانه وتعالى وذلك بالإمتثال لأمـــر الله عمليـــا بمقاطعة ومعاداة أعداء الله من الكفار والمشركين.

([1]) سورة الصف ، آية ٨،٩ .

([2]) انظر محاسن التأويل للشيخ محمد جمال الدين القاسمي ،طباعة دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ، ١٩٧٩م، ج٦ ، ص ١٥١-١٥٢ .

إن وجوب البراء من جميع أعداء الله سبحانه وتعالى من أوثق عرى الإيمان ومن تمام الدين وإقامة علم الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ لابد من الحب في الله والبغض في الله الذي هو البراء من أعدائه ولو أتفق الناس على طريقة واحدة لم يكن هناك تميز بين الحق والباطل ولابين الإيمان والكفر.

(٢)وجوب البراء من أهل الكتاب:

ونعني بذلك البراء من اليهود والنصارى كما أمرتنا آيات القرآن الكريم بذلك يقول تعالى:﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾([1])

كان النبي ﷺ يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان وأن لا يرى منهم المكابرة والمجاحدة والعناد،ولهذا كبر عليه أن رأى من اعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته وإسرافهم في مجاهدته أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لمحو دينهم من الأرض، مع موافقتهم لأهل الكتاب في أصل دينهم ومقصده من توحيد الله ﴿ حتى تتبع ملتهم ﴾ ما هم عليه من التقليد والاهواء والانحراف الباطل الذي غيروا به وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ اجهر بقول الحق وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذي أنزله على أنبيائه دون ما أضافه إليه اليهود والنصارى بأرائهم وأهوائهم ففرقوا دينهم وكانوا شيعا كل شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء، فإن أردت يا محمد استرضاءهم فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ﴿ ولن اتبعت أهوائهم﴾ التي أضافوها على كتبهم وجعلوها أصولا وفروعا لدينهم ﴿ بعد الذي جاءك من العلم ﴾ اليقين بالوحي الإلهي المبين لتحريفهم الكلم عن مواضعه ﴿ مالك من الله

([1]) سورة البقرة ، آية ١٢٠ .

من ولي ولا نصير ﴾ فإنك لن تنج ولن تصل إلى حقك بمجاراتهم على باطلهم لأن الله لا ينصرك على ذلك، إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى طريقا إلى الهدى، وإذا لم يكن الله هو الذي يتولى شئونك وينصرك بمعونته فمن ذا الذي ينصرك ويتولاك من بعده، فلابد من البراء من أهل الكتاب.([1])

ويقول الحق تبارك وتعالى في ذات المعنى في سورة آل عمران :﴿ هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ ([2])

نهى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة المؤمنين عن محبة اليهود والنصارى وأبان العلة في ذلك لا يحبون الله ورسوله والذين آمنوا، كما أنهم يكفرون بالقرآن ويعضون عليكم الأنامل من الغيظ إظهارا وإبطانا لعدواتهم لكم والتعبير بالغيظ إظهار لشدة عدواتهم للمؤمنين ﴿فموتوا بغيظكم ﴾ والله عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتكنه سرائراكم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم يا أهل الكتاب خالدون فيها لا محيدلكم عنها ولا خروج لكم منها.([3])

وتطرقت سورة النساء في بعض آياتها لوجوب البراء من أهل الكتاب وذلك في قوله تعالى:﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾([4])

([1])انظر تفسير المنار محمد رشيد رضا ، ج١ ، ص٤٤٤،٤٤٥ .

([2]) آل عمران آية ١١٩ .

([3]) التفسير المنير د.وهبة الزحيلي ، طباعة دار الفكر بيروت دمشق ، ١٤١١هـ١٩٩١م ، مجلد ٤ ص ٥٨ .

([4]) سورة النساء ، آية ٤٤، ٤٥ .

إن التعجب من سلسلة التعجيبات الكثيرة من موقف أهل الكتاب من اليهود يوجه الخطاب فيه إلى الرسول ﷺ أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر، لقد كان من شاء أن يؤتوا نصيبا من الكتاب الهداية فقد آتاهم الله التوراة على يد موسى عليه السلام لتكون هداية لهم من ضلالتهم، ولكنهم يدعون الهداية ويسترون الضلالة ، والتعبير بالشراء يقصد به النية في مبادلة الضلالة بالهدى مما يدعو للعجب والاستنكار، كما أنهم بالإضافة لذلك يريدون أن يضلوا المهتدين من المسلمين بشتى الطرق والوسائل ، فهم بذلك يحاولون طمس معالم الهدى من حولهم حتى لا يكون هنالك هدى ولا مهتدون، وفي هذا تنبيه للمسلمين وتحذير من كل ألاعيب اليهود ومكرهم السيء فهم أعداء للمسلمين ، والله سبحانه وتعالى يطمئن بولايته ونصره ومن هنا فلا بد من البراء من هذه الطائفة من أهل الكتاب والتصريح بذلك بل وإعلان عدواتهم.([1])

كما أن أهل الكتاب لا يتمسكون بدين الله لذلك فهم لم يحكموا التوارة والإنجيل وما أنزل فيهما من احكام وشرائع قال تعالى:﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين ﴾([2])

يقول تعالى: قل يا محمد ﴿ يا أهل الكتاب لستم على شيء ﴾ من الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله وتعملوا بما فيها ، ومما فيها الأمر بإتباع محمد ﷺ والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته ﴿ ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ القرآن العظيم وما يزيدهم إلا طغيانا وكفرا

([1]) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج٢، ص ٦٧٤ .

([2])سورة المائدة ، آية ٦٨ .

بما أنزل الله الآيات البينات ﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ أي فلا تحزن عليهم فهم غارقون في الكفر والطغيان .([1])

ويقول تعالى :﴿ لتجدن أشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصرى ذلك بان منهم قسيسن ورهبانا وأنهم لايستكبرون ﴾ .([2])

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية :﴿ ما ذاك إلا لأن اليهود كفرهم كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول ﷺ غير مرة، وسموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ الذي زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجلية فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ أي يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم والرهبان جمع راهب وهو العابد وهم الرهبان الذين في الصوامع ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع .([3])

والذي يفهم من الآية المتقدمة هم النصارى الذين آمنوا بما جاء في الإنجيل الحق دون تحريفه لأنهم يؤمنون أن عيسى عليه السلام بشر برسالة نبينا محمد ﷺ، أما الذين يتبعون تحريف الكلم عن مواضعه فهم الذين يجب علينا أن

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٢ ، ص ١١٠ .

([2]) سورة المائدة ، آية ٨٢ .

([3]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، مجلد ٢ ، ص١١٨ .

نتبرأ منهم ، لذلك يجب على المؤمن أن يتبرأ من أهل الكتاب جميعا يهود ونصارى وإن اختلفت درجة عدواتهم للإسلام.

(٣) وجوب البراء من المنافقين:

إن من أكثر الآيات التي تحدثت بوضوح تام عن وجوب البراء من المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، بإظهارهم الإسلام وإخفاء الكفر في دخيلتهم آيات بينات من سورة البقرة يقول تعالى: ﴿ ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر وما هم بؤمنين. يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم ءآمنوا كما ءامن الناس قالوا انؤمن كما ءامن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلوا إلى شيطانهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون. الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغينهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حولها ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في ءاذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾(١)

ومن الناس فريق يتردد متحيرا بين المؤمنين والكافرين، وهم المنافقون الذين يقولون بألسنتهم صدقنا بالله وباليوم الآخر وهم في باطنهم كاذبون لم يؤمنوا،

---

(١) سورة البقرة من الآية ١-٢٠ .

يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله والذين آمنوا بإظهارهم الإيمـــان وإضمـــارهم الكفر، وما يخدعون إلا أنفسم ، لأن عاقبة خداعهم يعود عليهم، ومن فرط جهلهم لا يحسون بذلك لفساد قلوبهم، في قلوبهم شك وفســاد فـابتلوا بالمعـاصي الموجبـة لعقوبتهم، فزادهم الله شكا ولهم عقوبة موجعة بسبب كذبهم ونفاقـهم، وإذا نصحـوا ليكفوا عن الإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وإفشاء اسرار المؤمنين ومـوالاة الكافرين، قالوا كذباً وجدالا: إنما نحن أهـل الإصـلاح، إن هـذا الـذي يفعلونـه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكنهم بسبب جهلهم وعنادهم لا يحسون، وإذا قيل للمنافقين آمنوا –مثل إيمان الصحابة– جادلوا وقالوا: أنصـدق مثـل تصديـق ضعاف العقل والرأي، فنكون نحن وهم في السفه سواء فرد الله عليهم بـأن السـفه مقصور عليهم، وهم لا يعلمون ما هم فيه من الضلال والخسران، هؤلاء المنـافقون إذا قابلوا المؤمنين قالوا: صدقنا بالإسلام مثلكم، وإذا أنصرفوا وذهبوا إلى زعمائـهم الكفرة المتمردين على الله أكدوا لهم أنهم على ملـة الكفـر لـم يتركوهـا، وإنمـا يستخفون بالمؤمنين ويسخرون منهم ، الله يستهزئ بهم ويمهلهم، لـيزدادوا ضـلالا وحيرة وترددا ويجازيهم على استهزائهم بالمؤمنين، أولئك المنافقون باعوا أنفسـهم في صفقة خاسرة، فأخذوا الكفر وتركوا الإيمان فما كسبوا شيئا ،بل خسروا الهدايـة وهذا هو الخسران المبين، إن حال المنافقين الذين آمنوا ظاهرا لا باطنـا برسـالة محمدﷺ ، ثم كفروا فصاروا يتخبطون في ظلمات ضلالهم وهم لا يشـعرون ، ولا أمل لهم في الخروج منها ، تشبه حال جماعة نزلوا بصحراء فـي ليلـة مظلمـة ، وأوقد أحدهم نارا عظيمة للدفء والإضاءة، فلما سطعت النار وأنارت مـا حولـه، أنطفأت واعتمت، فصار أصحابها في ظلمات لا يرون شيئا ولا يهتدون إلى طريـق ولا مخرج، هم صم عن سماع الحق سماع تدبر، بكم عن النطق به، عمـي عـن إبصار نور الهداية ، كذلك لا يستطيعون الرجـوع إلـي الإيمـان الـذي تركـوه

واستعاضوا عنه بالضلال، أو تشبه حال فريق آخر من المنافقين يظهر لهم الحق تارة، ويشكون فيه تارة أخرى، حال جماعة يمشون في العراء،فينصب عليهم مطر شديد، يصاحبه ظلمات بعضها فوق بعض ، مع قصف الرعد، ولمعان البرق، والصواعق المحرقة التي تجعلهم من شدة الهول يضعون أصابعهم في آذانهم ، خوفا من الهلاك والله تعالى محيط بالمنافقين والكافرين لا يفوتونه ولا يسبقونه، يقارب البرق من شدة لمعانه أن يسلب أبصارهم ومع ذلك فكلما أضاء لهم مشوا في ضوئه، وإذا ذهب أظلم الطريق عليهم فيقفون في أماكنهم ، ولولا إمهال الله لهم لسلب سمعهم وأبصارهم، وهو قادر على ذلك في كل وقت إنه على كل شيء قدير ٠([1])

وتضيف آيات كريمات من سورة التوبة تحدثت عن المنافقين معان أخرى في هذا السياق من وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين الثابتون على النفاق يقول تعالى﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾٠([2])

وفي موضع آخر من السورة يقول سبحانه: ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين٠ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾٠([3])

([1]) التفسير الميسر إعداد نخبة من العلماء ، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٨هـ، ص ٣، ٤ ٠

([2]) سورة التوبة آية ٧٣ ٠

([3]) سورة التوبة آية ٨٤ ٠

ثم يزيد في ذكر أوصافهم وسلوكهم السيء بقوله تعالى: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ٠سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ٠ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفسقين ﴾ (١)٠

الآيات المتقدمة تهديد للمنافقين وإنذار لهم بالجهاد كالكفار المجاهرين إذا استرسلوا بهذه الجراءة في إظهار ما ينافي الإيمان والإسلام، من الأقوال والأفعال ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وتدخل فيه أمته من بعده قيل: المراد جاهد بالمؤمنين الكفار وقال ابن عباس: أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ومع المنافقين باللسان وشدة الجزر والتغليظ ﴿ واغلظ عليهم ﴾ عاملهم بالغلظة والشدة الموافقة لسوء حالهم ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ الفريقين الكفار والمنافقين ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴾ أي المنافقين وإنما قال ﴿ إلى طائفة﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين بل كانوا معذرون وصار لا عذر لهم كالثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم ﴿ فاستئذنوكم للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا﴾ أي عاتبهم بألا تصحبهم أبدا ﴿ الخالفين﴾ جمع خالف، كأنهم خلفوا الخارجين قال ابن عباس :﴿ الخالفين﴾ من تخلف من المنافقين ، ومع النساء والضعفاء، وهذا يدل على أن استصحاب المخذل في الغزوات لا يجوز ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ هذه الآية نزلت في زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول وصلاة النبي ﷺ ، والمعنى أن الآية نص في الامتناع من الصلاة على الكفار ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبيت فنها

---

(١) سورة التوبة من الآية ٩٤-٩٦ .

الله سبحانه وتعالى من الوقوف على قبور الكفار والمنافقين ﴿ يعتذرون إليكم ﴾ يعني المنافقين ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي أخبرنا بسرائركم ﴿ وسيرى الله عملكم ﴾ فيما تستأنفون ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي يجازيكم بعملكم ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ﴾ أي من تبوك والمحذوف عليه محذوف أي يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ لتصفحوا عن لومهم وقال ابن عباس : أي لا تكلموهم ﴿ إنهم رجس ﴾ أي عملهم رجس أي عملهم قبيح ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ أي منزلهم ومكانهم نار جهنم خالدين فيها أبدا إنها بئس المثوى وبئس المصير ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ أبانت الآية حلف عبد الله بن أبي ألا يتخلف عن رسول الله ﷺ بعد ذلك وطلب أن يرضى عنه.([1])

لقد نبه القرآن الكريم على عدواة المنافقين في عدة مواضع ([2]) في أكثر من اثنى عشر آية في سورة البقرة وذلك لكثرتهم ولعموم الإبتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا، لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب ، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد ، هدموا معاقل الإسلام في أكثر من بلد وأوضعوا لواء الحق في أكثر من اتجاه واتفقوا على مفارقة الوحي، وتنادوا بالعلمانية وعدم الاحتكام للشريعة الإسلامية في أكثر من قطر ولخطرهم الداهم أنزل الله فيهم سورة كاملة في القرآن هي سورة "المنافقون".

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، مجلد ٤ جزء ٨، ص ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٣٠، ٢٣١ .

([2])يمكن أن تراجع خطر المنافقين على الإسلام في كتاب الولاء والبراء للقحطاني ص ١٢٩ وما بعدها.

(٤) وجوب البراء من المحادين لله ورسوله ولو كانوا ذوي قربى:-

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا ءاباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان ءاباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزوجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (١)

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهي عن موالاتهم إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان وتوعد على ذلك من آثر أهله وقرابته وعشريتهم على الله ورسوله وجهاد في سبيله ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم عشيرتكم وأموال اقترفتموها ﴾ أي اكتسبتموها وجعلتموها ﴿وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها إن كانت هذه الأشياء ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا﴾ أي فانتظروا فإذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال:﴿ حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الفسق هو الخروج من سلامة الفطرة إلى فساد الطباع ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد، فالفاسقين هم الخارجين من حدود الدين والشريعة المحادين لله ورسوله بارتكاب الكبائر خارجين عن الملة بالكفر.(٢)

وتستمر الآيات القرآنية في الحديث عن البراء من المحادين لله ورسوله ولو كانوا من ذوي القربى يقول تعالى في خواتيم سورة المجادلة: ﴿ لا تجد قوما

---

(١) سورة التوبة آية ٢٣، ٢٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٢ ص ٤٥١،٤٥٢ والتفسير المنير لمحمد رشيد رضا ، ج١٠، ص ٣٦ .

يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولـــو كـــانوا ءابـــاءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بـــروح منـــه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنـــه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾.([1])

لا تجد يا محمد قوما يصدقون بالله واليوم الآخر ويعملون بما شرع الله لهم، يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما، ولـــو كـــانوا آبـــاءهم أو ابناءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم أولئك الموالون في الله والمعادون فيـــه كتـــب فـــي قلوبهم الإيمان وقواهم بنصر منه وتأييد على عدوهم في الدنيا ويدخلهم في الآخـــرة جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، ماكثين فيها زمانا ممتدا لا ينقطع، احـل الله عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم، ورضوا عن ربهم بما أعطـــاهم مـــن الكرامـــات ورفيع الدرجات، أولئك حزب الله وأولياؤه، أولئك هـــم الفـــائزون بســـعادة الدنيـــا والآخرة.([2])

إن البراء من الكفار وما هم عليه يقتضي أن ننبه إلى جملة أمور حتى تتـــم مجانبة دين الكفر والبراء منهم وتتلخص هذه الأمور فيما يلي:- ([3])

(أ) ترك اتباع أهوائهم ومتابعتهم في أي أمر من أمورهم فإن هذه المتابعة لهم إنمـــا تكون بترك الشريعة أو بعضها .

(ب) النهي عن التلقي عن الكفار في الرأي والمشورة وطاعتهم فيما قد يشيرون بـــه أو يأمرون فإن الله تعالى نهى عن طاعة الكافرين.

([1]) سورة المجادلة آية ٢٢ .

([2]) التفسير الميسر ، ص ٥٤٥ .

([3]) راجع كتاب مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لعثمان جمعة ضميرية ، ط مكتبة السوادي جدة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م ، ص٣٦٧٢

(ج) ترك الركون إلى الكفرة والظالمين لأن الله تعالى نهى عن ذلك.

(د) ترك موادة أعداء الله ومحبتهم، ومفاصلتهم مفاصلة كاملة، حتى ولو كانوا من أقرب الناس نسبا وقرابة فلا يجتمع في قلب مؤمن: إيمان ومودة لأعدائه.

(هـ) ترك التشبه بهم في أفعالهم الظاهرة فيما هو من خصائصهم لأنها تورث نوع من المودة والمحبة والموالاة في الباطن وهذا التحذير تواترت به أيضا نصوص السنة النبوية الصريحة محذرة تحذيرا شديدا من التشبه بالكفار.

ويجدر بنا هنا أن نذكر أن لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتاب كامل خصصه لهذا الموضوع وهو "إقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم" فيه دراسة موسعة للتشبه بالكفار وأثره على الأمة وطبع محققا في رسالة علمية للدكتور ناصر عبد الكريم العقل.

المبحث الخامس

صور من التولي المنهي عنه في القرآن الكريم

أبانت آيات القرآن الكريم صور عديدة ومختلفة من موالاة الكافرين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب اليهود والنصارى المحادين لله ورسوله حتى يبتعد المؤمن عن موالاتهم من خلال تلك الصور الحية في كل آية تكلمت عن موضوع صور موالاتهم ويمكن أن نشمل الحديث عنها في الصور التالية:

الصورة الأولى:

محبتهم ومودتهم

قال تعالى:﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا ءاباءهم أو ءابناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾(١)

وقد سبق تفسير هذه الآية في المبحث السابق وفي ذلك كفاية فالآية صريحة في النهي عن موالاة الكافرين ولو كانوا من أقرب الناس للمؤمن مودة وقربى ، ويقول تعالى: ﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وأياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ (٢)

---

(١) سورة المجادلة ، آية ٢٢ .

(٢) سورة الممتحنة ، آية ١ .

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه ، لا تتخذوا عدوي وعدوكم خلصاء وأحباء تفضون إليهم بالمودة فتخبرونهم بأخبار الرسول ﷺ ، وسرائر المسلمين وهم قد كفروا بما جاءكم من الحق من الإيمان بالله ورسوله وما نزل عليه من القرآن، يخرجون الرسول ويخرجونكم أيها المؤمنون من "مكة" لأنكم تصدقون بالله ربكم وتوحدونه، إن كنتم أيها المؤمنون هاجرتم مجاهدين في سبيلي طالبين مرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعدائكم، تفضون إليهم بالمودة سرا ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أظهرتم ومن يفعل ذلك منكم فقد أخطأ طريق الحق والصواب وضل عن قصد السبيل.(١)

والآية وإن نزلت في بعض الصحابة إلا أن حكمها عام لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فلا يجتمع الإيمان ومحبة الكافرين ومودتهم في قلب واحد لذا فإنه يجب علينا أن نتجنب محبتهم ومودتهم.

الصورة الثانية:

اتخاذهم أنصارا واعوانا:

قال تعالى: ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾ (٢)

ينهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء بالمحبة والنصرة من دون المؤمنين ، ومن يتولهم فقد برئ من الله ورسوله، والله برئ منه إلا أن تكونوا ضعافا خائفين فقد رخص الله لكم في مهادنتهم اتقاء لشرهم، حتى تقوى شوكتكم،

---

(١) التفسير الميسر ، ص٥٤٩ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٢٨ .

ويحذركم الله نفسه، فاتقوه وخافوه وإلـــى الله وحـــده رجـــوع الخلائـــق للحســـاب والجزاء.([1])

ويقول تعالى :﴿ يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليـــهود والنصـــارى أوليـــاء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي الظالمين ﴾([2])

ويقول تعالى في ذات السورة المائدة: ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ومـــا أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾([3])

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين من موالاة اليهود والنصارى ، الذين هـم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ثم توعـــد وتـــهدد من يتعاطى ذلك فقال ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ولو آمنوا حق الإيمان بـــالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوا من موالة الكافرين فـــي البـــاطن ومعـــادة المؤمنين بالله والنبي ﷺ وما أنزل إليه من الآيات البينات ولا ما اتخذوهـــم أوليـــاء ولكن الكثيرين ممن يفعلون ذلك ، يوالون اليهود والنصارى أعداء الله ويتخذونـــــهم أعوانا وأنصارا فإنهم فاسقون مخالفون لأمر الله سبحانه وتعالى، فلو كـــان أولئـــك اليهود الذين يناصرون المشركين كانوا مؤمنين بالله ورسوله والقرآن مـــا اتخـــذوا الكفار أصحابا وانصارا ولكنهم فعلوا تلك الموالاة لأنهم خارجون عـــن طاعـــة الله ورسوله.([4])

([1]) راجع جامع البيان للطبري ، ج٣ ، ٤٤ .

([2]) سورة المائدة ، آية ٥١ .

([3]) سورة المائدة ،آية ٨١ .

([4]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ،ج١ ، ص ٢٢١ .

الصورة الثالثة :

الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر أو التحاكم إليه:

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقا لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتب الله ورآء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. واتبعوا ما تتلوا الشيطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هروت ومروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾(١)

جاء في المصحف الميسر في تفسير هاتين الآيتين:

"ولما جاءهم محمد رسول الله ﷺ بالقرآن الموافق لما معهم من التوراة طرح فريق منهم كتاب الله وجعلوه وراء ظهورهم، شأنهم شأن الجهال الذين لا يعلمون حقيقته ، واتبع اليهود ما تحدث الشياطين به السحرة على عهد ملك سليمان بن داود ، وما كفر سليمان وما تعلم السحر ولكن الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علموا الناس السحر، إفسادا لدينهم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت بأرض بابل في العراق، امتحانا وابتلاء من الله لعباده، وما يعلم الملكان أحد حتى ينصحاه ويحذراه من تعلم السحر، ويقولا له لا تكفر بتعلم السحر وطاعة الشياطين ، فيتعلم الناس من الملكين ما يحدثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا، ولا يستطيع السحرة أن يضروا به أحدا إلا بإذن الله وقضائه، وما يتعلم السحرة إلا شرا يضرهم ولا ينفعهم وقد نقلته الشياطين إلى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠١ ، ١٠٢ .

اليهود فشاع فيهم حتى فضلوه على كتاب الله ولقد علم اليهود أن من اختار السحر وترك الحق ماله في الآخرة من نصيب في الخير، ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر عوضا عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به.[1]

فلا يجوز الإيمان بما هم عليه من السحر والباطل ولا التحاكم إلى ما يتحاكمون إليه من الهوى والضلال.

ويقول تعالى في سورة النساء :﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلا﴾[2]

الم تعلم يا محمد أمر أولئك اليهود الذين اعطوا حظا من العلم يصدقون بكل ما يعبد من دون الله من الاصنام وشياطين الإنس والجن،ويقولون للذين كفروا بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ : هؤلاء الكافرون أقوم وأعدل طريقا من أولئك الذين آمنوا " [3]

الصورة الرابعة :

الركون إليهم:

قال تعالى في سورة هود عليه السلام:﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ .[4]

---

(1) المصحف الميسر، مجمع الملك فهد ، ص ١٥،١٦ .

(2) سورة النساء ، آية ٥١ .

(3) المصحف الميسر مجموعة من العلماء ، مجمع الملك فهد ، ص٨٦ .

(4) سورة هود ، آية ١١٣ .

لا تداهنوهم بالركون إلى الشرك ، ولا ترضوا بأعمالهم ولا تميلوا إلى الذين ظلموا أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ فتمسكم النار ﴾ وليس لكم من الله تعالى ولي ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه.(١)

فلذلك لابد من عدم الركون إلى الكافرين واتباعهم فهذه الصورة من موالاة الكافرين تقود المؤمن إذا استمر عليها للنار فيخرج من رحمة الله ولا يجد له ناصر من دون الله تعالى.

إن الركون إلى الكافرين جريمة ما بعدها جريمة في حق الإسلام والمسلمين لأن الذي يركن إليهم يشكل ثغرة كبيرة على وحدة المسلمين.

ويقول تعالى في سورة الإسراء:

﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾.(٢)

ولولا أن ثبتناك على الحق، وعصمناك من موافقتهم لقاربت أن تميل إليهم ميلا قليلا من كثرة المعالجة ورغبتك في هدايتهم ، ولو ركنت يا محمد إلى هؤلاء المشركين ركونا قليلا فيما سألوك لأذقناك مثلي عذاب الحياة في الدنيا، ومثلي عذاب الممات في الآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك، ثم لا تجد أحدا ينصرك ويدفع عنك عذابنا.(٣)

وإذا كان هذا هو توجيه الحق تبارك وتعالى لنبيه المعصوم محمد ﷺ فما بال اتباعه إذا ركنوا إلى أعداء الله من الكفار وأهل الكتاب والمحادين لله ورسوله فالنهي أكبر والبعد عن الركون إليهم أعم والزم.

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٢ ، ص٦٠٦ .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) التفسير الميسر نخبة من العلماء مجمع الملك فهد ، ص ٢٨٩ .

الصورة الخامسة:

اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين:

وفي هذا المعنى يقول الحق تبارك وتعالى في سورة آل عمران:

﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا مـــا عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيـــات إن كنتم تعقلون ﴾ (١)

يأيها الذين آمنوا : صدقوا الله واتبعوا رسوله لا تتخذوا الكافرين أولياء مـــن دون المؤمنين، تطلعونهم على أسراركم، فهؤلاء لا يفترون عن افساد حالكم، وهـــم يفرحون بما يصيبكم من ضرر ومكروه، وقد ظهرت شدة البغض في كلامهم ،ومـــا تخفي صدورهم من العدواة أكبر وأعظم ، قد بينا لكم البراهين والحجـــج لتتعظـــوا وتحذروا إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه.

فالآية صريحة في النهي عن اتخاذ الكفـــارين بطانـــة وأوليـــاء مـــن دون المؤمنين فلا مودة ولا محبة ولا موالاة، مع الكفر بكل أشكاله.

الصورة السادسة:

طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون:

يجب مخالفة الكفار وعدم طاعتهم وعدم الأخذ بمشروتهم لأنـــهم أعـــداء لله ولرسوله وللمؤمنين فلا يعقل أن يمتثل الإنسان المؤمن أمرهم أو يعمل بمشـــورتهم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكـــم علـــى أعقـــابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ (٢)

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٨ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٤٩ .

يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله واتبعوه إن تطيعوا الذين جحدوا ألوهيتي ولم يؤمنوا برسلي من اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين فيما يأمرونكم به وينهوكم عنه، يضلوكم عن طريق الحق، وترتدوا عن دينكم، فتعودوا بالخسران المبين والهلاك المحقق.([1])

ويقول تعالى في سورة الأنعام:

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن اطعتموهم أنكم لمشركون ﴾([2]).

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ﴿ وإنه لفسق ﴾ والضمير قيل عائد على الكل وقيل عائد على الذبح لغير الله، فالنهي عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان وينهى عن ذبائح المجوس، وتحدثت الآية عن وحي الشيطان لأوليائه ﴿ ليجادلوكم ﴾ إن المشركين قالوا : للمسلمين كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله، فما قتل الله فلا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم تأكلونه ؟ فقال الله تعالى ﴿ وإن اطعتموهم ﴾ فاكلتم الميتة ﴿ إنكم لمشركون ﴾ حيث عدلتم عن أمر الله وشرعه إلى قول غيره، فقدتم عليه غيره فهذا هو الشرك.([3])

ويقول الله تعالى في سورة الكهف:﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ ([4])

([1]) التفسير الميسر ، نخبة من العلماء ، مجمع الملك فهد ، ص ٦٩ .

([2]) سورة الأنعام آية ١٢١ .

([3]) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير مجلد ٢ من ص ٢٢٧ وما بعدها.

([4]) سورة الكهف ، آية ٢٨ .

يقول تعالى: واصبر نفسك يا محمد مع أصحابك من فقراء المؤمنين الذين يعبدون ربهم وحده ، ويدعونه في الصباح والمساء يريدون بذلك وجهه، واجلس معهم وخالطهم،ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم من الكفار لإرادة التمتع بزينة الحياة الدنيا، ولا تطع من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا وآثر هواه على طاعة مولاه، وصار أمره في جميع أعماله ضياعا وهلاكا.([1])

فالآيات المتقدمة واضحة كل الوضوح في النهي عن طاعة الكافرين فيما يأمرون ويشيرون.

الصورة السابعة:

التشبه بهم:

التشبه بالكفار يكون في التشبه بهم في أكلهم، في لبسهم الخليع، في طريقة حلق شعرهم، في اعيادهم واحتفالاتهم لذلك نهى القرآن الكريم عن ذلك حتى يكون الفارق واضحا بين الكفر والإيمان قال : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾([2])

الآية واضحة في نهيها عن اتباع أهواء المشركين لأن الذي يتبع هؤلاء الكافرين يتشبه بهم ويكون مثلهم.

ويقول تعالى :﴿ ولئن اتيت الذين أتوا الكتاب بكل ءاية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظلمين ﴾ ([3])

([1]) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، نخبة من العلماء ، ص ٢٩٧ .

([2]) سورة البقرة ، آية ١٢٠ .

([3]) سورة البقرة آية ١٤٥ .

ويقول تعالى في نفس السورة الكريمة: ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ (١)

ولئن جئت يا محمد الذين اعطوا التوارة والإنجيل بكل حجة وبرهان على أن توجهك للكعبة في الصلاة هو الحق من عند الله، ما تبعوا قبلتك عنادا واستكبارا، وما أنت بتابع قبلتهم مرة أخرى، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم في شأن القبلة وغيرها بعد ما جاءك من العلم بأنك على الحق وهم على الباطل، إنك حينئذ لمن الظالمين لنفسهم، وفي هذا تهديد ووعيد لمن يتبع المخالفين لشريعة الإسلام ٠ وقوله تعالى:﴿ ومن حيث خرجت ﴾ الآية، ومن أي مكان خرجت يا محمد فتوجه إلى المسجد الحرام وحيث ما كنتم أيها المسلمون بأي قطر من أقطار الأرض، فولوا وجوهكم نحو المسجد الحرام، لكي لا يكون للناس المخالفين لكم احتجاج عليكم بالمخاصمة والمجادلة، بعد هذا التوجه إليه، إلا أهل الظلم والعناد منهم فسيظلون على عنادهم وجدالهم فلا تخافوهم وخافوني بامتثال أمري واجتناب نهي ولكي أتم نعمتي عليكم باختيار أكمل الشرائع لكم ولعلكم تهتدون إلى الحق والصواب٠(٢)

ويقول سبحانه وتعالى في سورة يونس عليه السلام: ﴿ قال قد اجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ (٣)

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٠ ٠

(٢) انظر التفسير الميسر ، مجمع الملك فهد ، ص ٢٢، ٢٣ ٠

(٣) سورة يونس آية ٨٩ ٠

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية: "قد اجاب الله دعوة موسى وتأمين أخيه هرون في تدمير آل فرعون، أي كما اجيبت دعوتكما فاستقيما فامضيا لأمري وهي الاستقامة ولا تتبعوا سبيل الكافرين فلا تأتمروا بأمرهم وتتبعوهم في الضلال وفيما يشيرون إليه من سيئ الأعمال حتى لا يتشبه المسلم بهم.(١)

ويقول تعالى في سورة الجاثية: ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين ﴾(٢) .

ثم جعلناك يا محمد على منهاج واضح من أمر الدين فاتبع الشريعة التي جعلناك عليها، ولا تتبع أهواء الجاهلين بشرع الله الذين لا يعلمون الحق،وفي الآية دلالة عظيمة على كمال هذا الدين وشرفه،ووجوب الانقياد لحكمه،وعدم الميل إلى أهواء الكفرة والملحدين،إن هؤلاء المشركين بربهم الذين يدعونكم إلى اتباع أهوائهم لن يغنوا عنك يا محمد من عقاب الله شيئا إن اتبعت أهواءهم،وإن الظالمين المجاوزين حدود الله من المنافقين واليهود وغيرهم بعضهم أنصار بعض على المؤمنين بالله وأهل طاعته والله ناصر المتقين بأداء فرائضه واجتناب نواهيه.(٣)

وهناك صور أخرى كثيرة غير الصور التي ذكرناها يمكن أن نجملها فيما يأتي:

(٨) استئمانهم وقد خونهم الله قال تعالى: ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأمين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ (٤)

---

(١)يتصرف من تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٢ ص ٥٦٤،٥٦٥ .

(٢) سورة الجاثية ، آية ١٨ ، ١٩ .

(٣) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ، ص ٥٠٠ .

(٤) سورة آل عمران ٧٥ .

(٩) الرضى بأعمالهم والتزي بزيهم.

(١٠) البشاشة لهم والطلاقة وإنشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم.

(١١) معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم "ومن ذلك فعل إمرأة لوط ونوح".

(١٢) مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم وهذه الصورة كثيرة في عصرنا الحاضر.

(١٣) تعظيمهم وأطلاق الألقاب عليهم "كالسادة والحكماء والزعماء".

(١٤) السكنى في ديارهم وتكثير سوادهم.

(١٥) التآمر معهم وتنفيذ مخططاتهم وتنظيماتهم خاصة الأحزاب الإلحادية.([1])

([1]) انظر الولاء والبراء للشيخ محمد القحطاني ، ص ٢٤٤ وما بعدها.

المبحث السادس:

الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى:

المعاملة بالحسنى :

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين أحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ ([1])

واعبدوا الله وانقادوا له وحده ولا تجعلوا له شريكا في الربوبية والعبادة واحسنوا إلى الوالدين، وأدوا حقوقهم وحقوق الأقربين واليتامى والمحتاجين، والجار القريب منكم والبعيد والرفيق في السفر وفي الحضر ، والمسافر المحتاج والمماليك من فتيانكم وفتياتكم إن الله تعالى لا يحب المتكبرين من عباده المفتخرين على الناس.([2])

وقال تعالى في سورة لقمان: ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا وابتع سبيل من أناب إلي ثم إلى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعلمون ﴾([3])

وإن جاهداك أيها الولد المؤمن والداك على أن تشرك بي غيري في عبادتك إياي مما ليست لك به علم أو امرك بمعصية من معاصي الله فلا تطعهما ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وصاحبهما في الدنيا بالمعروف فيما لا إثم فيه واسلك أيها الابن المؤمن طريق من تاب من ذنبه ورجع إلى وآمن برسولي محمد

([1]) سورة النساء ، آية ٣٦ .

([2]) التفسير الميسر ، ص ٨٤ .

([3]) سورة لقمان ، آية ١٥ .

صلى الله عليه وسلم ، ثم إلي مرجعكم فأخبركم بما كنتم تعملونه في الدنيا وأجازي كل عامل بعمله.([1])

صور المعاملة الجائزة:

من صور المعاملة الجائزة ما جاء واضحا في سورة الممتحنة ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوا من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ ([2])

لا ينهاكم الله أيها المؤمنون عن الذين لم يقاتلوكم من الكفار بسبب الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تكرموهم بالخير وتعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم ، وبركم بهم، إن الله يحب الذين يعدلون في أقوالهم وأفعالهم.([3])

ومن خلال دراستنا في الولاء والبراء في القرآن الكريم فإننا نخلص إلى التوجيهات التالية:

أولا : تعميق قضية ولاء المسلم للمسلم وانتمائه لإخوانه المؤمنين فقط وخلع الولاءات الجاهلية من قومية وعرقية ووطنية وعالمية وغيرها، فالمسلم أخو المسلم في أي مكان من الأرض.

ثانيا : تعميق قضية المعاداة والبراءة من أعداء الله الكفار منهم والمشركين والمنافقين والمرتدين وإنه لا يجتمع إيمان في قلب مع حب الكفر وأهله.

ثالثا : التأكيد على قضية عدواة أولياء الشيطان لأولياء الرحمن فإن هذه العداوة قائمة منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فالحزبان لا يلتقيان أبدا، لأن حزب الله يريد دعوة الناس إلى عبادة الله، وحزب الشيطان يدعو الناس إلى عبادة الطاغوت

([1]) التفسير الميسر، ص ٤١٢ .

([2]) سورة الممتحنة ، آية ٨ .

([3]) انظر التفسير الميسر ، ص ٥٥٠ .

وطاعته، وقتال المؤمنين لصدهم عن دينهم فقاتلوا أولياء الشيطان إنهم لا إيمان لهم وهم في الخسران لا محالة في ذلك وحزب الله هم المفلحون الفائزون جعلنا الله منهم.

رابعا: صد آثار الغزو الفكري الذي يدعو للتشبه بالكافرين وذلك بتعرية الجاهلية الحديثة ، وتمزيق زيفها وبهرجتها فنبين انحرافها مع إيجاد البديل الإسلامي الصحيح.([1])

خامسا : لتحقق عقيدة الولاء والبراء لابد من تربية أجيال الأمة المسلمة على منهاج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لأن هذا هو الطريق الصحيح الذي به ترجع الأمة إلى ربها ودينها .

سادسا : لبعث الأمل في النفوس وتقويته بقرب نصر الله على اليهود ألد أعداء الإسلام والمسلمين مصداقا لقول الرسول ﷺ :"لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر : يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله " ([2])

([1]) راجع الولاء والبراء للقحطاني ، ص٤٣٦ .

([2]) صحيح مسلم كتاب أشراط الساعة ، ج٤ ، ص ٢٢٣٨ ، حديث رقم ٢٩٢١ .

المحاضرة الرابعة

منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم

نشأة إبراهيم عليه السلام:

نسبه: هو إبراهيم خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عامر بن شالح بن ارفكشان بن سام بن نوح عليه السلام.

هذا هو النسب في التوراة وبعض كتب التاريخ وقد جاء في القرآن أن اسم أبيه "آزر" واختلف المفسرون في اسم أبيه إن "آزر" صفة وقيل اسم آلهة من آلهتهم وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضا في اسماء الألهة.([1])

نشأته: نشأ إبراهيم عليه السلام قبل الميلاد بنحو الف وستمائة عام أي قبل أربعة آلاف عام، وقد حدد المسعودي الفترة الممتدة بين عهد إبراهيم عليه السلام وبين عهد موسى عليه بخمسمائة وسبع وستين سنة.([2])

وقد عين زمن إبراهيم عليه السلام في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ويتفق المؤرخون على أن مولد إبراهيم الخليل كان في العراق وإن اختلفوا في تحديد المدينة التي ولد فيها وأنه قد عاش في عهد الملك نمرود الذي حاج إبراهيم في ربه.([3])

وقد ظهر إبراهيم عليه السلام على مفترق من الطرق يختلف فيه الناس في العبادة والاعتقاد وكان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام والكواكب ، فنشأ فيهم موحدا لله سبحانه وتعالى بفطرته السليمة.

([1]) انظر قصص الأنبياء ، الشيخ عبد الوهاب النجار ، ص٩٣ .

([2]) التنبيه والإشراف للمسعودي ، طباعة مصر ١٩٣٨م ، ص ٧١ .

([3]) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري : ج١ ، ص ١٦٢ .

المبحث الأول:

صفات إبراهيم عليه السلام وأثرها في الدعوة

إن من أهم الصفات التي اتصف بها إبراهيم عليه السلام إنه كان أمة،قانتا، حنيفا، شاكرا لنعم ربه، أواه، حليم وسنتناول هذه الصفات كما جاءت في القرآن الكريم:

يقول تعالى في سورة التوبة: ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ .(١)

ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿إن إبراهيم لأواه حليم ﴾أي إن إبراهيم عليه السلام كان كثيرا الدعاء حليما عمن ظلمه وأناله مكروها، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه ، محلم عنه مع أذاه له،ودعا له واستغفر .(٢)

وقوله تعالى في سورة هود عليه السلام :﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾(٣)

ففي هذه الآية مدح لبعض الصفات الحميدة التي اتصف بها خليل الله إبراهيم عليه السلام من الحلم وهو العفو عند المقدرة والتأوه وهو الدعاء والإنابة والرجوع إلى الله تعالى بالاستغفار.

ويقول تعالى في سورة مريم :﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾ (٤)

---

(١) سورة التوبة آية ١١٤ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٤ ، ص ٢٢٧ .

(٣) سورة هود ، آية ٧٤ ، ٧٥ .

٤)سورة مريم ، آية ٤١ .

إن إبراهيم بليغ التصديق بما يجب لله من الوحدانية والتنزيه ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل في تبليغ دعوة الحق إلى قومه.([1])

وفي سورة الذاريات يقول تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام بالسخاء والكرم :﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ ([2])

في هذه الآية وجوب الضيافة للنزيل وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل، وفيه أيضا وجوب رد التحية ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ يعني انسل خفية في سرعة ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ من خيار ماله وشواه وقربه إليهم قائلا ﴿ألا تأكلون﴾ تلطف في العبارة وعرض حسن ، ففي هذه الآية إشارة إلى وصف إبراهيم بالسخاء والكرم وآداب الضيافة.([3])

وجاء في سورة النساء وصف إبراهيم عليه السلام بالخليل في قوله تعالى :﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ ([4])

فضل الله دين الإسلام على سائر الأديان ﴿ واسلم وجهه لله ﴾ معناه أخلص دينه لله وخضع له وتوجه إليه بالعبادة ﴿ وهو محسن ﴾ أي موحد والملة الدين والحنيف المسلم وقوله تعالى :﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ ومعنى الخليل الذي

([1]) باختصار من تفسير محاسن التأويل للقاسمي ،ج ١١ ، ص١٢٨ .

([2]) سورة الذاريات من الآية ٢٤-٢٧ .

([3]) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٧ ، ص ٤٢٠ .

([4]) سورة النساء ، آية ١٢٥ .

ليس في محبته خلل وهو خليل الله لأنه أحبه واصطفاه، والخليل هو الذي يوالي في الله ويعادي في الله ، والإخلاء بين الآدميين الأصدقاء.([1])

ومن جملة ما اتصف به إبراهيم عليه السلام الرفق مع أبيه،يقوله تعالى: ﴿ إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يأبتي إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا . يأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا. يأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ ([2])

وقوله تعالى في ذات السورة مريم :﴿ قال سلام عليك ساستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ﴾ ([3])

لقد طلب إبراهيم عليه السلام من إبيه بأدب وحسن خلق أن لا يعبد الأصنام الصماء التي لا تسمع والتي لا تبصر والتي لا تضر ولا تنفع والتي لا تغني الإنسان عن الله سبحانه وتعالى خالقه شيئا، وطلب من أبيه أن يتبعه حتى يهديه إلى الصراط المعتدل، لقد أرشد أبيه إلى الحق بالرفق واللطف فلم يسم أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق، وطلب من أبيه أن يتبعه حتى ينجيه من الضلال، ثم نهى أباه عن عبادة الشيطان العاصي لله ربه ولا ريب أن المطيع للعاصي عاص وذكر الرحمن لإظهار كمال شناعة معصية الشيطان لله، ووجه أباه وخوفه من سوء العاقبة وبما يجره له الشيطان وبالاً ، ولم يخل ذلك من حسن الأدب حيث لم يصرح بأن العذاب لاحق بأبيه ولكنه قال ﴿ أخاف أن يمسك عذاب فذكر الخوف والمس وذكر العذاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه

([1]) باختصار من الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ج٥ ، ص ٤٠٠ وما بعدها.

([2]) سورة مريم من الآية ٤٢ – ٤٥ .

([3]) سورة مريم الآية ٤٧ .

وأوليائه أكبر من العذاب وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله ﴿ يأبت﴾ توسلا إليه واستعطافا ﴿ سلام عليك ﴾ يقابل السيئة بالحسنة فلن أجيبك بمكروه ولكن سادعوا ربي أن يغفر لك. ([1])

ومن صفات إبراهيم عليه السلام الصبر وتحمل الأذى في سبيل دعوته ودينه قال تعالى :﴿ قالوا حرقوه وانصروا الهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ ([2])

قالوا حرقوه لأنه استحق أشد العذاب عندهم والنار أهول ما يعاقب به وانصروا إلهتكم بالانتقام لها ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ به شيئا فلا يليق به إلا الإحراق.

ومن أبرز صفات إبراهيم عليه السلام توكله التام على الله تعالى :﴿ الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ ([3])

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ هو الخالق الذي قدر قدرا وهدى الخلائق إليه فكل يجري على ما قدر وهو الذي يهدي من يشاء ويقبل من يشاء ﴿ والذي يطعمني ويسقين ﴾ هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذبا زلالا ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان لمن قدر الله وقضائه وخلقه ولكنه أضافة إلى نفسه أدبا، فإذا وقعت في مرض لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه وفي هذا تمام التوكل على الله.([4])

([1]) باختصار من تفسير محاسن التأويل للقاسمي ، ج١١ ، ص١٣٢ .

([2]) سورة الأنبياء ، الآية ٦٨ .

([3]) سورة الشعراء من الآية ٧٨-٨٠ .

([4]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٦ ص ١٤٦ .

ومن صفات إبراهيم عليه السلام الشجاعة قال تعالى في سورة الأنبيـــــاء :﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ (١)

لاحتالن لفضيحة الأصنام باظهار عجزها في عدم قدرتها في الدفـــاع عـــن نفسها بعد أن تفرغوا من عبادتها وتذهبوا بعيدا عنها وتكون بمفردها وفـــي القســـم إشارة إلى شجاعته.

لقد كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام بكل جرأة وحطمها معرضـــا نفســـه للهلكة في سبيل الحق ، لقد حطمها، لقد ذهب إلى أصنامهم التي يعبـــدون واســـتهزأ بها عندما خاطبها مستنكرا لها ﴿ ألا تأكلون ؟﴾ من هذا الطعام الذي وضع أمـــامكم للتبرك، لكن الأصنام لا تنطق ولا تجيب مما جعل إبراهيم عليـــه الســـلام يســـتعلي عليهم ويضربهم بيمينه بكل قوة بالفأس التي يحملـــها فيضربـــها بكـــامل قوتـــه،إن إبراهيم قد صب غيظه على هذه الأصنام فهشمها تهشيما !! فتحركوا وغضبـــوا لأن آلهتهم قد حطمت وكسرت وأصابع الاتهام كلها تشير لذلك الفتى إبراهيم لأنه عدوها وعدوهم فامروا به أن يقبض عليه ويقدم إلى محاكمة علنية لأنه تحـــدى عقيدتـــهم الفاسدة وجمعوا كل الناس، الرجال ، والنساء ، والشيوخ، والأطفـــال ، وفـــي ذات المكان الذي شهد تحطيم آلهتهم حوكم إبراهيم، الذي وقف وحـــده أمامـــهم وأمـــام جموعهم وسلطانهم الخاسر فكان لا يبالي لأن الله الواحد الأحد الفرد الصمد معـــه، كان متوكلا على ربه الذي يحيي ويميت ربه الشافي ،الغافر للذنوب لمن تاب إليـــه، الطاعم الساقي الرازق مالك يوم الدين الذي يدخل برحمته وفضلـــه يـــوم القيامـــة الصالحين من عباده إلى جنة النعيم.(٢)

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٥٧ .

(٢) انظر حياة إبراهيم للأستاذ محمود شلبي ، طباعة دار الجيل بيروت ، ١٩٧٤م ص ٨٠ وما بعدها.

وفي تلك المحاكمة الكبرى كانت إفادات إبراهيم عليه السلام عندما سأل ؟ ﴿ أأنت فعلت هذا ؟؟ ﴾ أشار إبراهيم إلى الصنم الأكبر الذي علق الفأس في عنقه استهزاء بهم مبينا لهم أن هذا الكبير هو الفاعل.

لقد علمنا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام أن إزالة الباطل تتطلب أحيانا ثورة عملية ينتقل بها الداعية المؤمن من مرحلة القول إلى مرحلة العمل والتنفيذ فابانت الآيات القرآنية التي تناولت موضوع دعوة إبراهيم عليه السلام إنها اشتملت على جانبين هامين هما : الأسلوب القولي والأسلوب العملي وهذا ما سنتناوله في المبحث التالي.

المبحث الثاني

أساليب إبراهيم الدعوية كما عرضها القرآن الكريم

أولا: الأساليب النظرية:

(أ)المناظرة والمحاجة : قال تعالى في سورة البقرة ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن ءأته الله الملك إذ قال إبراهيم رب الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ([1])

هل رأيت يا محمد أعجب من حال هذا الذي جادل إبراهيم عليه السلام في توحيد الله تعالى وربوبيته، لأن الله أعطاه الملك فتجبر وسأل إبراهيم من ربك ؟ فقال إبراهيم عليه السلام ربي الذي يحيي الخلائق فتحيا ، ويسلبها الحياة فتموت، فهو المنفرد بالاحياء والإماتة قال : أنا أحي وأميت ، أي أقتل من أردت قتله واستبقي من أردت استبقاءه، فقال إبراهيم : إن الله الذي أعبده يأتي بالشمس من المشرق فهل تستطيع تغير هذه السنة الإلهية بأن تجعلها تأتي من المغرب ؟ فتحير هذا الكافر وانقطعت حجته، شأنه شأن الظالمين لا يهديهم الله إلى الحق والصواب.([2])

ويقول تعالى في سورة الأنعام :﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه ءازر أتتخذ أصناما ءالهة إني أرئك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل راءا كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين. فلما رءا القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا

([1]) سورة البقرة ، آية ٢٥٨ .

([2]) انظر التفسير الميسر ، مجمع الملك فهد ، ص ٤٣ .

أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون ٠ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ٠ وحآجه قومه قال آتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون٠ وكيف أخاف ما اشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون٠ الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون٠وتلك حجتنا ءاتينها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ (١)

تصور الآيات السابقة مشهد الفطرة التي تتكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها ، إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم، إنه لم يهتد بوعيه وإدراكه إلى إلهه ، ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهه، فالإله الحق في نظر إبراهيم لا يمكن أن يكون صنما من حجر أو وثنا من خشب ﴿ ءاتخذ اصناما الهة ؟ أني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ كلمة يقولها إبراهيم لأبيه وهو الأواه الحليم الرضي في الخلق وهو القدوة في فهم الوحدانية لله سبحانه وتعالى ، لذلك فتح الله بصيرته للأسرار الكامنة في الكون ليريه الله ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين المؤمنين إيمانا قاطعا لا زعزعة فيه بالله الخالق القدير فتأمل إبراهيم عليه السلام في الكواكب من نجوم وشمس وقمر استكبرها لتكون ألهته في بادئ الأمر ولكنها حينما اظهرت ضعفا بالزوال انكر أن تكون له ءالهة من دون الله ، فقد غابت جميعها عن ناظريه فاتجه إلى فاطر السموات والأرض وخالق تلك الكواكب وخالق كل شيء ليعبده سبحانه وتعالى دون غيره فلا إله إلا الله ، فواجه قومه بيقينه الحازم وإيمانه الراسخ بالله ربه ﴿ وحاجه قومه قال آتحاجوني في الله وقد هداني ﴾ فقومه لا يتفكرون ولا

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٧٤-٨٣ .

يتدبرون في ملكوت السموات والأرض كما تفكر وتدبر إبراهيم عليه السلام، واجههم وهو مستنكر لما يعبدون من دون الله في ثقة وطمأنينة، اتجادلوني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي ويفتح بصيرتي ويهديني إليه، فما اجادلكم في أمر أجده في نفسي ﴿ ولا أخاف ما تشركون ﴾ فلا أخاف أحدا إلا الله، لأنه يعلم أن كل شيء يحدث إنما يحدث بمشيئة الله وعلمه ولذلك فهو في حماية الله ورعايته ﴿إلا إن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما ﴾ فالمؤمن لا يخاف إلا الله ولكن المشرك يخشى ويخاف من كل شيء حوله، فكان من الأجدى أن أن يخافون الله القوي الذي أشركوا به غيره ، كما أن إبراهيم لم يكترس لخوف ءالهتهم الزائفة التي لا تضر ولا تنفع ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن ؟﴾ المؤمنين الخائفين من الله الطائعين له أم الكافرين المشركين الجاحدين لله ونعمه، إن الذين آمنوا هم الأحق بالأمن من غيرهم لأنهم لم يخلطوا شريكا في عبادة أو طاعة أو اتجاه فعبدوا الله وحده فاستحقوا الأمن والهداية، وقد كانت هذه هي الحجة التي الهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه ، فلما واجههم إبراهيم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه أياها، سقطت حجتهم، وعلت حجته وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة، وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفا في هذا بحكمته وعلمه ﴿إن ربك حكيم عليم ﴾ ([1])

(ب) المعاريض:

قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ قالوا ءانت فعلت هذا بإلهتنا يا إبراهيم٠قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون ﴾ ([2])

([1]) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب ، ج٢ ، ص١١٣٧ وما بعدها٠

([2]) سورة الأنبياء ، الآيات ١٦٢،١٦٣ ٠

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآيات "لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة استفهموه هل فعل أم لا ؟ فقالوا : أأنت فعلت هذا بالآلهة ؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ أي إنه غار وعظم من أن يعبد هو ويعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، فعلق فعل الكبير بنطق الاخرين تبنيها لهم على فساد اعتقادهم،كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء ﴿ فسئلوهم إن كانوا ينطقون ﴾ بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد وكان قوله من المعاريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب أي سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل، مع أن في الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه فدل على أنه خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله "([1])

ويقول تعالى في سورة الصافات :﴿ فنظر نظرة في النجوم ٠ فقال إني سقيم ﴾ ([2])

فنظر فيما نجم من الأشياء فعلم أن لها خالقا ومدبرا وأنه يتغير كتغيرها فقال ﴿ إني سقيم ﴾ قال الضحاك معناها : سأسقم سقم الموت ، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت وهذا تورية وتعريض، وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك: أشار لهم إلى مرض وسقم يعدي كالطاعون، وكانوا يهربون من الطاعون فارين منه خوفا من العدوى٠([3])

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج١١ ، ص ٢٦٢ ٠

([2]) سورة الصافات ، آية ٨٨ ، ٨٩ ٠

([3]) الجامع لحكام القرآن للقرطبي ، ج١٥ ، ص ٨٢ ٠

(ج) الاستعطاف:

جاءت بعض الآيات في سورة مريم توضح هذا الأسلوب الدعوي النظري في دعوة إبراهيم عليه السلام قال تعالى :﴿ إذ قال لأبيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ٠ يأبتي إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا٠ ٠ يأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ٠ يأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ (١)

أرشد أباه إلى الدين المستقيم الذي فيه النجاة من عذاب الله تعالى إن مات على ما هو عليه من الكفر فيكون قرينا للشيطان في النار وفي هذا استعطاف من إبراهيم عليه السلام لأبيه حتى يلين قلبه ويؤمن بالله ، فدعاه من باب العطف عليه من أن يلحق به عذاب الله الأليم حبا لأبيه وعطفا عليه٠

(د) استعارة الخصم:

جاء بيان هذا الأسلوب في في قوله تعالى في سورة الأنبياء :﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ (٢)

وقوله تعالى في ذات السورة :﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ (٣)

لقد جعل إبراهيم آلهتهم فتاتا كسرها وقطعها وهذا معنى الجذ، فصارت كالحطام والرفات وهذا هو الكيد الذي أقسم به ليفعلنه بها ﴿ إلا كبيرا لهم ﴾ ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم ﴿ لعلهم إليه﴾ أي إلى إبراهيم ودينه ﴿ يرجعون ﴾ إذا قامت الحجة عليهم ﴿ أف لكم ﴾ أي النتن لكم والخزي والعار لما تعبدونه من دون الله من أصنام حجرية وأوثان خشبية

---

(١) سورة مريم من الآية ٤٢ – ٤٥ ٠

(٢) سورة الأنبياء آية ٥٨ ٠

(٣) سورة الأنبياء آية ٦٧ ٠

فتحسر على فعلهم هذا وفي هذا استعارة وتحريك لمشاعرهم ليتيقنوا أنهم على الباطل يسيرون.([1])

ثانيا : الأساليب العملية:

(أ)القدوة :

قال تعالى في سورة البقرة :﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال أني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾([2])

جعل الله لهم إبراهيم عليه السلام إماما يتخذونه قدوة ويقودهم إلى الله ويقدمهم إلى الخير ويكونون له تبعا ، وتكون له فيهم قيادة ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ جاء الرد من الله الذي اصطفاه وابتلاه وجعله قدوة إن الإمامة لا تكون بالوراثة إنما تكون لمن يستحقها بالعمل والصلاح والإيمان ﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ والظلم أنواع وألوان فمنه الشرك بالله والبغي على الناس، والإمامة والقدوة ممنوعة للظالمين ، فالقدوة تكون في العقيدة الواحدة في الأمة المؤمنة.([3])

ويقول تعالى في سورة النحل:﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ ([4])

وقوله تعالى:﴿ ثم أوحينا إليك أن ابتع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ ([5])

([1]) بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج١١ ، ص ٢٦٥ .

([2]) سورة البقرة ، آية ١٢٤ .

([3]) انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج١ ، ص١٥٧ .

([4]) سورة النحل الآية ١٢٠ .

([5]) سورة النحل الآية ١٢٣ .

دعا الله سبحانه وتعالى مشركي العرب بواسطة أبيهم إبراهيم عليه السلام إلى ملته ، فقد كان أمة : جامعا للخير وللخصال الحميدة قانتا لله يعلم الناس الخير، مطيعا لله قانتا له بالدعاء ، مفرده بالعبودية وحده دون غيره فقد قام الدليل العملي في عبادة الله سبحانه وتعالى ، ثم إن الله تعالى أمر باتباع إبراهيم عليه السلام في مناسك الحج، وأمر باتباعه في التبرؤ من الأوثان وفي الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء وقد أمر بالاقتداء بهم واتباعهم.([1])

قد كانت لكم قدوة حسنة في إبراهيم والذين اتبعوه من المؤمنين كلوط عليه السلام ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يعني الذين اشركوا بالله وعبدوا الطاغوت ﴿إنا برءواء﴾ جمع برئ ، من دينكم ومعبودكم ، انكرنا ما أنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم إذ لا صلح بيننا ولا مودة إلى أن تؤمنوا بالله وحده، وقد كانت لنا أسوة حسنة في إبراهيم في أمور العبادة والتوحيد والتبرؤ من الكفار والمشركين والمنافقين.([2])

تلك المعاني العظيمة في الأسلوب العملي لإبراهيم عليه السلام جاءت في سورة الممتحنة قوله تعالى :﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين ءامنوا معه ﴾ ([3])

(ب)البداءة بالأهم :

قد كانت من أساليب إبراهيم عليه السلام الدعوية ترتيب أمور الدعوة وتنظيمها بدءا بالأهم فالأهم حتى يصل إلى الغاية المنشودة من دعوة الناس إلى دين

([1]) بتصرف من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج ١٠ ، ص ١٧٥ .

([2]) انظر محاسن التأويل للقاسمي ، ج١٦ ، ص ١٢٦ .

([3]) سورة الممتحنة آية ٤ .

الله ، يقول تعالى في سورة إبراهيم عليه السلام ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هـذا البلد ءامنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾([1])

واذكر يا محمد حين دعا إبراهيم ربه بعد أن اسكن ابنه إسماعيل وأمه هاجر وادي مكة رب اجعل "مكة" بلد أمن يأمن كل من فيها وابعدني وابنائي عن عبادة الأصنام.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ([2])

واذكر يا محمد إبراهيم عليه السلام حين دعا قومه أن اخلصوا العبادة لله وحده ، واتقوا سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ذلكم خير لكم ، إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم مما هو شر لكم، ونجد أن إبراهيم عليه السلام بدأ أولا بالدعاء والتضرع إلى أن يكون وابنائه موحدين لله يبدأ أولا بنفسه ثم دعا قومه بعد ذلك لعبادة الله والخوف منه، فبدأ بالأهم .

(ج)البداءة بالأقربين :

بدأ إبراهيم عليه السلام بأقرب الناس إليه مودة ورحما وهو أبيه فدعاه لتوحيد الله ونبذ عبادة الأوثان والأصنام واتبع معه أسلوبا عمليا في نهيه ألا يعبد الشيطان واتخذ في سبيل ذلك كل ما آوتي من علم وحكمة ، فبدأ بأبيه وهو أقرب الناس إليه وهذا أسلوب هام في الدعوة إلى الله ، لينذر الإنسان عشيرته الأقربين قبل أن يدعوا الناس أجمعين وقد جاءت هذه المعاني واضحة في سورة مريم من الآية ٤٢ وحتى الاية ٤٥ في قوله تعالى :﴿ إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد ما لا يسمع

([1]) سورة إبراهيم ، آية ٣٥ .

([2]) سورة العنكبوت ، آية ١٦ .

ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ يأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ .

(د) اللين أولا ثم الشدة:

يقول تعالى في سورة الأنعام ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه ءازر أتتخذ أصناما ءالهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ (١)

واذكر يا محمد الطريقة التي اتخذها إبراهيم عليه السلام في محاجة أبيه أزر إذ قال له اتجعل من الأصنام ألهة تعبدها من دون الله تعالى ، إني أراك وقومك في ضلال مبين وواضح عن طريق الحق وهذا أسلوب اللين في الدعوة العملية، أما أسلوب الشدة التي اعقبت اللين في قوله تعالى :﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عكفون . قالوا وجدنا ءاباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم واءباؤكم في ضلال مبين ﴾ (٢)

فالشدة كانت واضحة في تحقيره لما يعبدون فقد وبخهم بقوله ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾فهي تماثيل وصور لا روح فيها مصنوعة لا تضر ولا تنفع فكيف تعبد من دون الله ؟ فكان ردهم دليل على ضعفهم في مواجهة الموعظة الشديدة لهم من إبراهيم عليه السلام عندما قالوا : أننا تأسينا بأبائنا في عبادة تلك التماثيل والصور لذلك كان رد إبراهيم عليه السلام قويا شديدا رادعا زاجرا ﴿لقد كنتم أنتم وءاباؤكم في ضلال مبين ﴾ في ضلال قديم وموروث وواضح الضلالة والغواية.(٣)

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، من ٥٢-٥٤ .

(٣) باختصار وتصرف من محاسن التأويل للقاسمي ،ج ١١ /٢٦٣ .

(هـ)التحدي:

ومن الأساليب العملية في دعوة إبراهيم عليه السلام التحدي والوقوف بندية ضد الكفار وتحمل تبعة ذلك ما دام هو على الحق المبين قال تعالى في سورة الأنبياء :﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ (١)

ودائما ما نرى أن المشركين والكفار في كل عصر ومصر يتحدون أنبياء الله ورسله ويفترون عليهم ويطالبونهم بمسائل تظهر فيها صور التحدي لذلك كان لا بد للأنبياء أن يتحدوهم في ذلك ليستبين أمر الله سبحانه وتعالى القائل :﴿ بل قالوا أضغث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾(٢)

(و)المفاصلة:

يقول سبحانه وتعالى في سورة مريم: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ﴾(٣)

﴿اعتزلكم﴾ اتباعد عنكم ﴿ وما تدعون من دون الله ﴾ أي من أصنامكم ، والمراد بالدعاء هنا العبادة ﴿ وادعوا ربي أي أعبده وحده ﴿ عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ﴾ أي خائبا ضائع السعي، وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم مع التواضع بكلمة ﴿عسى﴾ وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل من الله تعالى.(٤)

ولما تبين لإبراهيم عليه السلام أن أباه عدو لله ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير وأنه سيموت كافرا، تركه وترك الاستغفار له وتبرأ منه،فكانت المفاصلة بينه وبين

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٥٧ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٥ .

(٣) سورة مريم ، آية ٤٨ .

(٤) محاسن التأويل ، للقاسمي ، ج١١ ، ص ١٢٢ .

أبيه مفاصلة الإيمان من الكفر ونجد هذا المعنى واضحا في سورة التوبة الآية ١١٤ قول الله تعالى ﴿ ٠٠٠٠فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه٠٠٠٠﴾ الآية٠

وفي سورة الزخرف يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون٠ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين٠ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ ([1])

جاء في تفسير الإمام ابن كثير رحمه الله:" يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان،وجعل الكلمة الباقية وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي (لا إله إلا الله) جعلها دائمة في ذريته تقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي إليها"٠ ([2])

(ز) الدعاء والتضرع إلى الله :

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم٠ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرينا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم٠ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم ءايتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾([3])

واذكر يا محمد حين رفع إبراهيم وإسماعيل أسس الكعبة وهما يدعوان الله في خشوع: ربنا تقبل منا صالح أعمالنا ودعاءنا أنك أنت السميع لأقوال عبادك

([1]) سورة الزخرف من الآية ٢٦-٢٨ ٠

([2]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج ٧ ، ص٢٢٥ ٠

([3]) سورة البقرة من الآية ١٢٧-١٢٩ ٠

العليم بأحوالهم ، ربنا واجعلنا ثابتين على الإسلام، منقادين لأحكامك واجعل من ذريتنا أمة مسلمة منقادة لك بالإيمان ، وبصرنا بمعالم عبادتك ، وتجاوز عن ذنوبنا، إنك أنت كثير التوبة والرحمة لعبادك، ربنا وابعث في هذه الأمة رسولا من ذرية إسماعيل يتلو عليهم آياتك ويعلمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من الشرك وسوء الأخلاق، إنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليه الشيء إذا أراد حدوثه الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها.([1])

لقد دعا إبراهيم ربه وتضرع إليه بعد أن اسكن ابنه إسماعيل مع أمه وادي مكة أن يجعل الله مكة بلدا آمنا وأن يبعده وبنيه أن يعبدوا الأصنام، لأن الأصنام تسببت في إبعاد كثير من الناس عن طريق الحق، إنك يا الله غفور لذنوب المذنبين بفضلك رحيم بهم، تعفو عن من تشاء منهم، ويظهر ضعفه لله تعالى متضرعا أنه اسكن ذريته بواد ليس فيه زرع ولا ماء. بجوار بيتك المحرم، ربنا إني فعلت ذلك امتثالا لأمرك ليؤدوا الصلاة، فاجعل قلوب خلقك تنزع إليهم وتحن وارزقهم في هذا المكان من أنواع الثمار ، لكي يشكروا لك عظيم نعمك، فاستجاب الله دعاءه، ربنا أنك تعلم ما نخفيه وما نظهره وما يغيب عن علمك شيء من الكائنات في الأرض ولا في السماء ، ثم يثني إبراهيم على الله تعالى على أن رزقه على كبر في السن ولديه إسماعيل وإسحاق بعد دعائه أن يهبه ذرية صالحة ، إن الله استمع لدعائه ولم يخيب رجاءه ، ثم سأل الله أن يجعله مدواما على أداء الصلوات على أتم وجه، وأن يجعل من ذريته من يحافظ عليها، وسأل الله أن يستجيب دعائه ويتقبل عبادته، وأن يغفر له ما وقع منه مما لا يسلم منه البشر وأن يغفر لوالديه من باب الإحسان إليهما، وأن يغفر للمؤمنين جميعا يوم يقوم الناس للجزاء والحساب.

([1]) بتصرف من التفسير الميسر، نخبة من العلماء ، ص ٢٠ .

إن كل تلك المعاني تضمنتها بضع آيات في سورة إبراهيم عليه السلام قال تعالى :﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد ءامنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ٠ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ٠ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي ذرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون٠ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء٠ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسمعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء٠ ربي اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء٠ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ ([1])

ويقول تعالى في سورة الشعراء :﴿ رب هب لي حكما والحقني بالصالحين* واجعل لي لسان صدق في الآخرين* واجعلني من ورثة جنة النعيم* واغفر لأبي إنه كان من الضالين* ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ ([2])

قال إبراهيم داعيا ربه امنحني العلم والفهم والحقني بالصالحين واجمع بيني وبينهم في الجنة، واجعل لي ثناء حسنا وذكرا جميلا في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة واجعلني من عبادك الذين تورثهم نعيم الجنة، واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه عليه إنه كان من ضل عن سبيل الهدى وكفر بك وهذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله فلما تبين له ذلك تبرأ منه ،ولا تلحق بي الذل يوم يخرج الناس من القبور للحساب والجزاء على أعمالهم التي عملوها في الدنيا٠([3])

([1]) سورة إبراهيم ، من الآية ٣٥ – ٤١ ٠

([2]) سورة الشعراء من الآيات ٨٣ – ٨٧ ٠

([3]) انظر التفسير الميسر ، نخبة من العلماء ، ص٣٧١ ٠

(ح) تحطيم الأصنام:

كما نعلم فإن إبراهيم عليه السلام حطم أصنام قومه الذي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، فقطعها إربا إربا فصارت مكسرة مهشمة وترك اكبر الأصنام حتى إذا رجعوا إليه وجدوه سالما دون الأصنام الأخرى ، فليسألوه إن كان ينطق أو يفهم فما فعله إبراهيم عليه السلام كان منهجا عمليا في إزالة المنكر باليد وليتحمل في سبيل ذلك كل صنوف العذاب ولو كان الإحراق بالنار . يقول تعالى:﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾([1])

ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة الصافات: ﴿ فراغ إلى ءالهتهم فقال ألا تأكلون* مالكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضربا باليمين * فأقبلوا إليه يزفون* قال أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾ ([2])

﴿فراغ إلى الهتهم ﴾ أي ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء ﴿فقال ألا تأكلون﴾ وذلك أنهم قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا يتبرك لهم فيه ﴿ما لكم لا تنطقون﴾ لأنهم لم يجيبوا عليه سؤاله لهم بعدم الأكل، ﴿فراغ عليهم ضربا باليمين﴾ معناه مال عليهم ضربا باليمين لأنها أشد وانكى ولهذا تركهم جذاذا ﴿فاقبلوا إليه يزفون﴾ يسرعون، فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم فقال : ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ تعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟ ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ والله خلقكم وعملكم فالله يصنع كل صانع وصنعته .([3])

([1])سورة الأنبياء ، آية ٥٧ ، ٥٨ .

([2]) سورة الصافات ، من الآية ٩١-٩٦ .

([3]) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ج٧ ، ص ٢٦ .

(ط) الهجرة:

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي بركنا فيها للعالمين ﴾ ([1])

ونجينا إبراهيم ولوط عليهما السلام بالهجرة إلى الأرض المباركة وهي أرض الشام، بورك فيها بكثرة الأنبياء وانزال الشرائع التي هي طريق السعادتين وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب العيش فيها للغني والفقير، وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ولوط عليه السلام بسدوم.([2])

ويقول تعالى موضحا هجرة إبراهيم عليه السلام في سبيل الله وقد هاجر إبراهيم إلى فلسطين ومن قبل إلى مكة البلد الحرام،ومن الذين صدقوا إبراهيم عليه السلام وتبعوا ملته لوط عليه السلام الذي هاجر معه حينما ترك إبراهيم عليه السلام قومه مهاجرا إلى الشام من أجل الدعوة إلى الله ونشر دينه في الأرض يقول تعالى في هذا المعنى: ﴿ فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾([3])

(ن) بناء البيت:

ذكر الله تعالى قصة العمل الجليل الذي كلف به إبراهيم عليه السلام بإعادة بناء الكعبة وتطهيرها لتكون مثابة للناس وأمنا في عدة مواضع من كتابه العزيز نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسمعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود* وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا ءامنا

([1]) سورة الأنبياء ، آية ٧١ .

([2]) محاسن التأويل للقاسمي ، ٢٧٠/١١ .

([3]) سورة العنكبوت ، آية ٢٦ .

وارزق أهله من الثمرات من ءامن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير * وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (١)

واذكر يا محمد حين جعلنا الكعبة مرجعا للناس يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه ومجمعا لهم في الحج والعمرة والطواف والصلاة وأمنا لهم ، لا يغير عليهم عدو فيه وقلنا: اتخذوا من مقام إبراهيم مكانا للصلاة فيه، وهو الحجر الذي وقف عليه إبراهيم عند بنائه الكعبة وأوحينا إلى إبراهيم وابنه اسماعيل :أن طهرا بيتي من كل رجس ودنس،صيانة للمتعبدين فيه بالطواف حول الكعبة أو الإعتكاف في المسجد والصلاة فيه، واذكر يا محمد حين قال إبراهيم داعيا رب اجعل مكة بلدا آمنا من الخوف وارزق أهله من أنواع الثمرات وخص بالرزق من آمن بالله واليوم الآخر قال الله : ومن كفر منهم فارزقه في الدنيا وامتعه متاعا قليلا، ثم ألجئه مرغما إلى عذاب النار وبئس المرجع والمقام هذا المصير،واذكر يا محمد حين رفع إبراهيم وإسماعيل أسس الكعبة وهما يدعوان الله في خشوع: ربنا تقبل منا صالح أعمالنا ودعاءنا أنك أنت السميع لأقوال عبادك العليم بأحوالهم.(٢)

ويقول تعالى في سورة الحج:﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ (٣)

واذكر إذ دعينا إبراهيم وجعلنا له البيت مباءة مكانا لعبادة الله وحده لا يشرك به شيئا ﴿ وطهر بيتي﴾ من الأصنام والأوثان والأقذار لمن يطوف به ويقيم

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٢٥-١٢٧ .

(٢) التفسير الميسر ص ١٩ .

(٣) سورة الحج ، آية ٢٦ .

ويصلي فيه والقائمين بكثرة الصلاة بالإشارة إلى ذلك بقوله ﴿الركع السجود﴾ أي الذين يركعون كثيرا ويسجدون كثيرا.[1]

(ك) المبادرة بامتثال أمر الله بذبح ابنه إسماعيل:

وقد جاء هذا الأمر واضحا بكل معانيه في آيات سورة الصافات: ﴿فبشرناه بغلام حليم* فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين* فلما أسلما وتله للجبين* وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرءيا إنا كذلك نجزي المحسنين* إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ [2]

يقول ابن كثير رحمه في تفسير هذه الآيات:" ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به إبراهيم وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وقد كان إبراهيم عليه، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد "فاران" وينظر في أمرهما وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، واعلم ابنه بأنه رأى في المنام أنه يذبحه ليكون أهون عليه ، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ أي امض لما أمرك الله به من ذبحي ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ أي سأصبر واحتسب ذلك عند الله عز وجل وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد ، ﴿ فلما أسلما وتله للجبين﴾ أكبه على وجهه ، فلما تشهد وذكروا الله تعالى ، إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت،مسلمين ومنقادين لأمر الله لأن رؤيا الأنبياء وحي من الله ، فصرع إبراهيم ابنه إسماعيل على وجهه

---

[1] انظر تفسير محاسن التأويل للقاسمي ، ج١٢ / ١٨ .

[2] سورة الصافات من الآية ١٠١-١٠٦ .

عند ذبحه ليكون أهون عليه ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ﴿ وفديناه بذبح عظيم﴾ خرج عليه كبش من الجنة، وحصل المقصود من رؤيا إبراهيم من اضجاع ولده للذبح ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ هكذا نصرف عن من اطاعنا المكاره والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، وقد اختلف علماء السلف فيمن هو الذبيح إسماعيل أم إسحاق والصحيح المقطوع به هو أن الذبيح الذي ذكره الله في كتابه العزيز هو إسماعيل عليه السلام قاله ابن عباس "([1])

والحقيقة التي لابد أن نؤكد عليها في هذا المقام هو أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وليس كما يدعي اليهود في كتبهم أنه هو إسحاق عليه السلام وللأسف فإن بعض الكتاب المسلمين انجروا وراء القصص الإسرائيلية في مسألة الذبيح واختلفوا في من يكون الذبيح ؟ ولكن الحقيقة التي تؤيدها الشواهد والأدلة والفهم الصحيح للآيات القرآنية التي أستند إليها أصحاب التفسير بالأثر التي تؤكد أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

([1]) باختصار من تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ج٧ ، ص ٢٧-٣٥ .

المحاضرة الخامسة

منهج القرآن الكريم في اثبات عقيدة البعث:

سلك القرآن الكريم مسالك عدة في اثبات عقيدة البعث بعد الموت تجمع بين الجوانب الفطرية والعقلية والحسية:-

المسلك الأول:

الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى:

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الحج:

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا إنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة ءاتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾(١)

يقول سيد قطب: أم إن الناس في ريب من البعث ؟ وفي شك من زلزلة الساعة ؟ إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف نشأة الحياة ولينظروا في أنفسهم وفي الأرض من حولهم حيث تنطق الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور، ولكنهم هم الذين يمرون على الدلائل في أنفسهم وفي الأرض غافلين ، إن البعث إعادة الحياة كانت فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة وإن لم يكن بالقياس إلى قدرة الله شيء أيسر ولا شيء أصعب فالبدء كالإعادة ، ولكن القرآن يأخذ

---

(١) سورة الحج من الآية ٥-٧ .

البشر بمقاييسهم ومنطقهم وإداركهم فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم وهو يقع لهم في كل لحظة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾الإنسان من ترابها نشأ ومن ترابها تكون ومن ترابها عاش ، ثم يبقى بعد ذلك سحر تحول النطفة إلى علقة وتحول العلقة إلى مضغة وتحول المضغة إلى إنسان، ومن العلقة إلى المضغة ، ثم تخلق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمي يكس باللحم أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكون مقدرا لها التمام ﴿ ليبين لكم﴾ دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح في المضغة ، فما شاء الله أن يتم تمامه أمره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع ﴿ثم نخرجكم طفلا ﴾ بعد تسعة أشهر ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ فستوفوا نموكم العضلي، ونموكم العقلي ونموكم النفسي وكم بين الوليد والإنسان الشديد من مسافات في المميزات ولكنها تتم بيد القدرة المبدعة التي أودعت الطفل الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي وأما من يرد إلى أرذل العمر فيعد العلم والرشد والوعي إذ هو يرتد طفلا في تقديره وتدبيره ﴿ لكي لا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ ولكي يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذي ربما تخايل به وتطاول وجادل في الله وصفاته بالباطل ، ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والأحياء في الأرض والنبات بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء في الإنسان ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ والهمود درجة بين الحياة والموت ، وهكذا تكون الأرض قبل الماء وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء فإذا نزل عليها الماء ﴿ اهتزت وربت ﴾ فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تشرب الماء فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات ﴿ من كل زوج بهيج ﴾ وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون وتنتفض بعد الهمود، إنها لدليل على وحدة عنصر الحياة وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والنبات

والحيوان والإنسان ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ إن خلق الإنسان والنبات ذلك متعلق بأن الله هو الحق ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ فإحياء الموتى هو إعادة الحياة والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشأها للمرة الآخرة ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء فهذا البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير ، فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تقدير الإنسان في الدار الآخرة وتشهد كلها على قدرة الله الخالق المدبر .([1])

ويقول تعالى في سورة يس : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقنه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم * قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ .([2])

هذه الآية ﴿ أولم ير الإنسان ﴾ مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهد خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البدائية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردها كما كانت ، والإنسان المذكور في الآية المراد به جنس الإنسان ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ إذا هنا فجائية الم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء ففجاء خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه والخصيم الشديد الخصومة الكثير الجدال، ومعنى المبين المظهر لما يقوله الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه ﴿ قال من يحيى العظام وهي رميم ﴾ هذا الاستفهام

([1]) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب ، ج٤ ، ص ٢٤٠٨ وما بعدها .

([2]) سورة يس من الآية ٧٧-٧٩ .

للإنكار لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد فأنكر أن الله يحيى العظام وهي رميم، العظام البالية حيث لم يكن في مقدور البشر ﴿ قل يحيها الذي أنشأها أول مرة ﴾ أي ابتدأها وخلقها أول مرة من غير شيء ومن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه خافية ولا يخرج عن علمه خارج كائنا ما كان وهو القادر على البعث بعد الممات.([1])

ويقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وقالوا ءاذا كنا عظما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا * قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ﴾ ([2])

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات:" ﴿أئنا﴾ استفهام والمراد به الجحد والإنكار ﴿خلقا﴾ يعني بعثا جديدا وكان هذا غاية الإنكار منهم ، قوله تعالى:﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا﴾ أي قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديدا إن قدرتم، ومعناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم ، ومعناه أيضا لو كنتم أيضا لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم ولأماتكم ثم أحياكم ﴿أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾ يعني السموات والأرض والجبال لعظمها في النفوس وقال ابن عباس يعني الموت لأنه ليس شيء أكبر في نفس ابن آدم منه، فالقادر على النشأة قادر على الإعادة ﴿فسينغضون إليك رؤسهم﴾ يحركون رؤوسهم استغراب متعجبين من ذلك ﴿ ويقولون متى هو﴾ أي البعث والإعادة وهذا الوقت ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾ أي هو قريب لأن عسى

([1]) فتح القدير لمحمد بن علي بن الشوكاني ، طباعة دار الحديث ، مصر ط ١٤١٣هـ-١٩٩٣م ، ج٤ ص ٥٣٧ .

([2]) سورة الإسراء من الآية ٤٩-٥١ .

واجب نظيره ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ فالساعة آتية وكل آت قريب([1])

ويقول تعالى في سورة مريم : ﴿ أءذا ما مت لسوف أخرج حيا * أولا يذكر الإنسان أنا خلقنه من قبل ولم يك شيئا ﴾ ([2])

أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه وهو يعترض على البعث وهو غافل عن نشأته الأولى فأين كان ؟ وكيف كان ؟ إنه لم يكن ثم كان والبعث أقرب إلى التصور من النشأة الأولى لو أنه تذكر ﴿إنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ ثم يعقب على هذا الإنكار والاستنكار بقسم تهديدي ، يقسم الله تعالى بنفسه وهو أعظم قسم وأجله، إنهم سيحشرون بعد البعث فهذا أمر مفروغ منه.([3])

إن الله تعالى يخلق الناس أولا ثم يعيدهم بعد الموت والإعادة أهون وأيسر لأنه يقول له يوم القيامة كن فيكون وابتداء الخلقه من نطفة، ثم من علقة ثم من مضغة وله المثل الأعلى فهو ليس كمثله شيء ونجد هذه المعاني واضحة في قوله تعالى:﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾([4])

المسلك الثاني:

الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيها:

" إن السموات والأرض شاهد بعظمتها على قدرة الله الخالق المبدع لذا نجد أن الله تعالى يقسم بهما في كثير من آياته استدلال بهما على قدرته ووجوده ووحدانيته

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١٠ ، ص ٢٣٩ .

([2]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج١٠ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

([3]) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج٤ ، ص ٢٣١٧ .

([4]) سورة الروم الآية ٢٧ .

وسائر صفات كماله سبحانه وتعالى الخالق المبدع، وهي على عظمتها في الخلق دليل واضح على قدرة الله على البعث والنشور يقول الله تعالى:﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بأياتنا وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا * أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا ﴾ (١)

قوله ﴿ ذلك جزآؤهم بأنهم كفروا بأياتنا ﴾ أن ذلك العذاب جزاء كفرهم ﴿وقالوا أءذا كنا عظما ورفتا ﴾ أي ترابا ﴿أءنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم والأجل مدة قيامهم في الدنيا ثم موتهم وذلك مما لا شك فيه إذ هو مشاهد وقيل هو يوم القيامة ﴿فأبى الظلمون إلا كفورا﴾ أي المشركون إلا جحودا بذلك الأجل وبآيات الله وذلك الأجل هو وقت البعث لا ينبغي أن يشك فيه.(٢)

ويقول تعالى في سورة يس :﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلق العليم ﴾ (٣)

معنى الآية أن من قدر على خلق السموات والأرض وهما في غاية العظم وكبر الأجزاء يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة، بلى هو القادر على ذلك وهو القوي في الخلق والعلم على أكمل وجه وأتمه ، ثم

---

(١) سورة الإسراء ٩٨ -٩٩ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج١٠ ، ص٢٩١ .

(٣) سورة يس ، آية ٨ .

ذكر سبحانه ما يدل على كماله وكمال قدرته وتيسر المبدأ والإعادة عليه سبحانه العليم بكل شيء والقادر على فعل كل شيء.([1])

ويقول تعالى في سورة الأحقاف :﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾([2])

لقد اغفلوا ولم يعلموا أن الله الذي خلق السموات والأرض على غير مثال سابق ولم يعجز عن خلقهن قادر على إحياء الموتى الذين خلقهم أولا،بلى ذلك أمر يسير على الله تعالى الذي لا يعجزه شيء إنه على كل شيء قدير.([3])

إن الآيات المتقدمة تدل دلالة واضحة على قدرة الله سبحانه وتعالى الذي خلق السموات والأرض ، قادر على بعث الموتى للحساب

المسلك الثالث:

الاستدلال بخروج النبات من الأرض:

إن الله تعالى هو الذي يرسل الرياح الطيبة اللينة مبشرات بالغيث الذي يثمر بإذن الله، فيستبشر الخلق برحمة الله ، حتى إذا حملت الريح السحاب المحمل بالمطر ساقه الله بها لإحياء بلد قد أجدبت أرضه، ويبست أشجاره وزرعه ، فأنزل الله به المطر، فأخرج به الكلأ والأشجار والزروع ، فعادت أشجاره محملة بأنواع الثمرات، كما يحيى الله هذا البلد الميت بالمطر يخرج الموتى من قبورهم أحياء بعد فنائهم، ليتعظ الناس فيوحدوا الله تعالى ويؤمنوا بقدرته على البعث قال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا

([1]) راجع فتح القدير للشوكاني ، ج٤ ، ص ٥٣٩ .

([2]) سورة الأحقاف آية ٣٣ .

([3]) التفسير الميسر ، ص ٥٠٦ .

سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ ([1])

ويقول تعالى في سورة فاطر: ﴿ والله الذي أرسل الريح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾([2])

والله هو الذي أرسل الرياح فتحرك سحابا ، فسقناه إلى بلد جدب ، فينزل الماء فأحيينا به الأرض بعد يبسها فتخضر بالنبات مثل ذلك الإحياء يحيى الله الموتى يوم القيامة.([3])

ومن آيات الله سبحانه وتعالى على قدرته على إعادة الموتى أنك ترى الأرض هامدة لا نبات فيها بل هي ميتة فإذا أنزل الله عليها الماء أخرجت من جميل أنواع الزروع والثمار فالله الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى الموتى من قبورهم لأن الله على كل شيء قدير فلا يعجزه شيء أبدا.([4])

يقول تعالى في هذا المعنى: ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ ([5])

([1]) سورة الأعراف ، آية ٥٧ .

([2])سورة فاطر الآية ٩ .

([3]) انظر التفسير الميسر ، ص ٤٣٥ .

([4]) بتصرف من تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ، ج٧ ، ص ١٨٢ .

([5]) سورة فصلت ، آية ٣٩ .

المسلك الرابع:

الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت:

هنالك أمثلة متعددة في القرآن الكريم تعتبر نماذج في أن الله تعالى أمـــات بعض الناس في الدنيا ثم أحياهم ليعتبروا ويؤمنوا بالبعث بعد الموت ومن ذلك :

(أ)صاحب القرية:

قال تعالى :﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنـــى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثـت يـوم أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلـــى حمارك ولنجعلك ءاية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلمـــا تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾([1])

مثل الذي مر على قرية تهدمت دورها وخوت على عروشها فقـــال كيـف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم رد إليه روحه وبعث إليـــه من يسأله فقال له : كم بقيت في هذا المكان ميتا ؟ قال : بقيت يوما أو بعض يـــوم، فأخبره بأنه بقي ميتا مائة عام، وأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه وكيف حفظـــهما الله من التغير هذه المدة الطويلة، وأمره أن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله بعـــد أن كان عظاما متفرقة ؟ وقال له: ولنجعلك آية للناس ، أي دلالة ظاهرة على قـدرة الله على البعث بعد الموت ، وأمره أن ينظر إلى العظام كيف يرفع الله بعضـــها علـــى بعض ؟ ويصل بعضها ببعض، ثم يكسوها بعد الالتئام لحما، ثم يعيد فيها الحيـــاة ؟ فلما اتضح له ذلك عيانا اعترف بعظمة الله ، وأنه على كل شيء قدير وصار آيـــة للناس.([2])

([1]) سورة البقرة ، آية ٢٥٩ .

([2]) التفسير الميسر ص ٤٣ .

ولم يسمي الله صاحب القرية ولا القرية التي مر عليها وهي خاوية على عروشها حينما تساءل كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها، لحكمة يعلمها الحق تبارك وتعالى وفي هذا الأمر يعلق صاحب الظلال بقوله: "إن القرآن لم يفصح عنها شيئا ولو شاء الله لأفصح ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن"([1])

(ب) إحياء الطيور لإبراهيم عليه السلام:

قال تعالى :﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم أجعل على كل جبل منهن جزءا ثم أدعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾([2])

إنه التشوق إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية وحين يجيء هذا التشوق من إبراهيم الأواه الحليم المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل فإنه يكشف عما يختلج أحيانا من التشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين لقد كان ينشد إطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ لقد أمره الله أن يختار أربعة فيقربهن منه ويميلهن إليه وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن ، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة ثم يدعوهن فتتجمع اجزاؤهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات، رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه طيور فارقتها الحياة، وتفرقت مزقها في أماكن متباعدة تدب فيها الحياة مرة أخرى وتعود إليه سعيا إنه علم الله العزيز الحكيم.([3])

([1]) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج١ ، ص٢٩٩ .

([2]) سورة البقرة ، آية ٢٦٠ .

([3]) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج١ ، ص ٣٠٢ .

(ج)الملأ من بني إسرائيل:

لقد صحح القرآن التصور عن الموت والحياة، فإن الحذر من الموت لا يجدي، وإن الفزع والهلع لا يزيدان الحياة ، ولا يمدان أجلا ولا يردان قضاء وإن الله هو واهب الحياة وهو آخذ الحياة، إن تجمع أولئك القوم وهم ألوف وخروجهم من ديارهم حذر الموت كانت في تلك الحالة من الجزع والهلع فهذا كله لم يغني عنهم من الموت شيئا، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم مرة أخرى، إن الله وهبهم الحياة من غير جهد منهم في حين أن جهدهم لم يرد الموت عنهم، وفضل الله على الناس عظيم فمن فضله نعمة الحياة التي يجب شكر الله سبحانه وتعالى عليها يقول تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾([1])

(د)قوم موسى السبعون الذين أختارهم الله:

قال تعالى:﴿ وإذ قلتم يموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون* ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾([2])

واذكر إذ قلتم يا موسى : لن نصدقك في أن الكلام الذي تسمعه هو كلام الله، حتى نرى الله عيانا، فنزلت نار من السماء رأيتموها بأعينكم فقتلتكم بسبب ذنوبكم وجرأتكم على الله ، ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة، رجاء أن تشكروا نعمة الله عليكم، فهذا الموت عقوبة لهم، ثم بعثهم الله لاستيفاء أجالهم ،فالقصة دليل واضح على إثبات عقيدة البعث بعد الموت.([3])

([1]) سورة البقرة ،آية ٢٤٣ .

([2]) سورة البقرة ، آية ٥٥،٥٦ .

([3]) التفسير الميسر ، ص ٨ .

(هـ)القتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة:

إن قصة القتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة دليل على قدرة الخالق وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة، لقد كانوا قد قتلوا نفسا منهم ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه، ولم يكن هناك شاهد ، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته ، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح وهكذا كان فعادت إليه الحياة،ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله ، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين ، وهذا الأمر يسير في حساب القدرة الإلهية حتى يعقل الناس آيات الله ويدركونها طاعة واستجابة وتسليما ، لقد انتفض الميت مبعوثا ناطقا على ضربه من بعض جسد البقرة ، بكماء مذبوحة، ليس فيها من حياة ولا مادة حياة ، ليلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمه السياق الموضوعية في هذه القصة من قصص القرآن الكريم ([1]). ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارئتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون* فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم ءايته لعلكم تعقلون﴾([2])

المسلك الخامس:

الاستدلال بإخراج النار من الشجر الأخضر:

إن الله سبحانه وتعالى بقدرته أخرج لنا من الشجر الأخضر الرطب نارا محرقة وفي هذا دليل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته ، ومن ذلك قدرته سبحانه إخراج الموتى من قبورهم أحياء ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾([3])

([1]) انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ،ج١ ، ص ٧٩ وما بعدها.

([2]) سورة البقرة ، آية ٧٢ ، ٧٣ .

([3]) سورة يس ، الآية ٨٠ .

يقول الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية :"هنا رجوع منه سبحانه وتعالى إلى تقرير ما تقدم من دفع استعبادهم، فيدل سبحانه وتعالى على وحدانيته ويدل سبحانه على قدرته على أحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب، وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والمعروف بالعفار إذا قطع منها عودان وضرب أحدهما بالآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾ تقدحون منه النار وتوقدونها من ذلك الشجر الأخضر﴾([1])

المسلك السادس:

الاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم:

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأنعام ﴿وهو الذي يتوفكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون* وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون* ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾([2])

وهو سبحانه الذي يقبض أرواحكم بالليل بما يشبه قبضها عند الموت ويعلم ما اكتسبتم في النهار من الأعمال ثم يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة من النوم نهارا بما يشبه الإحياء بعد الموت لتقضى أجالكم المحددة في الدنيا ثم إلى الله تعالى معادكم بعد بعثكم من قبوركم أحياء، ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا ثم يجازيكم بذلك، والله تعالى هو القاهر فوق عباده فوقية مطلقة من كل وجه تليق بجلاله سبحانه وتعالى ، كل شيء خاضع لجلاله وعظمته ويرسل على عباده ملائكة يحفظون أعمالهم ويحصونها حتى إذا نزل الموت بأحدهم قبض روحه ملك

([1]) فتح القدير للشوكاني ، ج٤ ،ص ٥٣٩ .

([2]) سورة الأنعام من الآية ٦٠-٦٢ .

الموت وأعوانه ، وهم لا يضيعون ما أمروا به ، ثم أعيد هؤلاء المتوفون إلى الله تعالى مولاهم الحق ألا له القضاء والفصل يوم القيامة بين عباده وهو أسرع الحاسبين.([1])

ويقول تعالى في سورة الزمر مبينا أيضا العلاقة والشبه والتقارب بين النوم والموت بقوله سبحانه:﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ ([2])

في الآية دلالة على أن الأنفس تجمع في الملأ الأعلى ، فيقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وإحياء الأرواح إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله لها أن تتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت﴾ التي قد ماتت ويرسل الآخرى يتركها إلى أجل مسمى إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس : يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء وفي هذا آيات دالة على قدرة الله على البعث لمن أعمل النظر وتفكر في آيات الله سبحانه وتعالى.([3])

المسلك السابع:

الاستدلال بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء:

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأوجده على ظهر البسيطة وأغدق عليه من النعم ما لا تحصى لأداء وظيفة العبادة لله سبحانه وتعالى فلم يخلق الله الإنسان عبثا ، ولو لم تكن هنالك دار آخرة يحاسب الإنسان على ما عمل فيها في الدنيا لأنتفت الحكمة من تكليف الإنسان بالعبادة، لذا فإن الله تعالى لم يخلقنا عبثا ولن

([1]) التفسير الميسر ص ١٣٥ .

([2]) سورة الزمر آية ٤٢ .

([3]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٧، ص١٠٢ .

يتركنا سدى كما يعتقد منكروا البعث ومتبعوا الهوى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾[1]

فلن يترك الإنسان هملا لا يؤمر ولا ينهى ولا يحاسب ولا يعاقب .

ويقول تعالى :﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾

يقول الشيخ القاسمي في تفسير هذه الآية: "أفحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة حتى انكرتم البعث ﴿ وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ للجزاء ﴿ فتعالى الله ﴾ أي تعاظم عما تصفون لأنه ﴿ الملك الحق ﴾ المتصرف وحده الذي قصد بالخلق معرفته وعبادته والذي لا يترك الجزاء بل يحق الحق "[2]

إن النظرة المادية للحياة تجعل تفكير الإنسان مقصوراً في تحصيل ملذاته العاجلة ويكون عمله محصورا في نطاق ذلك فلا يتجاوز تفكيره ما وراء ذلك من العواقب ولا يعمل له ولا يهتم بشأنه ولا يعلم أن الله جعل هذه الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، فجعل الدنيا دار عمل وجعل الاخرة دار جزاء، فمن استغل دنياه بالعمل الصالح ربح الدارين ومن ضيع دنياه ضاعت آخرته، فالله لم يخلق هذه الدنيا عبثا بل خلقها لحكمة عظيمة، أوجد الله سبحانه في هذه الحياة من المتع العاجلة والزينة الظاهرة من الأموال والأولاد والجاه والسلطان وسائر المستلذات ما لا يعلمه إلا الله ، فمن الناس وهم الكثر من قصر نظره على ظاهرها ومفاتنها ومتع نفسه بها ولم يتأمل في سرها، فانشغل بتحصيلها وجمعها والتمتع بها عن العمل لما بعدها بل أنكر أن تكون هناك حياة غيرها فهي نظرة بهيمية لأن البهائم ليس لها مصير ينتظرها وليس لها عقول تفكر بها بخلاف أولئك اصحاب النظرة المادية وإن كانوا أهل خبرة في المخترعات والصناعات فهم جهال لا يستحقون أن يوصفوا بالعلم

([1]) سورة القيامة ، آية ٣٦ .

([2]) سورة المؤمنون ، آية ١١٥ .

لأن علمهم لم يتجاوز ظاهر الحياة الدنيا ، لكن النظرة الصحيحة للحياة الدنيا هي أن يعتبر الإنسان ما في هذه الحياة الدنيا من مظاهر مادية وسيلة يستعان بها لعمل الاخرة، فالدنيا لا تذم لذاتها إنما الذم والمدح إلى فعل العبد فيها، فهي معبر للآخرة وهي زاد الجنة فهي دار الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله والتسابق للخيرات للفوز برضوان الله في الآخرة"٠([1])

([1]) انظر كتاب التوحيد للدكتور صالح بن فوزان الفوزان ، ط مكتبة الأثير الرياض ص٤٦ ٠

المحاضرة السادسة

مكائد الشيطان وطرق الحذر منها كما عرضها القرآن الكريم

المبحث الأول:

مكائد الشيطان:

للشيطان أعاذنا الله منه مكائد كثيرة وطرق عديدة في إغواء الإنسان عن جادة الطريق المستقيم، فهو يزين الباطل، ويصوره بغير صورته الحقيقية، ويوعد الإنسان ويمنيه، ويظهر النصح له وهو يهدف لإضلاله ، وينسى الإنسان عن فعل الخير والصلاح، ويحاول تخويف المؤمن من أوليائه، ويلقي الشبهات، ويتخذ من الخمر والميسر والسحر طرقا ينفذ من خلالها في تدمير الإنسان عدوه الأول وفي تدمير الإنسانية بأسرها ، كل تلك الطرق والمكائد الشيطانية تناولها القرآن الكريم في آيات متفرقة ومواضع متعددة من سوره العديدة.

المكيدة الأولى:

تزيين الباطل:

قال تعالى في سورة الحجر: ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المخلصين﴾([1])

قال إبليس : رب بسبب ما أغويتني وأضللتني لأحسنن لذرية آدم معاصيك في الأرض ولأضلنهم أجمعين عن طريق الهدى، إلا عبادك الذين هديتهم فأخلصوا لك العبادة وحدك دون سائر خلقك فسأزين لهم الباطل حتى يقعوا فيه.([2])

ويقول تعالى: ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾([3])

([1]) سورة الحجر ، آية ٣٩ ، ٤٠ .

([2]) التفسير الميسر نخبة من العلماء ، ص ٢٦٤ .

([3]) سورة الزخرف ، آية ٣٧ .

يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية:"وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله عن سبيل الحق فيزينون لهم الضلالة ويكرهون إليهم الإيمان بالله والعمل بطاعته ويحسبون أنهم مهتدون ، يقول ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة أنهم على الحق والصواب مع ما هم عليه من الشرك والشك وعلى غير بصيرة"([1])

المكيدة الثانية:

تسمية الأمور بغير إسمها:

"لقد كان أغواء الشيطان لأبو البشر آدم وزوجه أم البشر حواء عن طريق الوسوسة وتصوير الشيء بغير صورته لإيقاعهما في معصية الله تعالى،بالأكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله عنها، لتكون عاقبتهما إنكشاف ما ستر من عوراتهما وقال لهما في محاولة المكر والكيد وتسمية الشيء بغير اسمه : إنما نهاكما ربكما عن الأكل من ثمر هذه الشجرة من أجل ألا تكونا ملكين، ومن أجل ألا تكونا من الخالدين في الحياة فهو صور لهما النهي بغير صورته الحقيقية كما سماه الشيطان بغير اسمه الذي سماه الله به وفي هذا المعنى يقول الحق تبارك وتعالى :﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوءتهما وقال ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾([2])

ويقول عز من قائل في سورة طه:﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾([3]).

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج٢٥ ، ص٤٤ .

([2]) سورة الأعراف ، آية ٢٠ .

([3]) سورة طه آية ١٢٠ .

فوسوس الشيطان لآدم وقال له: هل أدلك على شجرة، إن أكلت منها خلدت فلم تمت، وملكت ملكا لا ينقضي ولا ينقطع؟ فأكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عنها، وخالف آدم ربه فغوى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الإقتراب منها.([1])

والشجرة رمز لكل أمر حرام حرمه الله تعالى على عباده حتى لا يقعوا فيه، فالشيطان في عصرنا الحاضر يصور لنا الحرام بغير صورته الحقيقية ومعه شياطين الإنس، يسمون الخمر بغير إسمها مشروبات روحية، ويسمون الفاحشة الكبرى الزنا وتوابعها بغير اسمها ترويح عن النفس ،ويسمون المضيفات العاريات في شركات الخطوط الجوية بغير اسمها بالملاك الطاهر مع العلم بأنها تسافر من غير محرم ليالي عديدة وتبيت حيث نعلم ولا نعلم، ويسمون الميسر والقمار بغير اسمه يانصيب وجرب حظك يمكن تكسب! ويسمون الكذب والخداع والغش بغير اسمه سياسة، ويسمون الربا بغير اسمه فوائد ومنفعة، إنها جميعا وسائل الشيطان ومكائده أعاذنا الله منها.

المكيدة الثالثة:

الوعد والتمنية :

يعد الشيطان اتباعه بالوعود الكاذبة ، ويغريهم بالأماني الباطلة الخادعة، وما يعدهم إلا خديعة لا صحة فيها ولا دليل عليها فيوقعهم بهذه المكيدة في الضلال والشقاء المبين يقول تعالى في هذا المعنى مبينا هذه الوسيلة والطريقة الشيطانية في إغواء البشر: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾([2])

([1]) التفسير الميسر ، ص ٣٢٠ .

([2]) سورة النساء ، آية ١٢٠ .

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾([1])

حسن الشيطان للمشركين ما جاؤوا له وهموا به، وقال لهم :لن يغلبكم أحد اليوم، وإني ناصركم، فلما تقاتل الفريقان: المشركون ومعهم الشيطان والمسلمون ومعهم الملائكة ، رجع الشيطان مدبرا بعد أن مناهم ووعدهم بالنصر ، وقال للمشركين إني برئ منكم، إني أرى ما لا ترون من الملائكة الذين جاؤوا مددا للمسلمين إني أخاف الله فخذلهم وتبرأ منهم بعد أن ساقهم إلى حتفهم ومصيرهم المشئوم من القتل والأسر، وأبان لهم أن الله شديد العقاب لمن عصاه وعاداه وحاربه، فكانت وعود الشيطان لهم كاذبة وأمانيه لهم باطلة.([2])

المكيدة الرابعة:

إظهار النصح للإنسان :

لقد أقسم الشيطان من قبل لآدام وحواء أنه ناصح أمين لهم في مشورته عليهما بالأكل من الشجرة مع أنه كاذب مضلل، وفي كثير من الأحيان يظهر الشيطان للإنسان هذه المكيدة ويأتيه عن طريق فعل الخير ليحرمه من حصول الخير له أصلا وهذه من طرق الشيطان الخبيثة التي أوقع بها كثيرا من الناس في الضلال المبين يقول تعالى :﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾([3])

([1]) سورة الأنفال ، آية ٤٨ .

([2]) انظر التفسير الميسر ، ص١٨٣ .

([3]) سورة الأعراف , آية ٢١ .

ويقول تعالى في سورة الحشر في ذات المعنى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريئ منك إني أخاف الله رب العالمين﴾([1])

يقول ابن كثير رحمه الله : "كمثل الشيطان إذ سول للإنسان والعياذ بالله الكفر فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل بقوله ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ فكانت عاقبة الأمر والكفر والفاعل له والمصير إلى جهنم وهذا جزاء كل من ظلم نفسه"([2])

وقد نزلت هذه الآيات في المنافقين الذين اغروا اليهود على القتال ووعدوهم بالنصر على رسول الله ﷺ ، كمثل الشيطان حين زين للإنسان الكفر ودعاه إليه فلما كفر قال :إني بريئ منك إني أخاف الله رب الخلق أجمعين.

المكيدة الخامسة:

إنساؤه للإنسان الخير والصلاح:

وجه الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أنه إذا وجد المشركين يتكلمون في آيات الله بالباطل ويستهزؤن بالقرآن أن يبتعد عنهم حتى يأخذوا في حديث آخر وإن أنساه الشيطان هذا الأمر فعليه ألا يقعد بعد أن يتذكر هذا النهي مع القوم المعتدين الذين تكلموا في آيات الله بالباطل وفي هذا يقول تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في ءايتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾([3])

([1])سورة الحشر ، آية ١٦ .

([2]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير طبعة دار طيبة السعودية ، ج٨ ، ص ٧٦ .

([3]) سورةالأنعام ، آية ٦٨ .

ويقول تعالى في سورة يوسف: ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾([1])

وقال يوسف للذي علم أنه ناج من صاحبيه: اذكرني عند سيدك الملك وأخبره بأني مظلوم محبوس بلا ذنب ، فأنسى الشيطان ذلك الرجل حال يوسف ، فمكث يوسف بعد ذلك في السجن عدة سنوات.([2])

ويقول تعالى في سورة الكهف: ﴿ قال ءارأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسنيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا﴾ ([3])

قال له خادمه: اتذكر حين لجأنا إلى الصخرة التي استرحنا عندها؟ فإني نسيت أن أخبرك ما كان من الحوت، وما أنساني أن أذكر ذلك لك إلا الشيطان ، فإن الحوت الميت دبت فيه الحياة ، وقفز في البحر،واتخذ له فيه طريقا وكان أمره مما يعجب منه.([4])

وجاء في سورة المجادلة حول هذه المكيدة الشيطانية النسيان:﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾([5])

([1]) سورة يوسف ، آية ٤٢ .

([2])التفسير الميسر ، ص ٢٤٠ .

([3])سورة الكهف ،آية ٦٣ .

([4]) التفسير الميسر ، ص ٣٠ .

([5]) سورة المجادلة ،آية ١٩ .

استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه﴿أولئك حزب الشيطان﴾ الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله فأصبحوا خاسرين([1])

لقد غلب عليهم الشيطان واستولى عليهم حتى تركوا أوامر الله والعمل بطاعته فمكيدة الشيطان وهي إنساؤهم عمل الخير وفعل الطاعات ، جعلتهم يخسرون الدنيا والآخرة.

المكيدة السادسة:

تخويف المؤمنين من أوليائه:

يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ ([2])

من مكائد الشيطان التخويف وتثبيط الهمم فيأتي دائما للمؤمنين عند ملاقاة أعدائهم ليخوفهم من الأعداء اليهود والنصارى والمشركين بأنهم أقوياء ويملكون أسلحة فتاكة وعتادا قويا لن تستطيعوا منازلتهم فخافوهم وابتعدوا عن طريقهم فأنتم أيها المؤمنون ضعاف ، ولكن في حقيقة الأمر فإن الضعاف هم حزب الشيطان أنه لا ناصر لهم ،فلذلك يجب على المؤمنين أن يخافوا الله بالإقبال على طاعته والقتال في سبيله إيمانا بالله وتصديقا واتباعا لرسوله محمد ﷺ فلا خوف إلا من الله القوي العزيز .

([1]) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣/٨

([2]) سورة آل عمران ، آية ١٧٥ .

المكيدة السابعة:

إلقاء الشبهات:

يقول تعالى في سورة الحج: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله أياته والله عليم حكيم* ليجعل ما يلقي الشيطن فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتو العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى صراط مستقيم ﴾([1])

وما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ كتاب الله ألقى الشيطان في قراءته الوساوس والشبهات ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه ويتلوه، لكن الله يبطل كيد الشيطان فيزيل وساوسه ويثبت آياته الواضحات والله عليم بما كان ويكون، لا تخفى عليه خافيه، حكيم في تقديره وأمره ، وما كان هذا الفعل من الشيطان إلا ليجعله اختبار للذين في قلوبهم شك ونفاق، ولقساة القلوب من المشركين الذين لا يؤثر فيهم زجر وإن الظالمين من هؤلاء وأولئك في عدواة شديدة لله ورسوله وخلاف للحق بعيداً عن الصواب، وليعلم أهل العلم الذين يفرقون بعلمهم بين الحق والباطل أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله عليك يا محمد لا شبهة فيه ، ولا سبيل للشيطان إليه، فيزداد به إيمانهم ، وتخضع له قلوبهم، وإن الله لهادي الذين آمنوا به وبرسوله إلى طريق الحق الواضح وهو الإسلام ينقذهم به من الضلال.([2])

([1]) سورة الحج من الآية ٥٢ – ٥٤ .

([2]) التفسير الميسر ص ٢٣٨ .

المكيدة الثامنة:

الخمر والميسر والسحر:

لقد اتبع اليهود ما تحدث به الشياطين السحرة على عهد ملك سليمان بن داؤود وما كفر سليمان ولكن الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علموا الناس السحر إفسادا لدينهم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت بأرض بابل في العراق امتحانا وابتلاء من الله لعباده،وما يعلم الملكان من أحد حتى ينصحاه ويحذراه من تعلم السحر ويقولا له :لا تكفر بتعلم السحر وطاعة الشياطين ، فيتعلم الناس من الملكين ما يحدثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا، ولا يستطيع السحرة أن يضروا به أحدا إلا بإذن الله وقضائه ، وما يتعلم السحرة إلا شرا يضرهم ولا ينفعهم، وقد نقلته الشياطين إلى اليهود فشاع فيهم حتى فضلوه على كتاب الله، ولقد علم اليهود أن من أختار السحر وترك الحق ماله في الآخرة من نصيب في الخير ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر عوضا عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كانوا لهم علم بما وعظوا به ([1])،فالسحر مكيدة قديمة من مكائد الشيطان التي يضل بها الناس عن سبيل الله وقد تفشت في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية هذه الظاهرة مما يجب على المسلمين محاربتها حتى ينجيهم الله تعالى من مكائد الشيطان يقول تعالى :﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هروات ومراوت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهم ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد

([1]) تفسير سورة البقرة: أضواء البيان للشنقيطي طباعة عالم الكتب بيروت ج ١ ص ٨٠ .

إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾(١)

وفي أمر الخمر والميسر يقول تعالى في سورة المائدة:﴿ يأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلم رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون* إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العدواة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلواة فهل أنتم منتهون ﴾(٢)

يخاطب الحق تبارك وتعالى الذين صدقوا بالله واتبعوا رسوله ويوضح لهم أن الخمر وهي كل مسكر يغطي العقل،والميسر وهو القمار وذلك يشمل المراهنات وما يشبهها من ألعاب الحظ وغيرها ، بما فيه عوض من الجانبين وصد عن ذكر الله، والأنصاب : وهي الحجارة التي كان المشركون يذبحون عندها تعظيما لها، وما ينصب للعبادة تقربا إليه،والأزلام : وهي القداح يستقسم بها الكفار قبل الإقدام على الشيء أو الاحجام عنه،إن ذلك كله إثم من تزيين الشيطان فيجب الابتعاد عن هذه الآثام لعلنا نفوز بجنة الله، لأن الشيطان يريد بهذه المكيدة ﴿الخمر والميسر﴾ أن يلقي بين الناس ما يوجب العدواة والبغضاء ، ويصرفهم عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة بغياب العقل بالمسكر ، وباللهو في الميسر ، فعلى الناس أن ينتهوا ويبتعدوا عن تعاطي الخمر وما شابهها من المخدرات وكافة أنواع المسكرات، وعن الميسر بكل أنواعه حتى لا نتبع الشيطان فنخسر الدنيا بالخمر والميسر والآخرة بالبعد عن رضوان الله والوقوع في النار وبئس المصير أعاذنا الله.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٢ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٩٠ – ٩١ .

المبحث الثاني:

طرق الحيطة والحذر من الشيطان:

هنالك طرق عديدة في اتقاء شر الشيطان أرشدنا الله إليها في كتابه العزيز ومن هذه الطرق التعوذ من الشيطان، والتمسك بالكتاب والسنة، واللجوء إلى الله والاحتماء به من شر الشيطان ونتناول إن شاء الله تعالى هذه الطرق من خلال الآيات التي تحدثت عنها حتى نلزم ما يجنبنا الشيطان والوقوع في مكائده وحيله.

أولا: الالتزام بالكتاب والسنة:

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ يأيها الذين ءامنوا كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين* إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(١).

ويقول :﴿ يأيها الذين ءامنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾(٢)

الأمر في الآية الأولى ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ للإباحة والحل لما في الأرض إلا المحظور القليل الذي ينص عليه القرآن نصا، وعلى الناس أن يعلموا الحلال والحرام من رازقهم لا من إيحاء الشيطان الذي لا يوحي بخير لأنه عدو للناس بين العدواة لا يأمره إلا بالسوء وبالفحشاء وإلا بالافتراء على الله، ولكي يتقى الناس الشيطان عليهم الالتزام بكتاب الله تعالى وما فيه من أمر ونهي واتباع سنة المصطفى ﷺ ، وفي الآية الأخيرة التي سقناها من سورة البقرة ﴿يأيها الذين ءامنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ يدعو المؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة، وأول التسليم هو أن يسلم المؤمن بكلياته لله رب العالمين،

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٨،١٦٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٨ .

وألا يخضع إلا لله، وأن يرضى بحكمه وقضاه، إستسلام طاعة مليئة بالأطمئنان الذي يقوده لرضوان الله وسعادة الدنيا والآخرة، وحذر الله المؤمنين أن يختاروا طريق الله ويتركوا طريق الشيطان، أن يتبعوا هدى الله، ويجتنبوا غواية الشيطان، إن عدواة الشيطان للإنسان واضحة بينة لا ينساها إلا غافل والغفلة لا تكون إلا مع اتباع الشيطان ، ومخالفة الشيطان لا تكون إلا باتباع منهاج الكتاب والسنة.([1])

ويقول تعالى في سورة الأنعام:﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾([2])

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية:"لقد نهى الله وأمر وحذر عن اتباع غير سبيله، وأمر باتباع طريقه ، والصراط الطريق الذي هو دين الإسلام مستقيما مستويا قويما لا إعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد ﷺ وشرعه ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار ، فتميل البدع والأهواء وهي سبل الشيطان التي يدعو إليها، فكل تلك السبل عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد"([3])

ومن هنا نعلم أن الالتزام بالكتاب والسنة من أهم طرق الحيطة والحذر بل هي الوقاية من الشيطان ومكائده.

ثانيا: اللجوء إلى الله والاحتماء به: يقول تعالى في سورة الأعراف:﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون* وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾([4])

([1]) بتصرف من ظلال القرآن ، لسيد قطب، ج١ ، ص٢١٠ .

([2]) سورة الأنعام ، آية ١٥٣ .

([3]) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ج٧ ، ص ١٢٤ .

([4]) سورة الأعراف من الآية ٢٠٠-٢٠٢ .

نزغ الشيطان وسواسه ومعنى ﴿ينزغنك﴾ يصيبنك ويعرض لك ﴿فاستعذ بالله ﴾ أي أطلب النجاة من ذلك بالله، فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالإلتجاء إليه ﴿إن الذين اتقوا ﴾ يريد الشرك والمعاصي ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان﴾ الطيف الغضب والجنون﴿تذكروا﴾ ذكروا الله تعالى ﴿فإذا هم مبصرون﴾ منتهون ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾ قيل المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضلال الإنس تمدهم الشياطين في الغي، وقيل للفجار إخوان الشياطين لأنهم يقبلون منهم ﴿الغي﴾ الجهل ، والمعنى يزيدنهم في الغي والضلال.([1])

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم* إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾([2])

هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم وهو أمر للندب لا للوجوب، حتى لا يلبس الشيطان على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر ولهذا ذهب الجمهور إلى أن التلاوة تسبقها الاستعاذة، والشيطان ليس له على المؤمنين سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، ولا حجة له عليهم، وإنما سلطانه على الذين يطيعونه.([3])

ثالثا: الاستعاذة بذكر الله من الشيطان:

إن أصل الشيطان مشتق من شطن أي تباعد ومنه بئر شطون أي بعيدة القعر، وعلى ذلك فالنون أصيلة،ويكون الشيطان قد سمي بهذا الاسم لأن الله طرده من رحمته كما أخبرنا الحق تبارك وتعالى ، أنه قال للشيطان عندما عصاه ورفض

([1]) باختصار من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ،ج٧، ص ٣٠٤ وما بعدها.

([2]) سورة النحل ، آية ٩٨ ، ٩٩ .

([3]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٤ ، ص٦٠٣ .

الانصياع لأمره ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ وقيل اشتقاقها من شاط يشيط إذا احترق غضبا، فالشيطان مخلوق من نار ولذلك اختص بفرط القوة العصبية والحمية الذميمة، الرجيم :أصل الرجم الرمي بالحجارة، ويستعار الرجم للرمي بالظن والتوهم والشتم ووصف الله الشيطان بالرجيم، لأنه طرده عن الخيرات، وعن منازل الملأ الأعلى كما طرده من رحمته وجنته .([1])

ومعنى ﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضيرني في ديني أو دنياي أو يصدني من فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نيهت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله.([2])

يقول تعالى في سورة المؤمنون:﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين* وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾

يأمر الله نبيه محمدا ﷺ أن يستجير بالله من إغواء الشياطين ووسوتها المغرية على الباطل والفساد والصد عن الحق واستجيرك بك يا رب من حضورهم في شيء من أموري ، والأمر إلى كل مسلم بالتبعية بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم أي من دمغاته وطاقاته ومواهبه الخبيثة الماكرة.([3])

ويقول تعالى في سورة فصلت:﴿ أدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عدواة كأنه ولي حميم * وما يلقها إلا الذين صبروا وما يلقها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ ([4])

([1]) راجع مفردات القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص١٩٠، ٢١٦ .

([2]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ص ٣٤٧ .

([3])التفسير الميسر ص ٣٤٧

([4]) سورة فصلت من الآية ٣٤-٣٦ .

قال ابن كثير بعد إيراده لهذه الآيات:"فهذه ثلاث آيات ليست لهن رابعة في معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ، ومن لطائف الاستعاذة أنها لطهارة الفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له، وهو لتلاوة كتاب الله، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على دفعه ومنعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصاحبة ولايداري بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه ، استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان"([1])

والمواضع التي يستعاذ فيها بالله من الشيطان كثيرة ومن ألزمها عند قراءة القرآن والصلاة ، لأن الشيطان إن لم يستطع منع العبد منها ويكفه عنهما ، فإنه يشغله بالوساوس التي تجعله لا يفقه من قراءته شيئا وقد يدخل عليه الشبهات التي تزلزل إيمانه ويقينه.([2])

ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى:" الشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن ، فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه، فإن المستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، مستجير به ، لاجئ إليه، مستغيث به من الشيطان، ويعرض للناس من الوساوس في الصلاة ما لا يعرض لهم إذا لم يصلوا ، لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربه، والتقرب إليه والاتصال به،

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج١ ، ص٢٥ ، ٢٨ .

([2]) مكائد الشيطان ومسائل من فقه الكتاب والسنة د.عمر سليمان الأشقر ، دار النفائس ، الأردن. ص١٠٠ .

فهذا يعرض للمصلين مالا يعرض لغيرهم، ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة، ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء"([1])

ومن شر الشيطان شر النفس ، يقول الشيخ أبي الهلال "فشر النفس نوعان: صفة وعمل، والعمل ينشأ عن الصفة والصفة تتأكد وتقوى بالعمل، فكل منهما يمد الآخر، ولما كان الشر له مصدر يبتدئ منه وغاية ينتهي إليها ، وكان مصدرها إما من نفس الإنسان وإما من الشيطان، وغايته أن يعود على صاحبه أو على أخيه المسلم"([2])

لذلك جاءت سورة الناس تتحدث عن التعوذ من شر وسواس الشيطان والنفس والتعوذ من شرار الناس يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه :"من شر الوسواس : إستعاذة من الوسواس الذي يعرض له والذي يعرض للناس بسببه ، فقد وقي ظلمهم وإن كان إنما يريد وسواسه وإن كان إنما يريد وسواسه(ما توسوس به نفسه) ما تحدث به نفسه ، والشيطان تارة يحدث وسواس الشر وتارة ينشئ الخير بما يشغله به من حديث النفس ﴿ما توسوس به نفسه﴾ بما ايشغله به من حديث النفس"([3])

([1]) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ، ج٧ ، ص ٢٨٢ ،٢٨٣ .

([2]) مناظرات مع الشيطان مناظرات أئمة السلف مع حزب إبليس ، أبي أسامة سليم بن عبيد الهلالي ،ط ابن الجذري ١٤١٤، ص٢٣٤ .

([3]) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية الجزء الثاني مكتبة محمد علي صبيح ، مصر ، ص ٢٠٨ .

وبهذا نكون قد عرفنا مكائد الشيطان وطرق الحيطة والحذر كما جاءت فـــي القرآن الكريم أعاذنا الله منه ومن شره٠

المحاضرة السابعة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم

إن واجب الدعوة لدين الله الحق يتطلب من المسلمين أن يأتمروا فيما بينهم بالمعروف وأن يتناهوا عن المنكر وقد جعل الإسلام ذلك فرضا من فروض الدين، وعنصرا من عناصر الحياة الطيبة ، وأقسم الله تعالى بالعصر أن الإنسان لفي خسر لا يسلم من الخسران في هذه الحياة إلا إذا ضم إلى إيمانه وعمله الصالح التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر، وهما عماد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قص علينا القرآن مصير الأولين الذين انحطت فيما بينهم الفضيلة ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقص علينا مصير الأولين الذين انحطت فيما بينهم الفضيلة وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى تركز البغي فيما بينهم، واستشرى الفساد في جميع شئونهم.

وقد تلقى المسلمون الأولون هذا المبدأ العظيم، وعرفوا به مسؤليتهم عن الناس، ومسؤولية بعضهم عن بعض، فدعوا غيرهم إلى الحق، وقاموا فيما بينهم بالنصح والإرشاد، وتقبل المنصوحون من الناصحيين شاكرة ألسنتهم، مطمئنة قلوبهم، فاستقامت لهم الشئون، وتقدمت بهم الحياة، وكانوا أقوياء أعزاء، يملون ولا يملى عليهم، ويقولون ويفعلون ما يقولون، وظلوا كذلك حتى نبتت فيهم جراثيم الهوى والشهوة ، فأفسدت عليهم تصورهم للحياة وظنوها مادة عليها يتنافسون، وأموالا وجاها وملكا بها يتفاخرون فانحلت من بينهم الروابط، واندفعوا في طريق الجاهلية الأولى، يرون المنكر فيسكتون عنه ، بل يدافع كل منهم عن سفهائه ، ويتعصب لأوليائه ونسوا بذلك حبل الله فأنساهم الله أنفسهم، وسلط عليهم شرارهم وأعدائهم، وكاد يحل بهم ما حل بالأمم قبلهم، وتعرضوا للعذاب العظيم، وكتاب الله

قائم بينهم، وناطق بالحجة عليهم، يحذرهم وينهاهم أن يسلكوا سبيل المفسدين، وأن يفعلوا كما فعل الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات.([1])

مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم:

إن مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكانة عظيمة وتستمد هذه المكانة بتقرير أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة المسلمة في القرآن الكريم، كما أنه واجب عظيم يجعل المسلمين في مقدمة ركب الإنسانية يقول تعالى في سورة آل عمران :﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾([2])

وفي موضع آخر من ذات السورة:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾([3])

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، لابد من سلطة في الأرض تدعو لهذا الأمر، فهناك أمر بالمعروف ونهي عن المنكر لا يقوم بهما إلا ذو سلطان، لابد من سلطة تقوم على هاتين الركزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر، وتحقيق هذا المنهج يقتضي ﴿دعوة﴾ إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج، ويقتضي سلطة ﴿تأمر﴾ بالمعروف ﴿وتنهى﴾ عن المنكر فتطاع ، فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد

([1]) انظر تفسير القرآن الكريم الجزاء العشرة الأولى للإمام محمود شلتوت طباعة دار الشروق، بيروت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ص١٣٦ .

([2]) سورة آل عمران ، آية١٠٤ .

([3]) سورة آل عمران آية ١١٠ .

وبيان فهذا شطر، أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة ، ولا تفلح الأمة ، ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفا، والمنكر منكرا، وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى وتطاع وأولئك هم المفلحون، ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ هذه الآية تضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجبا ثقيلا بقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى ، وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها ، ولتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة وقائدة للخير لا للشر في هذه الأرض، وفي أول مقتضيات هذا المقام والمكان أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد وأن تكون بها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي خير أمة أخرجت للناس.([1])

ويقول تعالى مبينا مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾([2])

ذكر الله صفات المؤمنين المحمودة ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويطيعون الله ويحسنون إلى

([1]) باختصار من تفسير الظلال ، لسيد قطب ، ج١ ، ص ٤٤٣، ٤٤٦ .

([2]) سورة التوبة ، الآية ٧١ .

خلقه ويطيعون الله ورسوله فيما أمر وترك ما عنه زجر، سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، من اطاع الله أعزه.([1])

ويقول تعالى في سورة الحج: ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة واءتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾([2])

الذين وعدناهم بنصرنا هم الذين إن مكناهم في الأرض واستخلفناهم فيها بإظهارهم على عدوهم، أقاموا الصلاة في أوقاتها ، محافظين عليها، مداومين فيها، وأخرجوا زكاة أموالهم إلى أهلها، وأمروا بكل ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، ونهوا عن كل ما نهى الله عنه، فالله وحده مصير الأمور كلها والعاقبة للتقوى.

وجاءت سورة العصر بآياتها الثلاث تبين أن الفاصل بين الخسران هو الإيمان وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك من خلال التواصي بالحق على طاعة الله وصالح العمال، والصبر على طاعة الله والصبر عن معصية الله والصبر على الشدائد والبلاء ﴿ والعصر* إن الإنسان لفي خسر* إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

نستعرض بعض الآيات التي تحدثت عن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ([3])

([1]) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٤، ص١٧٥ .

([2]) سورة الحج ، آية ٤١ .

([3]) سورة آل عمران ، آية ١٠٤ .

فهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يهمل هذا الأمر الهام في حياة الأمة المسلمة.

ويقول تعالى في سورة التوبة ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ ([1])

جاء في القرآن العظيم لابن كثير قوله:"وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبيﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ، ويتفقهون في دينهم ، ويقولون لنبي الله: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا ما نقول لعشائرنا إذا قدمنا انطلقنا إليهم قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله ، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : إن من أسلم فهو منا، وينذرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه، وكان رسول الله ﷺ يخبرهم وينذر قومهم فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة"([2]).

إن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض واجب ، يقول ابن تيمية رحمه الله:"وكل بشر على وجه الأرض فلابد له من أمر أو نهي ، ولابد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها أما بمعروف أو بمنكر، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته، وإذا اجتمع اثنان فصاعدا فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناه عن أمر ... وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر به الله ورسوله،

([1]) سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

([2]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٤ ، ص٢٣٧ .

وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله وإلا فلابد أن يـــأمر وينـــهى ويؤمـــر وينهى".(١)

وذهب جمهور العلماء إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عـــن المنكرفـــرض من فروض الكفاية على جماعة المسلمين وليس فرضا عينيا على كل مسلم(٢)..إلا أن بعض العلماء ذهبوا إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فـــرض عيـــن على كل مسلم على قدر استطاعته ومن هؤلاء ابن حزم الظاهري رحمـــه الله فقـــد قال" الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضان علـــى كـــل واحـــد علـــى قـــدر استطاعته : باليد ، فمن لم يقدر فبلسانه، فمن لم يقدر فبقلبه وذلك أضعف الإيمـــان ، وليس وراء ذلك من الإيمان شيء"(٣)

والراجح هو: القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر وجوبـــا عينيا على كل مسلم بقدر استطاعته، وذلك أن سكوت المسلم عن إشاعة المعـــروف الذي يعرفه وتعليم أمور الدين للناس الجاهلين اعتمادا على أن غيره قد يقوم بذلـــك قد يؤدي إلى تفويت كثير من الخير على جماعة المســـلمين وكتمـــان العلـــم مـــن الكبـــائر، وأما المنكر فالمطلوب إزالته إذا وقع ، والحيلولة دون وقوعـــه إذا علـــم العزم عليه، وهنا يجب على كل من رآه أو علم به أن يسارع إلى محاولـــة إزالتـــه ومنع وقوعه ولا يجوز التقاعس عن ذلك ركونا إلى الآخرين، إذ قد يؤدي ذلك إلـــى عدم الإنكار بالكلية، وفوات الأمر على غير وجه شرعي وتـــثرب المســـؤولية دون وقوع المنكر واستمراره بمجرد رؤيته ، وإذا توجه غيره للنهي عن هذا المنكر فـــلا

---

(١) الحسبة في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية طباعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ص١٠٢ .

(٢) أحياء علوم الدين للغزالي ، ج٢ ، ص١١٨٧ والحسبة في الإسلام ، ص٦٣ .

(٣) المحلى لابن حزم ، ج١ ، ص٣٢ .

يسقط عنه وجوب النهي، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على كل قادر عليهما.([1])

عواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إذا ترك المسلمون واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ذلك يجعلهم في سياق الأمم السابقة التي كانت لا تتناهى عن منكر فعلته مما جر عليها عواقب وخيمة ، وحتى يقوم الناس بهذا الواجب الديني الهام فإننا نورد بعضا من الآيات القرآنية التي بينت عاقبة إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللعنون﴾([2])

التنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولا أهل الكتاب، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة، يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشترون به ثمنا قليلا حين يقاس إلى ما يخسرونه من رضى الله وثواب الآخرة ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر ويتوجه إليها بعد الله من كل لاعن، واللعن : الطرد في غضب وزجر، وأولئك يلعنهم الله ويطردهم من رحمته، ويطاردهم اللاعنون من كل صوب فهم هكذا مطاردون من الله ومن عباده في كل مكان.([3])

ويقول تعالى في سورة المائدة: ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داؤد وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لا يتناهون عن

([1]) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أبو بكر الخلال والجهاد للدكتور محمد نعيم ياسين ص١٧٩ .

([2]) سورة البقرة ، آية ١٥٩ .

([3]) انظر في ظلال القرآن سيد قطب ، ج١ ، ص ١٥٠ .

منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون* ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾([1])

يخبر تعالى أنه طرد من رحمته الكافرين من بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله على داود عليه السلام وهو الزبور وفي الكتاب الذي أنزله على عيسى عليه السلام وهو الإنجيل بسبب عصيانهم واعتدائهم على حرمات الله، كان هؤلاء اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضونها، ولا ينهى بعضهم بعضا عن أي منكر فعلوه وهذا من أفعالهم السيئة وبه استحقوا أن يطردوا من رحمة الله تعالى، ترى كثيرا من هؤلاء اليهود "والخطاب للرسول ﷺ" يتخذون المشركين أولياء لهم ، ساء ما عملوه من الموالاة التي كانت سببا في غضب الله عليهم وخلودهم في عذاب الله يوم القيامة"([2])

ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾([3])

فلما نسوا ما ذكروا به وتركوه عن قصد أخذهم الله بعذاب شديد ردئ ، لأنهم تركوا ما ذكروا به واعتدوا واستمروا على غيهم ، ولم يستجيبوا للذكر والوعظ ، وأنجى الله الذين ينهون عن معصيته وأخذ الذين اعتدوا بعذاب أليم شديد بسبب مخالفتهم الله وخروجهم عن طاعته سبحانه وتعالى.([4])

([1]) سورة المائدة من الآية ٧٨-٨٠ .

([2]) التفسير الميسر ، نخبة من العلماء ، مجمع الملك فهد ، ص ١٢١ .

([3]) سورة الأعراف ، الآية ١٦٥ .

([4]) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٧ ص٢٧٠ .

ويقول تعالى في سورة هود: ﴿ فلو كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾([1])

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله "يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض ، وقوله ﴿إلا قليلا﴾أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمه، ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وقوله ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أي استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يتلفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب وكانوا مجرمين"([2])

إن عواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخيمة وعصيبة ومهلكة، لذا فإنه يجب على المسلمين أفرادا وجماعات وحكومات أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفا من عواقب إهماله وتركه والله نسأل أن يوفق القائمين على أمر المسلمين في كل مكان أن يحذو حذو نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة العربية السعودية، حتى تنشط المسلمين في كل مكان بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر :

هنالك مجموعة من الصفات التي يجب أن يتصف بها الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر حتى يكون أهلا لهذه المهمة العظيمة ومن هذه الصفات:

([1]) سورة هود ، الآية ١١٦ .

([2]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ، ص ٣٦١ .

أولا : العلم :

فالعلم هو أساس كل شيء، فلا بد للداعية لهذا الأمر أن يكون عالما بما يأمر به الناس وينهاهم عنه، حتى يدعو إليه على بصيرة وعلم كما تقدم لنا في آية سورة التوبة﴿ .....فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين .....الآية ﴾ ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل:﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾(١)

يقول تعالى أمرا رسوله محمدا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بالحكمة﴾ وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿والموعظة الحسنة﴾ بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، لأن الله قد علم منهم الشقي والسعيد، فأدعهم إلى الله الهادي من يهديه والضال من يضله.(٢)

ثانيا : العمل بما يقول:

لابد من أن يتبع الداعية القول العمل، فلا يمكن أن تنهى الناس عن شيء ثم نفعله، أو أن نأمر الناس بشيء لا نفعله،فهذا لا يستقيم أبدا في أمر الدعوة إلى دين الله تعالى.

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾(٣)

---

(١) سورة النحل ، آية ١٢٥ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٤ ، ص٦١٣ .

(٣) سورة البقرة ، آية ٤٤ .

إن الدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها، وهي التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم لأنهم يسمعون قولا جميلا، ويشهدون فعلا قبيحا، والمطابقة بين القول والفعل وبين العقيدة والسلوك ليست أمرا هينا إنها في حاجة إلى جهد مع النفس وصلة بالله واستعانة بهديه في تطابق قوله عمله.(١)

ونبي الله شعيب عليه السلام دعا قومه موضحا لهم أنه على أمر واضح من الله تعالى فيما يدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله ، وفيما ينهاهم عن الفساد في المال ، فهو لا يريد أن يخالفهم فيرتكب أمرا نهاهم عنه، وما يريد من الأمر والنهي إلا أصلاحهم فهو يعاهدهم على القول والعمل فيما يأمر وينهى متوكلا على الله تعالى تائبا راجعا إليه ﴿ قال ياقوم أراءيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(٢)

ويقول تعالى في سورة فصلت:﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾(٣)

لا أحد أحسن قولا ممن دعا إلى توحيد الله وعبادته وحده وعمل صالحا وقال : إنني من المسلمين المنقادين لأمر الله وشرعه وفي الآية حث على الدعوة إلى الله سبحانه وبيان فضل العلماء الداعين إليه على بصيرة وفق ما جاء عن رسول الله ﷺ .(٤)

---

(١) باختصار من ظلال القرآن ، لسيد قطب ، ج١، ص٦٨ .

(٢) سورة هود ، آية ٨٨ .

(٣) سورة فصلت ، آية ٣٣ .

(٤) التفسير الميسر ، ص ٤٨٠ .

وينكر الله سبحانه وتعالى على من يعد عدة أو يقول قولا لا يفي به ، وهو من أعظم ما يبغض الله تعالى وهو أن يقول الإنسان ما لا يفعل يقول تعالى في سورة الصف :﴿ يا أيها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[1]

وهنا يجدر بنا أن نذكر قول الشاعر في هذا المقام:

يا أيها الرجل المعلم غيره * هل لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام * وذي الضنا كيما يصح به وأنت سقيم
أبدأ بنفسك وانهها عن * غيها فإذا فعلت فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتي * مثله عار عليك إذا فعلت عظيم[2]

ثالثا: الصبر :

لابد للداعية أن يتصف بصفة الصبر حتى تكون له معينا فيما يأمر وينهى، فقد يجد في سبيل ذلك الأذى من الناس قولا وفعلا ، لأن هذا الطريق ملئ بالتحديات والصعاب ، فلا بد من جرعات الصبر حتى يمضي المؤمن في طريق دعوته صابرا محتسبا أجره على الله وفي هذا يقول تعالى في سورة الأنعام ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[3]

لقد صبر الرسل الذين أرسلهم الله قبل محمد ﷺ على الأذى في سبيل الله، ومضوا في دعوتهم وجهادهم حتى أتاهم نصر الله ولا مبدل لكلمات الله التي أنزلها على نبيه محمد ﷺ من الوعد بالنصر على من عاداه، ولقد جاء خبر نصر الله

---

(1) سورة الصف ، آية ٢،٣ .

(2) أورد هذه الأبيات صاحب قطر الندى في شواهده النحوية باب لا النافية والنواصب ص١٠٠

(3) سورة الأنعام آية ٣٤ .

لرسله السابقين، وما أصاب مكذبيهم من العذاب، فهم أي رسل الله جميعا الأسوة والقدوة لكل داعية إلى الله تعالى.

ولقد وصى لقمان ابنه بالصبر في طاعة الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن ما يصيبه في سبيل ذلك هي من الأمور التي ينبغي أن يحرص عليها الإنسان ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾(١)

وتأتي سورة العصر على إيجازها في التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

رابعا : الرفق واللين:

إن الرفق واللين ما دخلا على شيء إلا زانه ولا خرجا من شيء إلاشاناه، فلا بد للداعية أن يرفق بمن يدعوه إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون لين الجانب وهو ينهى الناس عن معصية الله سبحانه وتعالى، لا فظا غليظ القلب ينفر الناس من حوله فالأمر يحتاج إلى رفق ولين.

قال تعالى:﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾(٢)

ويقول تعالى في سورة الإسراء:﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾(٣)

لابد من المخاطبة والمحاورة بالكلام الحسن الطيب، حتى يقفلوا على الشيطان طريق العدواة والفساد والخصام، لأن الشيطان للإنسان عدو مبين ظاهر العدواة.

---

(١) سورة لقمان آية ١٧ .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٣) سورة الإسراء ، آية ٥٣ .

ويقول تعالى في سورة طه: ﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾[1]

أمر الله تعالى موسى وأخوه هارون بآيات الله الدالة على ألوهيته وكمال قدرته وصدق رسالته أن يذهبا إلى فرعون المتجاوز الحد في الكفر والظلم وعلى الرغم من ذلك ، فقولا له قولا لطيفا لعله يتذكر أو يخاف الله .[2]

خامسا: التيسير والتبشير:

يقول تعالى في سورة النساء : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا﴾[3]

يريد الله تعالى أن يتوب علينا ويتجاوز عن خطايانا ، ويريد الذين ينقادون لشهواتهم أن ننحرف عن الدين انحرافا كبيرا، الله يريد اليسر بالمغفرة، وهم يريدون العسر بالمعصية ، ويريد الله تعالى بما شرعه لنا التيسير وعدم التشديد علينا لأن الله خلقنا ضعفاء ، فمن هنا لابد أن نيسر أمر الدين وأن نكون ليني الجانب ونحن ندعو الناس للتمسك بدين الله تعالى.

ويقول تعالى في سورة الزمر: ﴿قل لعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾[4]

ويقول تعالى في ذات السورة: ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾[5]

---

(1) سورة طه ، آية ٤٤ .

(2) التفسير الميسر ، ص ٣١٤ .

(3) سورة النساء ، الآية ٢٧ ، ٢٨ .

(4) سورة الزمر ، آية ٥٣ .

(5) سورة الزمر ، آية ٥٥ .

جاء في تفسير هاتين الآيتين :"قل يا محمد لعبادي الذين تمادوا في المعاصي وأسرفوا على أنفسهم بالذنوب : لا تيئسوا من رحمة الله، لكثرة ذنوبكم، إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كانت ، إنه هو الغفور لذنوب التائبين من عباده الرحيم بهم، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ، وهو القرآن العظيم، وكله حسن ، فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لاتعلمون به"([1])

في هذا تيسير وتبشير لعباد الله سبحانه وتعالى، يسر في التكليف ، وتبشير بالمغفرة لمن قصر وعصى،فلابد للداعاة أن يتخذوا هذا المنهج القويم وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى يستجيب المدعو من الناس لدعوتهم.

غير أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف أمام المستجيبين للشياطين ، من الظالمين والفاسقين وإعادتهم إلى حظيرة الطاعة لله بوسائل اللين والشدة، كل ذلك يوقف من المد الشيطاني، ويقلل من معصية الله وأهلها في مجتمع الإيمان،وينجي هذا المجتمع من غضب الله والفتن العامة الطامة التي لا ينجو منها إلا الذين ينهون عن السوء ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فمن لا ينهى عن السوء لا ينجيه مجرد إيمانه وقيامه ببعض الطاعات عند حلول الفتن والمصائب ، ولكن الذي ينجيه هو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر بعد إيمانه وطاعته لربه.([2])

لهذا كله كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم قواعد الإسلام، ومن أكثر ما ذكر في القرآن والسنة من الواجبات بالحث عليه والوعد لمن قام به

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج ٤ ، ص٢٦١ طبعة دار المعرفة بيروت.

([2]) انظر الجهاد ميادينه وأساليبه للدكتور محمد نعيم ياسين ، طباعة مكتبة الأقصى الأردن ، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ-١٩٨١م ، ص ١٦٥ .

بخير الجزاء،والوعيد لمن تركه وتهاون فيه، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر من أعظم خصال الإيمان ، وقد رغب القرآن للقيام به في كثير من آياته في دلالـــة واضحة لفلاح من قام به.

المحاضرة الثامنة

الجهاد في سبيل الله في القرآن الكريم

تعريف الجهاد:

يقول ابن منظور "وجاهد العدو مجاهدة وجهادا قاتله وجاهد في سبيل الله، وفي الحديث لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، الجهاد محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل والمراد بالنية إخلاص العمل لله أي أنه لم يبق بعد فتح مكة هجرة لأنها قد صارت دار إسلام وإنما هو الإخلاص في الجهاد وقتال الكفار والجهاد المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء"([1])

وقال القسطلاني "والجهاد بكسر الجيم مصدر جاهدت العدو ومجاهدة وجهاداً وأصله جيهاد كقيتال فخفف بحذف الياء وهو مشتق من الجهد بفتح الجيم وهو التعب والمشقة لما فيه من إرتكابها أو من الجهد بالضم وهو الطاقة لأن كل واحد منهما بذل طاقته في دفع صاحبه:([2])

وأما تعريف الجهاد في الشرع فهو قتال الكفار لإعلاء كلمة الله والمعاونة على ذلك.

يعرف المالكية والشافعية الجهاد على أنه قتال الكفار حتى يسلموا.ويعرف الحنفية الجهاد: جهاد الكفار دعوتهم إلى الدين الإسلامي وقتالهم إن لم يقبلوا.

أما الحنابلة فيعرفونه بالمبالغة في قتال العدو، فهو قتال الكفار على وجه الخصوص.

([1]) لسان العرب لابن منظور ج ٣ ، ص١٣٥ .

([2]) إرشاد الساري للقسطلاني ، ج٥ ، ص٣١ .

ويعرفه غيرهم بقوله: أن الجهاد طلب العدو وقتاله حتى يسلم وينقاد للحق ويؤمن بالله ورسوله.

ومن هذه التعاريف يظهر لنا: أن المعنى اللغوي يشترك مع المعنى الاصطلاحي في بذل الوسع والطاقة، فالجهاد هو بذل الوسع في نصرة الدين الإسلامي لا غير وحفظه إما بالدعوة وتوضيح الحق وبعد ذلك يكون بالسيف، ويتبين لنا بعد استعراض المعنى اللغوي والإصطلاحي للجهاد أن اللغة أوسع تعريفا من الاصطلاح وأشمل في دائرة الموازنة بينهما، والجهاد أربع مراتب :جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين.([1])

حكم الجهاد:

الجهاد نوعان:

١-جهاد الطلب والابتداء وهو تطلب الكفار في عقر دارهم ودعوتهم إلى الإسلام وقتالهم إذا لم يقبلوا الخضوع لحكم الإسلام. وحكم هذا النوع فرض على مجموع المسلمين.

٢-جهاد الدفاع وحكمه فرض عين على جميع المسلمين عموما حتى يندفع شر الأعداء وهذا بإجماع علماء الإسلام.([2])

([1]) الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع للشيخ صالح اللحيدان طباعة دار اللواء الرياض ١٣٩٧هـ ، ص ١٧ .

([2]) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية د/علي بن نفيع العلياني طباعة دار طيبة الرياض ١٤١٦هـ ص ١٢٤ .

وعليه فإن الجهاد يكون فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ويكون فرض عين إذا هجم العدو على ديار المسلمين، وإذا استنفر إمام المسلمين الأمة للجهاد في سبيل الله.([1])

المبحث الأول:

فضل الجهاد والمجاهدين في القرآن الكريم:

يقول تعالى في سورة النساء مبينا فضل الجهاد والمجاهدين:﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين أجرا عظيما ﴾([2])

لا يتساوي المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله غير أصحاب الأعذار منهم والمجاهدون في سبيل الله، بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله تعالى المجاهدين على القاعدين ورفع منزلتهم درجة عالية في الجنة، وقد وعد الله كلا من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الأعذار الجنة، لما بذلوا وضحوا في سبيل الحق، وفضل الله تعالى المجاهدين على القاعدين ثوابا جزيلا.([3])

ويقول تعالى في سورة الأنفال:﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين ءامنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾([4])

من فضل الله على المجاهدين أنه تعالى معهم ينصرهم ويعينهم عن طريق الملائكة الذين يبشرونهم بالنصر والقتال معهم، فكان الملك يسير أمام الصف في

([1])راجع المرجع السابق ، ص٣٠ وما بعدها.

([2]) سورة النساء ، آية ٩٥ .

([3]) التفسير الميسر ، ص ٩٤ .

([4]) سورة الأنفال ، آية ١٢ .

صورة الرجل ويقول سيروا فإن الله ناصركم ويظن المسلمون أنه منهم، وأمر الله المؤمنين وقيل الملائكة أن يضربوا فوق الأعناق وأن يضربوا منهم كل بنان وهي الأصابع وغيرها من الأعضاء وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء، والبنان هي أصابع اليدين والرجلين، والبنان هو كل مفصل.(١)

ويقول تعالى في سورة التوبة:﴿ يا أيها الذين ءامنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير ﴾(٢)

يا أيها الذين آمنوا وصدقوا واتبعوا رسوله مالكم إذا قيل لكم اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله لقتال أعدائكم تكاسلتم ولزمتم مساكنكم ؟ هل آثرتم الحظوظ الدنيوية على نعيم الآخرة ؟ فما تستمتعون به في الدنيا قليل زائل ، أما نعيم الاخرة الذي أعده الله للمؤمنين المجاهدين فكثير دائم ، إلا تنفروا أيها المؤمنون إلى قتال عدوكم ينزل الله عقوبته بكم ، ويأتي بقوم آخرين ينفرون إذا استنفروا، ويطيعون الله ورسوله، ولن تضروا الله شيئا بتوليكم عن الجهاد فهو الغنى لكم وأنتم الفقراء إليه، وما يريده الله يكون لا محالة، والله على كل شيء قدير من نصر دينه ونبيه دونكم.(٣)

ويقول تعالى في فضل المجاهدين في سبيله الذين باعوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله:﴿ إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج٧ ، ص ٣٣٢ .

(٢) سورة التوبة ، آية ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) التفسير الميسر ، ص ١٩٣ .

في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوارة والإنجيل والقـــرآن ومـــن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بيعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾(١)

الشراء والبيع عبارة عن عقد معاوضة ، المشتري يدفع والبـــائع يعطـــي ، فالمؤمنون باعوا أنفسهم لله في مقابل الجنة ، لأنهم جاهدوا أعلاء لكلمة الله وإظـــهار دينه، قتلوا الأعداء، وقتلوهم في سبيل الله، وهذا هو الوعد الحق في الكتب السماوية المنزلة على موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ ، ولا أحد أوفـــى بعهده من الله لمن وفى بما عاهد الله عليه، وهذا يدخل السرور في نفوس المؤمنيـــن الذين باعوا وربحوا البيع جنات ورضوان وهذا البيع هو الفلاح العظيم الذي ليـــس بعده فلاح.

ويقول تعالى في سورة العنكبوت :﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين ﴾ (٢)

والمؤمنون الذين جاهدوا أعداء الله والنفس والشيطان، وصبروا على الفتـــن والأذى في سبيل الله، سيهديهم الله سبل الخير ويثبتهم على الصراط المستقيم، ومـــن هذه صفته فهو محسن إلى نفسه وإلى غيره، وإن الله سبحانه وتعالى وتعالى يؤيدهـــم بالنصر والتأييد والحفظ والهداية.

المبحث الثاني:

أهداف القتال في الكريم :

يبين الحق تبارك وتعالى أهداف القتال في القرآن الكريم فيقول :﴿وقاتلـــوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٣)

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

(٢) سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٠ .

ويقول في موضع آخر من ذات السورة البقرة: ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمت قصاص فمن أعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما أعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾(١)

يقول سيد قطب :

إنه القتال لله ، لا لأي هدف أخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة ، القتال في سبيل الله، لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء الأرضي، ولا في سبيل المغانم والمكاسب، ولا في سبيل الأسواق والخامات، ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس، إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة والتي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام: القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض ، واقرار منهجه في الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام ومع تحديد الهدف تحديد المدى ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ والعدوان يكون بتجاوز المحاربين إلى غير المحاربين من الأمنين المسالمين من النساء والأطفال والشيوخ وهو ما يعرف في عصرنا الحاضر بمصطلح المدنيين ،فهؤلاء لا يشكلون خطرا على الدعوة الإسلامية ولا على الأمة الإسلامية، ثم بين الله حكم القتال في الأشهر الحرم كما بين حكمه عند المسجد الحرام، فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يحرم الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام، وقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان، والأشهر الحرام واحة للأمن والسلام في الزمان، تصان فيه الحرمات والدماء والأموال، والذي ينتهك الحرمات لاتصان حرماته، فالحرمات قصاص بلا تجاوز ولا مغالاة،

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٩٤ .

والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم لأنهم يعلمون أنما ينصرون بعون الله وقد ينسون ذلك فيذكرهم هنا أن الله مع المتقين بعد أمرهم بالتقوي".(١)

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿وإما تخافن من قومة خيانة فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ (٢)

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه إذا خفتم نقض العهود والمواثيق التي بينكم والمشركين ﴿فأنبذ إليهم﴾ عهدهم ، أعلمهم بأنك يا محمد قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينكم وبينهم على السواء ، لأن الله لا يحب الخائنين الذين يبادرون بنقض العهود والمواثيق ، فيكون في أهداف القتال خيانة العهد من الكفار.(٣)

ويقول تعالى في سورة التوبة مبينا أهداف القتال في كتابه العزيز:﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾(٤)

لقد كفر أهل الكتاب بكل شيء، واتبعوا أراءهم وأهواءهم، وآءباهم فيما هم فيه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بما جاء به محمدﷺ ، وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر لقتال أهل الكتاب، بعد أن مكن الله الدين لنبيه وكان ذلك في سنة تسع هجرية، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وجوزت الآية قتالهم حتى يدفعوا الجزية إن لم يسلموا﴿عن يد﴾يعني عن قهر لهم وغلبة﴿وهم صاغرون﴾ذليلون حقيرون مهانون،

---

(١) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب ، ج١ ، ص ١٨٧، ١٩١ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٥٨ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٤ ، ص ٧٧ .

(٤) سورة التوبة ، آية ٢٩ .

فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين،([1]) ويكون من أهداف القتال في الإسلام كسر شوكة الكفار من أهل الكتاب ونشر دين الله.

يبين الحق تبارك وتعالى عدد شهور السنة أن منها أربعة حرم ، حرم الله فيهن القتال هي "ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب" والظلم فيها أشد من غيرها ، كما يجب قتال المشركين جميعا مع العلم بأن الله مع أهل التقوى بتأييده ونصره يقول تعالى:﴿ إن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾([2])

ومن أهداف القتال في الإسلام مقاتلة الكفار الأقرب فالأقرب حتى تأمن الدولة الإسلامية يقول تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾([3])

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأول، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة ، والطائف ، واليمن واليمامة وهجر، وخيبر، وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وليجد الكفار من قتالكم لهم شدة وغلظة،

([1]) انظر القرآن العظيم لابن كثير ، ج٤ ص ١٣٢ وما بعدها.

([2]) سورة التوبة ، آية ٣٦ .

([3]) سورة التوبة ، آية ١٢٣ .

ولابد من مقاتلة الكفار بعد التوكل على الله ، والثقة في نصره وطاعته حتى يكونوا ظاهرين على عدوهم.([1])

إن ظلم واستبداد الأعداء الكافرين ومحاولتهم إبادة المسلمين من الوجود من أهم الأهداف التي شرع الله من أجلها قتال الكافرين ، وقد أذن الله للمسلمين في صدر الإسلام بعد طول صبر على أذى الكفار ، حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة التي قويت فيها شوكته ونصره الله بالمهاجرين والأنصار وأصبحوا قوة تستطيع الدفاع عن عقيدتها وأرواحها ودمائها ووجودها أذن الله لهم بالقتال فكانت معركة بدر الكبرى المعركة التي سماها الله الفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل الذي انهزم بكثرته أمام قلة الحق المؤمنة الصابرة المقاتلة،عندها استحقوا نصر الله القوي العزيز القادر على نصرهم قال تعالى : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ([2])

يقول الدكتور علي العلياني متحدثا عن أهداف الجهاد وغايته : الهدف الرئيسي هو تعبيد الناس لله وحده وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية إلى رب العباد وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعا، وإخلاء العالم من الفساد،إن الجهاد الإسلامي الأكبر هو إرجاع البشر إلى الأصل وهو الملة الحنفية التي تخضعهم لرب العالمين وتجعلهم يستمدون منه سبحانه منهج حياتهم الدنيا ، يعبدونه كما أمر ولا يعبدون أحدا غيره ، وهذا الخضوع لله هو الذي يحقق لهم السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.([3])

([1]) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٤ ص ٢٣٨ .

([2]) سورة الحج ، آية ٣٩ .

([3]) أهمية الجهاد د/ علي بن نفيع العلياني ، ص ١٥٨ .

ويقول محمد بن الحسن "فرضية القتال المقصود منها إعزاز الديـــن وقـــهر المشركين ."([1])

ويقول ابن القيم في أهداف الجهاد :"والمقصود من الجهاد إنما هو أن تكـون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، فإن من كون الديـــن كلـــه لله إذلال الكفـــر وأهله وصغاره وضرب الجزية على رؤس أهله، والرق على رقابهم فهذا من ديـــن الله ولا يناقض هذا إلا ترك الكفار على عزهم وإقامة دينهم كما يحبون بحيث تكـون لهم الشوكة والكلمة "([2])

ويقول الإمام الشافعي في كتابة الأم :"أن فرض الجـــهاد يجمـــع أمـــران: أحدهما أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين من يمنعه، والآخر أن يجـــاهد من المسلمين من في جهاده كفاية حتى يسلم أهل الأوثان أو يعطـــي أهـــل الكتـــاب الجزية"([3])

ويقول سيد قطب :"إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعـــة الإسلام ذاته ودوره في هذه الأرض وأهدافه العليا التي قررها الله وذكـــر الله أنـــه أرسل هذا الرسول بهذه الرسالة من أجلها، وجعله خاتم النبيـــن، وجعلـــها خاتمـــة الرسالات، إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد، ومن العبودية لهواه، وذلك بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيتـــه ســـبحانه للعـــالمين، ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأنه وحده المنهج المبرأ من نتائج الجـــهل

([1]) السير الكبير للشيباني ، ج١ ، ص ٨٨ .

([2]) أحكام أهل الذمة ابن القيم الجوزيه ، ج١ ص ١٨ .

([3]) كتاب الأم للإمام الشافعي ، ج٤ ، ص٤ ، ١٦٧ ط دار المعرفة بيروت ١٣٩٢هـ.

الإنساني والقصور الإنساني، فواضعه هو خالق الإنسان العليم بما يصلح له ، المطلع على خفايا تكوينه وتركيبه"([1])

ومن هنا يمكن أن نلخص أهداف القتال في القرآن الكريم بعد استعراضنا للآيات التي تحدثت عن تلك الأهداف وأقوال العلماء في ذلك في الآتي :

(١) رد إعتداء المعتدين على المسلمين.

(٢) إزالة الفتنة عن الناس حتى يستمعوا إلى دلائل التوحيد من غير عائق والفتنة تلك تتلخص في ثلاثة أنواع ، النوع الأول ما يمارسه الكفار من أشكال التعذيب والتضيق على المسلمين ليرتدوا عن دينهم، والنوع الثاني هو الأوضاع والأنظمة الشركية وما ينتج عنها من فساد في شتى مجالات الحياة ، والنوع الثالث: فتنة الكفار أنفسهم وصدهم عن استماع الحق وقبوله.

(٣) حماية الدولة الإسلامية من شر الكفار وحماية ديارهم في أي بقعة في الأرض كانت.

(٤) قتل الكافرين وأبادتهم ومحقهم حتى لا يعلوا شأنهم وتفسد بهم المجتمعات البشرية.

(٥) إرهاب الكفار وإخزاؤهم واذلالهم و إيهان كيدهم وإغاظتهم.

ويلخص الدكتور الألمعي أهداف الجهاد في سبيل الله بقوله :"إعلاء كلمة الله في الأرض ، وإقامة الحق والعدل بين الناس، وجعل الحاكمية لله وحده ، فلا يحكم إلا بشريعته، ولهذا لا يكاد يذكر القتال أو الجهاد إلا مقرونا بسبيل الله ، تفريقا بينه وبين القتال من أجل الثأر والأطماع الدنيوية وحب السيطرة والاستعباد، إن من

([1]) هذا الدين، سيد قطب طباعة دار الشروق ، بيروت ، ص ١٥ .

أهداف الإسلام إسعاد البشرية وهدايتها،ونشر الأمن والرخاء فوق ربوعها ولا يلجأ للقتال إلا لضرورة"([1])

وللجهاد فوائد عظيمة للمسلمين إذا مارسوا الجهاد، من تلك الفوائد :

(أ) كشف المنافقين المندسين في صفوف المسلمين ، فأكبر كاشف لدخيلتهم وسرائرهم هو الجهاد في سبيله.

(ب) تمحيص المؤمنين من ذنوبهم ، فإن المجاهد المسلم إذا أخلص النية لله وحضر القتال فقتل الكافر نال ثوابا عظيما ، وإذا قتله الكفار فذلك الفوز الذي لا يعدله فوز.

(ج) تربية المؤمنين على الصبر والثبات والطاعة وبذل النفس.

(د) الحصول على الغنائم والسبي وإن لها لموقعا في النفس البشرية.

ومما تقدم يتضح لنا: غاية الجهاد والتي هي إسلام أهل الأرض كلهم واعتناقهم الإسلام من غير أهل الكتاب والمجوس، وبهذا يظهر أن الجهاد مستمر إلى قيام الساعة وأنه لا ينتهي جهاد الكفار إلا إذا أسلموا، أو خضعوا لحكم الإسلام ودفعوا الجزية حال كونهم متلبسين بالذل والصغار.

المبحث الثالث :

فضل الشهداء:

لقد فضل الله المجاهدين في سبيله فضلا عظيما وفضل من المجاهدين في سبيله الشهداء الذين يقتلون في سبيله سبحانه، ومن فضل الشهيد أنه حي ولا ينبغي أن نسميه أو نصفه بالموت، فهو حي حياة خاصة في قبره، لا يعلم كيفيتها إلا الله

([1]) دراسات في التفسير د/زاهر الألمعي ، ص٣٣٤ .

سبحانه وتعالى القائل: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾[1]

ويقول تعالى في سورة آل عمران ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[2]

الآية نص في النهي عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل الله وفارقوا هذه الحياة وبعدوا عن أعين الناس أموات، ونص كذلك في إثبات أنهم أحياء عند ربهم، ثم يلي هذا النهي وهذا الإثبات وصف مالهم من خصائص الحياة فهم يرزقون ، مع أننا في هذه الفانية لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء إلا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح، إلا أن هذا النص كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة، لأن الذين يقتلون في سبيل الله متجردين من أعراض وأغراض الدنيا، يخبرنا الله سبحانه أنهم ليسوا أمواتا وينهانا أن نحسبهم كذلك ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده يرزقون .[3]

ويقول تعالى في سورة النساء أمرا سبحانه عباده المؤمنين بالجهاد في سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته الذين يبيعون الدنيا بزخرفها الزائل بالآخرة ونعيمها الدائم، ومن يجاهد في سبيل الله مخلصا فينال الشهادة في سبيله قتيلا ، فإن الله سيؤتيه فضلا كبيرا وأجرا عظيما ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾[4]

---

(1) سورة البقرة ، آية ١٥٤ .

(2) سورة آل عمران ، آية ١٦٩ .

(3) انظر في ظلال القرآن الكريم ، سيد قطب ، ج١ ، ص ٥١٨ .

(4) سورة النساء آية ٧٤ .

ويقول تعالى في فضل الشهداء في سورة محمد: ﴿ ...والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم* سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾([1])

إن الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ومداولة الأيام بينهم ، ولو يشاء الله لانتصر للمؤمنين من الكافرين بغير قتال ولكن شرع الله الجهاد ليختبر المؤمنين، ولينصر بهم دينه، والذين قتلوا في سبيل الله من المؤمنين، فلن يبطل الله ثواب أعمالهم ، سيوفقهم إلى طاعته ومرضاته ويصلح شأنهم في الدنيا والاخرة ويدخلهم الجنة بينها وعرفها لهم.([2])

وقد بينت السنة النبوية العطرة وهي الينبوع في تفسير كتاب الله تعالى، فقد جاء في الصحاح الكثير عن المجاهدين والشهداء في سبيل الله :عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :"والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك "([3])

وعن عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :"واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"([4])

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال :"يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين"([5])

([1]) سورة محمد ، من الآية ٤-٦ .

([2]) التفسير الميسر ، ص ٥٠٧ .

([3]) صحيح البخاري ، ج٤ ، ص ٢٠٤ .

([4]) صحيح البخاري ، ج٣ ، ص ٢٠٨ .

([5]) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج١٣ ، ص٣٠ .

وعن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ﴾ الآية ، فقال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ..." (١)

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المجاهدين في سبيله وأن يرزقنا الشهادة في سبيله آمين .

---

(١) صحيح مسلم ، شرح النووي ، ج١٣ ، ص ٣١ .

المحاضرة التاسعة

الصلاة في القرآن الكريم

الصلاة أهم أركان الإسلام ، بعد النطق بالشهادتين ،وهي عماد الدين وأساسه الأصيل ، الذي لا يقوم البنيان بدونه، والحاجز بين الإنسان ووقوعه في الكفر هو الصلاة ، فمن تركها فقد وقع في هوة الكفر، وانسلخ من ربقة الإيمان، وتجب الصلاة على المسلم البالغ العاقل حين دخول وقتها وأن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس.

المبحث الأول:

أدلة فرضيتها في القرآن الكريم:

يقول تعالى مبينا فرضية الصلاة في كتابه العزيز : ﴿ وأقيموا الصلاة واءتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾([1])

وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن الدخول في الإسلام يكون بإقامة الصلاة بعد النطق بالشهادتين ، إقامتها على الوجه الصحيح كما جاء بها نبي الله ورسوله محمد ﷺ ، وتكونوا مع الراكعين من أمته ﷺ .([2])

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة واءتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾([3])

([1]) سورة البقرة ، آية ٤٣ .

([2]) التفسير الميسر ، ص ٧ .

([3]) سورة النساء ، آية ٧٧ .

ويقول تعالى في ذات السورة : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾([1])

في الآيات السابقة تكليف للمؤمنين بالصلاة حتى في وقت الحرب والاشتغال بقتال الأعداء ، وفي حالة ترقب الموت، دليل واضح على أهمية هذا الواجب في تزكية النفوس ، وفي الحصول على رضا الله، ولا ريب أن الصلاة وهي مناجاة بين العبد وربه، تبعث على مراقبة الله ، واستشعار عظمته ، وتجعل الإنسان في حذر دائم من مخالفة أحكامه ، أو التقصير في حدوده، وبذلك يكمل للروح تهذيبها، وللنفس قوتها وصلاحها،وحسب المؤمنين في العناية بها أنها الركن الأول من أركان الدين بعد شهادة التوحيد والرسالة .([2])

ويأمر الله النبي الكريم محمد ﷺ بأداء الصلاة على أتم وجه طرفي النهار في الصباح والمساء وفي ساعات الليل، لأن فعل الخيرات يكفر الذنوب ويمحو آثارها ، والأمر بإقامة الصلاة وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات موعظة بليغة ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾([3])

ويقول تعالى مبينا فرضية الصلاة في سورة إبراهيم: ﴿ قل لعبادي الذين ءامنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ ([4])

([1]) سورة النساء آية ١٠٤ .

([2]) تفسير القرآن الكريم محمود شلتوت ، ص ٢٥٦ .

([3]) سورة هود ، الآية ١١٤ .

([4]) سورة إبراهيم ، الآية ٣١ .

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية "يقول تعالى آمرا العباد بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها"([1])

ويأمر الله تعالى بإقامة الصلاة تامة من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل ، ويدخل في هذا صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، كما يأمر بإقامة صلاة الفجر لأن صلاة الفجر يشهدها الملائكة المقربون فلابد من إطالة القراءة فيها ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقراءن الفجر إن قراءن الفجر كان مشهودا﴾([2])

ويقول تعالى في سورة الحج ذاكرا الجهاد مع إقامة الصلاة والزكاة : ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ([3])

فالآية الكريمة تشير إلى المحافظة على معالم الدين وأركانه باداء الصلاة بأركانها وشروطها، وإخراج الزكاة المفروضة ، ويأمرنا الله أن نلجأ إليه ونتوكل عليه فهو نعم المولى لمن تولاه ونعم النصير لمن استنصره.

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٤ ، ص٥١٠ .

([2]) سورة الإسراء ، آية ٧٨ .

([3]) سورة الحج ، آية ٧٨ .

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾([1])

ويبين الحق تبارك وتعالى فرضية صلاة الجمعة في كتابه العزيز فيقول ﴿يا أيها الذين ءامنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾([2])

والمراد بالنداء هنا النداء الثاني الذي يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه،وأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان لكثرة الناس ، وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض وأصحاب الأعذار ، ويحرم البيع بعد النداء الثاني، وفي ترك البيع والإقبال إلى ذكر الله والصلاة خير لنا في الدنيا والآخرة.([3])

ويبين الشيخ الصابوني فرضية صلاة الجمعة بقوله :"فرض الله صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة واحدة ليسرع كل مسلم إلى الصلاة، يستمع كلام الله، وحديث المصطفىﷺ وموعظة الخطيب ، فيكون له زادا إيمانيا ، ويجتمع بإخوانه المؤمنين في ذلك الجمع المبارك، فيتفقد غائبهم، ويعين محتاجهم، ويعود مريضهم، ويصالح المختصمين، ويبذل نصحه للمقصرين، كما يتعلم الآداب الرفيعة في الاجتماع، من السلام، والاحترام، والبشاشة التي تجعل المجتمع في سلام وأمان،

([1]) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

([2]) سورة الجمعة ، الآية ٩ .

([3]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ،ج٨ ، ص ١٢٢ .

لهذا كله فرض الله سبحانه وتعالى صلاة الجمعة على كل مسلم وأمـــره أن يســعى إليها وحثه على أدائها"([1])

وقد كانت فرضية الصلاة من العبادات المشتركة بين الأديان السماوية، فقـد أمر الله عباده في كل حين بأداء الصلاة وءايتاء الزكاة وجعلها من أركان كل ديـن، لأن الصلاة هي العبادة التي تصل العبد بربه سبحانه وتعالى يقـول تعـالى:﴿ومـا أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلـك دين القيمة﴾([2])

([1]) أحكام الصلاة والطهارة للشيخ محمد علي الصابوني ، ط دار القرآن الكريم، بيروت ١٤١٨هـ ص ٢٣٠ .

([2]) سورة البينة ، آية ٥ .

المبحث الثاني:

منزلة الصلاة في القرآن الكريم:

يقول تعالى في سورة البقرة عن منزلة الصلاة في ثلاثة مواضع من هذه السورة الكريمة: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا الخاشعين﴾(١)

وقوله: ﴿وأقيموا الصلاة واءتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدونه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾(٢)

وقوله: ﴿يا أيها الذين ءامنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾(٣)

الاستعانة بالصبر تكرر كثيرا فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة، والصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب، صلة يستمد منها القلب القوة، وتحس فيها الروح صلة، وتجد فيها النفس الزاد، ويتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرا ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات ، ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر، فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب، ثم يضيف إلى الصبر الرضى والطمأنينة والثقة واليقين.(٤)

إن المداومة على أداء الصلاة في وقتها المعلوم ، وهيئتها المشروعة، الواردة عن النبي ﷺ ، تكسب العبد صفة الإيمان ، وتجعله من الوارثين لأعلى

---

(١) سورة البقرة ، آية ٤٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية ١١٠ .

(٣) سورة البقرة ، آية ١٥٣ .

(٤) ظلال القرآن ، سيد قطب ، ص ٦٤ ، ١٤١ .

منازل الجنة، فالذين هم فيها لا ينقطع نعيمهم ولا يزول ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون* أولئك هم الوارثون* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾([1])

كما بين الحق سبحانه وتعالى منزلة الصلاة ومكانتها العظيمة في سورة العنكبوت :﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾([2])

ويقول تعالى في سورة الأعلى:﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾([3])

قد طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة وتابع ما أنزل الله على رسوله ﷺ وأقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله، وطاعة لأمر الله وامتثالا لشرع الله.([4])

([1]) سورة المؤمنون من الآية ٩-١١ .

([2]) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

([3]) سورة الأعلى ، آية ١٤ ، ١٥ .

([4]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٨ ، ص ٣٨١ .

المبحث الثالث:

الخشوع في الصلاة:

إن الخشوع في الصلاة شرط ومن شروط صحتها وركن من أهم أركانها وصفة إيمانية عظيمة يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾(١)

والأمر هنا بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، فلا بد من إقامتها في أوقاتها، وإقامتها صحيحة الأركان مستوفية الشرائط، أما الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر ، وتخصيصها بالذكر لأن وقتها يجيئ بعد نومة القيلولة وقد تفوت المصلي ، والأمر بالقنوت هو الخشوع لله والتفرغ لذكره في الصلاة ، فلا شغل في الصلاة لغير ذكر الله والخشوع له والتجرد لذكره.(٢)

ويقول تعالى في صفة الخاشعين في صلاتهم بأنهم مؤمنين كاملي الإيمان ، وأنها سبب لفوزهم وفلاحهم، لأنهم فرغوا قلوبهم من مشاغل الدنيا ، وهم في صلاتهم يقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى، بل لقد سكنت جوارحهم بذكره تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾(٣)

إن الغرض من العبادات إنما هو الخشوع لله سبحانه باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، أما الصلاة فهي أهم أركان الدين الإسلامي فقد فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده ليعبدوه وحده ، لا يشركوا معه أحدا من خلقه في عبادته ، فالصلاة فرض محدود بأوقات لا يجوز الخروج عنها ، فالصلوات الخمس تطهر النفوس وتنظفها من الذنوب والآثام، إن الغرض الحقيقي من الصلاة إنما هو تعظيم

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٣٨ .

(٢) باختصار من ظلال القرآن سيد قطب ج١ ، ص ٢٥٨ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية ١، ٢ .

الإله فاطر السموات والأرض بالخشوع له ، والخضوع لعظمته الخالدة، وعزته الأبدية ، فلا يكون المرء مصليا لربه حقا إلا إذا كان قلبه حاضرا مملوءا بخشية الله وحده ، فلا يغيب عن مناجاته بالوسواس الكاذبة أو الخواطر الضارة، ومن يقف بين يدي خالقه وقلبه على هذه الحالة ذليلا خاشعا ، خائفا وجلا من جلال ذلك الخالق القادر القاهر، ذي السطوة التي لا تحد ، والمشيئة التي لا ترد فإنه بذلك يكون خاشعا مستقيما قويا في علاقته مع ربه.([1])

([1]) بتصرف من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، عبد الرحمن الجزيري طباعة دار الفكر بيروت ط أولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م ، ج١ ص ١٦٠ وما بعدها.

المبحث الرابع :

أثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع:

الصلاة هي الرباط الروحي الذي يصل المسلم بربه بعد الإيمان بـه تعـالى ولذا قال تعالى ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ على معنى وأقم الصلاة لتذكرنـي ، وهـي نور يشرف في جنبات النفس الإنسانية ، فيجعل المسلم ينظر إلـى الحيـاة نظـرة خاصة به أساسها الفهم عن الله، والوقوف عند حدوده، وتعظيم ما عظم الله،وتحقـير ما حقره، فلا يتلوث بشئ يدنسه ، ولا يرتع في شهوات يعلم أنها تجلب عليه مقـت الله وغضبه.

يقول تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غـير ذي ذرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من النـاس تـهوي إليـهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾(١)

يقول ابن كثير :"جعل الله بيته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنـده ، ربي إني فعلت ذلك بأمرك لكي يؤدوا الصلاة بحدودها ، وارزقهم حتى يشكروا لـك عظيم نعمك ".(٢)

إن اتباع الهوى والشيطان يجعل الناس يتركون الصلاة ويفوتونها عن وقتـها ، ويتركوا أركانها وواجباتها ، ويتبعون ما يوافق شهواتهم ويلائمها ، فسوف يلقـون شرا وضلالة وخيبة، لأن ترك الصلاة واضاعتها أثر في سلوكيات هؤلاء الأفـراد فانحرفوا عن جادة الطريق ، فوقعوا بذلك في المهالك الموصلة لجهنم وبئس المـهاد

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ،ج٤ ، ص٥١٣ .

قال تعالى:﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾(١)

وقد وعد الله الجماعة المؤمنة بالنصر والتمكين في الأرض، فلما تحقق لهم ذلك ، واستخلفهم الله في الأرض بإظهارهم على عدوهم ، أقاموا الصلاة ،مداومين عليها ، محافظين عليها، خاشعين فيها، وبإقامة الصلاة بالكيفية المطلوبة أثرت الصلاة على سلوكهم فأحكموا الشريعة، وأتمروا بأمر الله، وانتهوا عن نهيه، فلذلك كانوا أهلا لتمكين الله لهم بإقامة الشعائر التعبدية والحفاظ على المجتمع طاهرا قويا متماسكا في وحدته الإسلامية محتكما إلى شريعة الله تعالى القائل:﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة واءتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(٢)

ويقول تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾(٣)

إن المحافظة على الصلاة تنهى صاحبها عن الوقوع في المعاصي والمنكرات ، وذلك لأن المقيم لها ، المتمم لأركانها وشروطها يستنير قلبه، ويزداد إيمانه ، وتقوى رغبته في الخير ، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر ، ولذكر الله في الصلاة وغيرها أعظم وأكبر وأفضل من كل شيء.(٤)

---

(١) سورة مريم ، آية ٥٩ .

(٢) سورة الحج ٤١ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٤٥ .

(٤) التفسير الميسر ، ص ٤٠١ .

ويقول تعالى في سورة المعارج مبينا أثر الصلاة في حياة المجتمع المسلم وكيف أن إقامة الصلاة تقي المجتمع من الشرور والمهالك قال تعالى:﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾(١)

الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه وهؤلاء هم المصلون المحافظين على الصلاة في أوقاتها، فهم دائمون على صالح الأعمال، لأن أحب الأعمال إلى الله أدومها، فعلينا بالصلاة لأنها خلق المؤمنين الحق.(٢)

والصلاة إلى جانب ذلك كله رباط اجتماعي نظيف طاهر قوي ، فالمسلم حين يلتقي بأخيه المسلم في المسجد على هدف واحد هو إرضاء الله تعالى ، ثم يقف بجواره في صف الصلاة ، ويشاهده بين الحين والحين ، ذاهبا إلى المسجد، وواقفا مثله بين يدي الله ، فإن ذلك يشد كل مصلى إلى أخيه ليتعارفا، ويتآلفا ، ويتشاركا وجدانيا وعاطفيا، وبذلك توجد بينهما وحدة من صنع الله وضاءة بريئة، ذات أثر إيجابي حين يصدق هذا الإخاء ، وتستمر هذه الوحدة الإسلامية الأصيلة، والصلاة نظام ونظافة ، وعمل وحركة ، وعلم وتطبيق ، وتراحم وتعاطف ، وتربية نفس وقوة روح، واتزان واعتدال، فما أجدر أن تسمى الصلاة حياة الفرد المسلم وحياة المجتمع المسلم، فهي بحق مدرسة التربية الإسلامية العالية التي تربي الفرد والمجتمع على حد سواء .(٣)

---

(١) سورة المعارج ، من الآية ١٩ – ٢٣ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٨ ، ص ٢٢٦ .

(٣) بتصرف من كتاب تعليم الطهارة والصلاة الشيخ حسن أيوب طباعة دار العلم الكويت الطبعة الخامسة ١٣٩٧هـ ، ص ١٠ وما بعدها.

المبحث الخامس:

الثواب العظيم لمقيمي الصلاة:

أعد الله سبحانه وتعالى ثوابا عظيما للمقيمين للصلاة ، الدائمين عليها المحافظين والخاشعين، أجر الصلاة كبير وكثير وعظيم ، ثواب جزيل وأجر دائم غير منقوص ولا ممنوع ولا مقطوع ،فمن أجر الصلاة العاجل في الدنيا أنها تبعث في نفس صاحبها الأمن والطمأنينه، وفي الآخرة الثواب الموصل لجنات الله ورضوانه.

يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم لا هم يحزنون﴾(١)

إن الله سبحانه وتعالى يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاح والعبادة والتعاون ، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده ، ويعدهم بالأمن فهم لا يخافون وبالسعادة فلا يحزنون، وهذا رخاء عظيم لمن آمن بالله وربط حياته بالعمل الصالح وبالصلاة التي هي عماد الدين فما أعظمه من أجر وما أجزله من ثواب.(٢)

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾(٣)

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٧٧ .

(٢) ظلال القرآن ، ج١ ، ص ٣٢٩ .

(٣) سورة النساء ، آية ١٦٢ .

الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع ،والمؤمنون بما أرسل بـــه محمدا ﷺ ، ويقيمون الصلاة معترفون بوجوبها وكتابتها عليهم، أولئك المتصفـــون بهذه الصفات سيؤتيهم الله تعالى الأجر العظيم يعني الجنة.([1])

إن الذين يؤمنون بالله ويتمسكون بما أنزل من البينات ويقيمون الصلاة، لـــن يضيع أجرهم عند الله فهو محفوظ ومدخر عنده سبحانه وتعالى﴿والذيـــن يمســـكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المحسنين ﴾([2])

الذين يدامون على الصلوات المفروضة في أوقاتها، وينفقون أموالـــهم فـــي سبيل الله، هم المؤمنون حقا ظاهرا وباطنا بما أنزل الله عليهم، لهم منـــازل عاليـــة عند الله، وعفو عن ذنوبهم ورزق كريم وهو الجنة ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربـــهم ومغفـــرة ورزق كريم ﴾([3])

ويقول تعالى في سورة التوبة : ﴿إنما يعمر مساجد الله من ءامن بالله واليـوم الآخر وأقام الصلاة واءتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئـــك أن يكونـــوا مـــن المهتدين﴾([4])

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية :"في الآية دليل بشـــهادة الإيمـــان الصحيحة لعمار المساجد، لأن الله سبحانه وتعالى ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها ،

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج١ ، ص ٧٧٨ .

([2]) سورة الأعراف ، آية ١٧٠ .

([3]) سورة الأنفال ، آية ٣،٤ .

([4]) سورة التوبة ، آية ١٨ .

ولم يخش إلا الله مما يعبد ، فلم يخف في باب الدين إلا الله، فخليق بهم ، وعسى من الله واجبة أن يكونوا من المهتدين.([1])

والصابرين على الأذى،وعلى الطاعة، وعن المعصية طلبا لرضى ربهم، وأدوا الصلاة على أتم وجوهها ، وزكوا ، وأنفقوا ودفعوا بالحسنة السيئة تمحوها ، أولئك الموصفون بهذه الصفات لهم العاقبة المحمودة في الآخرة ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾([2])

ويقول تعالى في سورة النور: ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾([3])

رجال لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لمستحقيها، يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب بين الرجاء في النجاة والخوف من الهلاك، وتتقلب فيه الأبصار ، ينظر إلى أي مصير تكون ؟ ليعطيهم الله ثواب أحسن أعمالهم، ويزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ، بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله وبلا عدد ولا كيل.([4])

إن الذين يقرؤون القرآن، ويعملون به،وداوموا على الصلاة في أوقاتها، والمنفقين بالليل والنهار، سرا وعلانية ، ويرجون بذلك العمل تجارة مع الله رابحة لا تكسد ولا تكهل ، وهي رضا الله ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، هؤلاء سيوفيهم الله

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٨ ، ، ص ٨٤ .

([2]) سورة الرعد ، آية ٢٢ .

([3]) سورة النور ، آية ٣٧ ، ٣٨ .

([4]) التفسير الميسر ، ص ٣٥٥ .

تعالى ثواب أعمالهم كاملا غير منقوص ويضاعف لهم الحسنات من فضله، إن الله غفور لسيئاتهم ، شكور لحسناتهم، يثيبهم عليها الجزيل من الثواب، يقول تعالى: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾([1])

مما تقدم في الحديث عن الصلاة ، يتبين لنا منزلة الصلاة الكبرى في الإسلام ، حيث لا تعدلها أي عبادة أخرى،فالصلاة عماد الدين، وهي الحد الفاصل بين الكفر والإيمان كما بينا،ولا خلاف بين أئمة المسلمين في كفر من ترك الصلاة منكرا لوجوبها، أما إذا كان تركه لها تكاسلا مع اعتقاده لوجوبها يعتبر فاسقا وعاصيا يحمل ويستتاب عليها، حتى يعود للصلاة ، وعرفنا أن الصلاة هي دعامة كل الأديان، وقد كانت الصلاة أقدم عبادة لأنها من مستلزمات الإيمان ، والصلاة هي طريق النجاح والسعادة في الدارين، إن صلاها المسلم بخشوع ، فالخاشع هو الذي يخضع قلبه ، ويسيطر عليه الرهبة والخوف والرجاء ، وهو من دعائم قبول الصلاة عند الله تعالى، والصلاة ثقيلة على النفوس باستثناء الذين خشعت قلوبهم وحرصت على القربى من الله.

يقول الشيخ عفيف طبارة في كتابة روح الصلاة متحدثا عن خصائص الصلاة:"فالصلاة في الإسلام بما تحتويه من مراقبة الله وقيام وسجود له وما تشتمل عليه من معاني القربى له، تربط المصلي بخالقه وتشعره بعلو مكانته في نظر نفسه حتى يرى من آثار الكرامة ما يستقذر معه الإتيان بالقبائح ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر "([2])

([1]) سورة فاطر ، آية ٢٩، ٣٠ .

([2]) روح الصلاة في الإسلام للشيخ عفيف عبد الفتاح طبارة طباعة دار العلم للملايين بيروت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م الطبعة الخامسة ، ص ٣٢ .

وبعد فإن الصلاة هي عماد الدين لا يقوم الدين إلا به، فهي رأس الأمر في الإسلام ، فهي الذكر الدائم، وقد بلغ عناية الإسلام بالصلاة بالمحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصلاة من الأمور الكبرى التي تحتاج إلى هداية خاصة، وترك الصلاة جحودا بها وإنكارا لها كفر وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، أما من تركها مع إيمانه بها واعتقاد فرضيتها، ولكن تركها تكاسلا أو تشاغلا عنها، بما لا يعد في الشرع عذرا فهو كافر يجب قتله،مع أن أبو حنيفة ومالك والشافعي على أنه لا يكفر، بل يفسق ويستتاب وعارضوها ببعض النصوص العامة.([1])

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المقيمين للصلاة المداومين والمحافظين عليها.

([1]) فقه السنة العبادات للشيخ السيد سابق ، دار البيان ، مصر الطبعة الثانية ١٤١١هـ-١٩٩٠م ، ج١ ، ص ٩٠ .

المحاضرة العاشرة

بر الوالدين في القرآن الكريم:

إن أعظم الواجبات على العباد بعد واجب العبودية لله هو واجب بر الوالدين والذي يطيل النظر في نصوص الكتاب والسنة يتبدى له هذا واضحا جليا من خلال النصوص وقد أظهرت النصوص القرآنية عظم هذا الواجب ، وأبانت أن حق الوالدين يأتي بعد حق الله تعالى مباشرة.

عناية القرآن الكريم بالوالدين وبيان حقوقهما:

لقد أبرز القرآن الكريم عناية فائقة بالوالدين وبرهما وحقوقهما وذلك في صورة عديدة هي الإحسان، والكلمة الطيبة، والتواضع ولين الجانب معهما، والدعاء لهما، وطاعتهما في غير معصية الله وسنتناول هذه الصورة حتى نتعرف على بر الوالدين في القرآن الكريم.

الصورة الأولى:

الإحسان إليهما:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾(١)

في الآية دليل على الإحسان للوالدين وهم أحق الناس بحسن الصحابة من أولى القربى والأولاد وغيرهم.

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار

---

(١) سورة البقرة ، آية ٨٣ .

الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾([1])

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ، ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته، ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله سبحانه جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود ، وكثيرا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين ومن الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القربات من الرجال والنساء.([2])

ويقول تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾([3])

يقول الإمام القرطبي رحمه الله ونفعنا بعلمه:"قوله تعالى ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما، وإحسنوا بالوالدين إحسانا"([4])

أمر الله سبحانه وتعالى بعبادته، ونهى عن الشرك به ، ويستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء ، إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات ، فيجد الأبناء كل اهتمام من

([1]) سورة النساء ، آية ٣٦ .

([2]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج١ ، ص ٦٥٦ .

([3]) سورة الأنعام ، آية ١٥١ .

([4]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج٧ ، ص ١١٧ .

الوالدين ، فإذا هما صارا إلى شيخوخة فانية إن أمهلهما الأجل، هنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله، فإذا بلغ الوالدان الكبر والضعف فلا ينبغي للولد أن يشعرهما بالضجر والضيق، وأن يكون كلامه لهما بشيء من الإكرام والاحترام ، وأن يرحمهما ويتلطف ، فلا يرفع عينا، ولا يرفض أمرا، وهما في حالة الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان، عليه أن يتوجه إلى الله بالدعاء لهما أن يرحمهما رحمة واسعة ، فالله وحده هو القادر على جزاء الوالدين مما لا يقدر على جزائه الأبناء.([1])

يقول تعالى في بيان تلك المعاني المتقدمة من الإحسان للوالدين:﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾([2])

ويقول تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾([3])

أوصى الله الإنسان -فيما أنزل على الرسول الكريم ﷺ -بوالديه أن يفعل بهما حسنا وخيرا، وقيل إن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص لما هاجر قالت

([1]) انظر ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج٤ ، ص٢٢٢٢ .

([2]) سورة الإسراء ، آية ٢٣،٢٤ .

([3]) سورة العنكبوت ، الآية ٨ .

أمه : والله لا يظلني بيت حتى ترجع، فأنزل الله في ذلك أن يحسن إليهما ، ولا يطيعهما في الشرك.([1])

ويقول تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾([2])

ووصينا الإنسان أن يحسن في صحبته لوالديه برا بهما في حياتهما، وبعد مماتهما ، فقد حملته أمه جنينا في بطنها على مشقة وتعب، وولدته على مشقة وتعب أيضا، ومدة حمله وفطامه ثلاثون شهرا وفي ذكر هذه المشاق التي تتحملها الأم دون الأب ، دليل على أن حقها على ولدها أعظم من حق الأب، حتى إذا بلغ هذا الإنسان نهاية قوته البدنية والعقلية، وبلغ أربعين سنة دعا ربه قائلا: ربي ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمتها على وعلى والدي ، واجعلني أعمل صالح ترضاه، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك من ذنوبي، وإني من الخاضعين لك بالطاعة، والمستسلمين لأمرك ونهيك المنقادين لحكمك.([3])

الصورة الثانية:

الكلمة الطيبة وحسن المعاملة:

ومنهج القرآن الكريم في بر الوالدين مترابط النسق والبيان في صور إرشادية وتوجيهية وتربوية عظيمة، ومن هذه الصور : الكلمة الطيبة للوالدين ، والمعاملة الحسنة الكريمة، كما جاء في سورة الإسراء :﴿وقضى ربك ألا تعبدوا

([1]) جامع البيان للطبري ، ج١١ ، جزء٢١ ، ص١٣١ .

([2]) سورة الأحقاف ، آية ١٥ .

([3]) التفسير الميسر ، ص ٥٠٤ .

إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لـــهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ﴾[1]

ينهى الله الأبناء في معاملة الوالدين عن التأفف الذي هو أدنى مراتب القـول السيء ، فلذلك كان الضجر والكلمة السيئة أشد نهيا، وفي مقابل ذلك الإحسان والـبر والكلمة الطيبة والتقدير والاحترام مع الرأفة والرحمة بهما.

ويقول تعالى في سورة لقمان: ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليـــس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلـى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[2]

وإن كان الوالدين على الشرك فإن الله يأمر بعدم طاعتهما فـــي الشـــرك ولكن مع ذلك لابد من مصاحبتهما في الدنيا بالطاعة كما تشير الآية الكريمة.

الصور الثالثة:

التواضع ولين الجانب:

يأمر الله تعالى الأبناء بأن يكونوا ذليلين متواضعين بالوالدين رحمة بـهما ، وأن يطلبا من الله أن يرحمهما برحمته الواسعة لكل شيء ، الأحياء والأموات، كمـا صبرا على تربيتهم أطفالا ضعافا لا حول لهم ولا قوة : ﴿واخفض لهما جناح الـذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغير ﴾[3]

ويقول تعالى في سورة لقمان :﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنـــا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾[4]

---

(1) سورة الإسراء ، الآية ٢٣ .

(2) سورة لقمان ، الآية ١٥ .

(3) سورة الإسراء ٢٤ .

(4) سورة لقمان آية ٢٤ .

يأمر الله تعالى الإنسان ببر والديه والتواضع لهما، فأمه حملته ضعفا على ضعف وشدة على شدة، وهن الولد على وهن الوالدة وضعفها، وفطامه في انقضاء عامين، أن يشكر لله نعمه ، وولوالدين تربيتهما، فلابد من برهما ولين الجانب لهما، لما لقياه من العناء والمشقة في طفولة وصبا الأبناء .[1]

الصورة الرابعة:

الدعاء لهما:

من صور البر التي ذكرها القرآن الكريم الدعاء للوالدين بالرحمة والصحة والعافية والخير ، وأن يستمر هذا الدعاء مدة حياتهما، وبعد مماتهما قال تعالى في سورة إبراهيم:﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[2]

إنه مشهد الدعاء الخاشع الضارع، ومشهد تعداد النعم والشكر عليها ،يدعو الله أن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم القيامة.

ويقول تعالى في سورة الإسراء :﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾[3]

ومن صور الدعاء للوالدين في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الشعراء :﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾[4]

ويقول تعالى في سورة نوح عليه السلام:﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا﴾[5]

---

(1) انظر جامع البيان للطبري ، ج١ ، ص ٧٠ .

(2) سورة إبراهيم ، آية ٤١ .

(3) سورة الإسراء آية ٢٤ .

(4) سورة الشعراء ، آية ٨٦ .

(5) سورة نوح ، آية ٢٨ .

لقد دعا نوح عليه السلام له ولوالديه وشمل بدعاءهما الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات، ولهذا يستحب فعل هذا الدعاء، اقتداء بنوح عليه السلام وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة.([1])

إن الدعاء للوالدين هو منهج الأنبياء والصالحين ، وإن هذا الدعاء يجب أن يستمر من الأبناء للوالدين إلى ما بعد وفاتهما، لأن السنة النبوية أوضحت أن بر الوالدين يكون بعد وفاتهما أيضا، وذلك بالاستغفار لهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما وقضاء الديون التي على الوالدين للعباد ولرب العباد ، روى مسلم في صحيحه عن بريدة بن الحصب رضي الله عنه قال:"بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته إمرأة فقالت : إني تصدقت على أمي بجارية، وإنها ماتت فقال : وجب أجرك وردها عليك الميراث، قالت: يا رسول الله، إنها كانت عليها صوم شهر، أفأصوم عنها ؟ قال صومي عنها ، قالت أنها لم تحج قط ، أفاحج عنها ؟ قال حجي عنها "([2])

الصورة الخامسة:

حدود طاعة الوالدين:

طاعتهما في غير معصية الله:

يجب طاعة الوالدين في كل الأمور المباحة فعلا أو تركا دون ضر أو هلاك محقق، فإذا أمر الأب ولده بمعصية سواء كانت تركا لواجب أو فعلا لمحرم

([1]) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٨ ، ص ٢٣٧ .

([2]) رواه مسلم والترمذي وأبو داود، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة الحلواني ، مصر ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م، ج١٠،ص٤٠٤ .

فلا طاعة له ، قال تعالى:﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾(١)

لا طاعة للوالدين في ترك الفرائض جميعها بما في ذلك الجهاد في حالة الكفاية، ولا يحل للابن طاعة الوالد الكافر إذا أمره بالكفر والشرك والعصيان ، ولكن لا يجوز للابن مقاطعة والديه وهجرهما، وترك الإحسان إليهما بل يأمر الإسلام في مثل هذه الحال بمصاحبتهما في الدنيا معروفا.

قال تعالى:﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٢)

مما تقدم يتضح لنا أن الناس في بر الوالدين فريقان: فريق استجاب لربه وعبده وأطاعه، واحسن إلى والديه، ويصور القرآن هذا النمط من البشر وقد بلغ سن الأشد ، وهي السن التي تكتمل فيه قوى الإنسان الفكرية والعقلية ، وتصبح موازينه ومقاييسه أكثر دقة واتزانا، فإذا به يتوجه إلى ربه تبارك وتعالى، متوسلا إليه، بأن يلهمه شكر نعمته التي أنعم عليه وعلى والديه، والنعمة هنا هي النعمة الكبرى نعمة الإيمان، والالتزام بالمنهج الإلهي الذي يقود للتي هي أقوم ، ومع الإيمان نعم كثيرة في النفس وفي الوالدين والأهل ، ونعم الله التي لا تحصى، إن هذا الصنف كما أبان القرآن هو الصنف الفاضل الذين أستقام بهم الطريق، فأعمالهم الصالحة مقبولة لأنها خالصة لله، قائمة على أساس متين، وهو التوحيد والإسلام.(٣)

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٨ .

(٢) سورة لقمان ، الآية ١٥ .

(٣) انظر مسائل في فقه الكتاب، والسنة د/عمر سليمان الأشقر ، ص ٦٧ وما بعدها.

والفريق الاخر: هو ذلك العاق لوالديه المكذب بالبعث والنشور، المستعلي على الحق، إنه يواجه والديه بما لا يليق فيقول: أف لكما، ثم هو يكذب بالإيمان، ويطعن في والديه بالعقوق، ولكن الوالدين المؤمنين المشفقين مع عقوقه لهما ، يتوجهان إلى الله تعالى طالبين منه لإبنهما الهداية ، لذا كان عقوق الوالدين من أكبر الكبائر واعظم الذنوب.

إن الإساءة إلى الوالدين وعدم الإعتراف بفضلهما إنحراف عن الفطرة السوية، ونجد في عصرنا الحاضر كثير من الابناء يقومون بطرد الوالدين من منازلهم وسكناتهم بطريقة مخجلة وهي الذهاب بهم إلى دار العجزة والمسنين ، إنها دار الهلكة والعاقين،أما الإحسان إلى الوالدين فهو من الفطرة السوية التي فطر الله العباد عليها.

إن الإحسان إلى الوالدين واجب في كل وقت ، ولكنه يتأكد حال كبرهما وعجزهما ، لأن حالة الكبر هي الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره، لتغير حالهما بالضعف والكبر، فيجب أن يلتزم الإنسان في هذه الحالة مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل ، ففي هذه الحالة يحتاجان أن يلي منهما ما كان يحتاج إليه في صغره أن يليا منه،والوصية بالأم أقوى وأشد من الأب ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل البر والإحسان إلى الوالدين.

المحاضرة الحادية عشرة

الصبر في القرآن الكريم:

الصبر هو زاد المؤمن في حياته ، الموصل لرضوان الله تعالى صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية، وصبر في الشدائد والبلاء لذا كانت مجالات الصبر في الحياة كثيرة ومتعددة، يخبرنا القرآن الكريم أن مخالطة الناس يحتاج إلى صبر، والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى الصبر ، وطلب العلم من دراسة وتعلم وبحث علمي تحتاج إلى صبر ، لذلك كان الصبر عظيما، وضرب لنا القرآن الكريم نماذج للصابرين من أنبياء الله مثلا، أنها روائع الصبر على البلاء.

المبحث الأول:

مجالات الصبر:

أولا : القيام بالواجبات الدينية يحتاج إلى صبر:

يقول تعالى في سورة مريم : ﴿رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا﴾([1])

فهو الله رب السموات والأرض ، وما بينهما ، ومالك ذلك كله وخالقه ومدبره ، فاعبده وحده واصبر على طاعته أنت ومن تبعك ، ليس كمثله شيء في ذاته واسمائه وصفاته وأفعاله.([2])

ثانيا: مخالطة النساء تحتاج إلى صبر:

قال تعالى في سورة الفرقان ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين ألا أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا﴾([3])

([1]) سورة مريم آية ٦٥ .

([2]) التفسير الميسر ، ص٣١٠ .

([3]) سورة الفرقان ، آية ٢٠ .

وما أرسلنا قبلك يا محمد أحدا من رسلنا إلا كانوا بشرا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وجعلنا بعضكم أيها الناس لبعض ابتلاء واختبارا بالهدى والضلال ، والغنى والفقر، والصحة والمرض، هل تصبرون؟ فتقوموا بما أوجبه الله عليكم وتشكروا له ، فيثيبكم مولاكم، أولا تصبرون وكان الله بصيرا بمن يجزع أو يصبر.([1])

ثالثا: الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر:

يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿ يا أيها الذين ءامنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾([2])

أمرهم الله أن يصبروا في جهاد أعداء الله ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والمداومة على الجهاد في سبيل الله، فمصابرة الأعداء واجبة حتى لا يكون الأعداء أشد صبرا والرباط في سبيل الله من أعلا مراتب الجهاد وهو الطريق الموصل إلى الفوز برضا الله في الدنيا والآخرة.([3])

ويقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون* واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾([4])

قوله تعالى ﴿يا أيها الذين ءامنوا إذا لقيتم فئة ﴾ أي جماعة، أمر بالثبات عند لقاء الكفار وقتالهم، وأمرهم بذكر الله عند جزع القلوب، واثبتوا بقلوبكم

([1]) التفسير الميسر ، ص ٣٦١ .

([2]) سورة آل عمران ، آية ٢٠٠ .

([3]) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج١ ، ص ٥٨٩وما بعدها.

([4]) سورة الأنفال آية ٤٥، ٤٦ .

واذكروه بألسنتكم ، فأمر بالذكر حيث يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، كما أمرهم بطاعة الله ورسوله، وألا يختلفوا ، حتى تذهب قوتهم، وأمرهم بالصبر وهو محمود في كل المواطن وخاصة في مواطن الحرب.([1])

رابعا: الدراسة والبحث العلمي يحتاج إلى صبر:

إن الحصول على العلم يحتاج إلى طول زمان مع المعلم والكتاب والقلم فلا يمكن الحصول على العلم والتزود به، والاستمرار في الزيادة فيه إلا بالبحث العلمي المتواصل، والتفكر الدائم في ملكوت الله سبحانه وتعالى القائل:﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير* ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير* ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من ءايته إن في ذلك لأيات لكل صبار شكور ﴾([2])

يزيد الله من نقصان ساعات الليل في ساعات النهار، ويزيد ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل، وسخر الشمس والقمر لمصالح خلقه ومنافعهم،كل ذلك يجري بأمره إلى وقت معلوم، وأجل محدود إذا بلغه كورت الشمس والقمر، وإن الله بأعمالكم أيها الناس من خير وشر ذو خبرة وعلم لا يخفى عليه منها شيء وهو مجازيكم على جميع ذلك ، وأن الله هو الحق دون ما يدعوه هؤلاء المشركون به، وأنه لا يقدر على فعل ذلك سواه، وكل ما دونه فله متنذل منقاد، الكبير الذي كل شيء دونه ، فله متصاغر ، يقول تعالى لنبيه ﷺ الم تر يا محمد أن السفن تجري في البحر بنعمة من الله على خلقه، ليريكم من عبره، وحججه عليكم، إن في جري الفلك في البحر دلالة على أن الله الذي أجراها هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه

([1]) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج٨ ، ص ٢٦ وما بعدها.

([2]) سورة لقمان من الآية ٢٩-٣١ .

الباطل، وخص الله هذه الدلالة للصبار الشكور دون سائر الخلق، لأن الصبر والشكر من أفعال ذوي الحجى والعقول، فأخبر إن في ذلك لآيات لكل ذي عقل ، لأن الآيات جعلها الله عبرا لذوي العقول والتمييز .([1])

خامسا: الصبر على بلاء الدنيا:

فهناك الصبر على بلاء الدنيا ونكبات الأيام ، وهذا مالا يخلو منه بر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولا سيد ولا مسود، لأنه راجع إلى طبيعة الحياة ، وطبيعة الإنسان، وما رأينا أحدا يسلم من آلام النفس ، وأسقام البدن، وفقدان الأحبة، وخسران المال، وإيذاء الناس، ومتاعب العيش ومفاجآت الدهر، وهذا النوع من الصبر هو الذي لا يخطر على بال الكثيرين .([2])

قال تعالى:﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾([3])

أخبرنا تعالى أنه يبتلى عباده، أي يختبرهم ويمتحنهم، فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، بقليل من الجوع والخوف، وبذهاب بعض الأموال، والأنفس بموت الأصحاب والأقارب والأحباب، والثمرات، بعدم الثمر والقحط، فالبشارة للصابرين عما أصابهم بقولهم إنا لله وإنا إليه راجعون، علموا أنه لايضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون

([1]) باختصار من جامع البيان للطبري ، ج١١ ، جزء ٢١ ، ص٨٤ وما بعدها.

([2]) من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم الصبر في القرآن د.يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، مصر ط ٣ ، ١٤١٠ هـ ص٣٥ .

([3]) سورة البقرة من الآية ١٥٥-١٥٧ .

في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك ، أولئك عليهم صلوات، ثناء من الله عليهم، ويأمنهم من عذابه وهم المهتدون.([1])

المبحث الثاني:

فضل الصبر وثوابه:

يوضح الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز أن من فضل الصبر أنه يورث أصحابه معية الله سبحانه وتعالى، ومن كان الله معه فقد فاز بفضل كل شيء في الدنيا والاخرة.

قال تعالى:﴿ يأيها الذين ءامنوا استعينوا بالصبر والصلواة إن الله مع الصابرين﴾([2])

ومن فضل الصبر على الصابرين ما رواه الحق في كتابه عن قصة طالوت حينما خرج بجنوده لقتال العمالقة ، وكان في ذلك امتحان لهم على الصبر بعدم الشرب من ماء النهر على شدة الحر والعطش فقد غلبت الفئة القليلة المؤمنة الصابرة بإذن الله الجماعة الكثيرة الكافرة الباغية، والله مع الصابرين بتوفيقه ونصره وحسن مثوبته ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني إلا من أغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين ءامنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾([3])

([1]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١ ، ص٢٦٩، ٢٧٠ .

([2]) سورة البقرة ، آية ١٥٣ .

([3]) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

ويقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾([1])

تحدثنا الآية أن الكثيرين من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لما نزل بهم من جروح أو قتل ، لأن ذلك في سبيل ربهم، وما عجزوا ، ولا خضعوا لعدوهم ، إنما صبروا على ما أصابهم والله يحب الصابرين.([2])

ويقول تعالى في سورة الأنفال : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ ([3])

يقول القرطبي رحمه الله :"فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين فهم يقاتلون على الثواب ، والنصر يكون مع الصبر"([4]).

إن للصابرين حسنة في الآخرة وهي الجنة،وفي الدنيا زيادة على ثواب الآخرة،وهو ما رزقهم من خير الدنيا،أو العافية والصحة أو طاعة الله في الدنيا

([1]) سورة آل عمران ، آية ١٤٦ .

([2]) التفسير الميسر ، ص ٦٨ .

([3]) سورة الأنفال ، آية ٦٦ .

([4]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ج٨ ، ص ٤٤ .

وجنته في الآخرة ، أو الظفر والغنيمة ،وقال الإمام علي رضي الله عنه :"كل أجر يكال كيلا ويوزن وزنا إلا أجر الصابرين فإنه يحثى لهم حثوا"([1])

﴿ قل يا عبادي الذين ءامنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾([2])

ويقول تعالى في سورة محمد: ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ ([3])

ولنختبرنكم أيها المؤمنون بالقتال والجهاد لأعداء الله حتى يظهر أهل الجهاد منكم، والصبر على قتال أعداء الله، ونختبر أقوالكم وأفعالكم فيظهر الصادق منكم والكاذب، فيثاب الصادقون الصابرون ثوابا عظيما.([4])

المبحث الثالث:

من روائع أمثلة الصبر على البلاء:

إن المثال الأول في الصبر على البلاء هو حبيبنا وعظيمنا نبينا ورسولنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامة عليه، سنوات الحصار الطويلة في مكة، ومكايدات الكفار والمنافقين واليهود في المدينة ، وكان حصاد هذا الصبر الجميل النصر المبين والفتح العظيم وانتشار نور الإسلام في كل أرجاء الأرض، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها

([1]) تفسير القرآن للشيخ عز الدين عبد العزيز عبد السلام السليمي الدمشقي الشافعي ، تحقيق د.عبد الله إبراهيم ، ط أولى ١٤١٦-١٩٩٦م المؤلف ج٣ ، ص٩٥ .

([2]) سورة الزمر ، آية ١٠ .

([3]) سورة محمد ، آية ٣١ .

([4]) التفسير الميسر ، ص ٥١٠ .

إلا هالك ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا﴾(١)

ومن أمثلة الصبر على البلاء صبر إبراهيم عليه السلام ، إنه صبر أولي العزم من الرسل قال تعالى في سورة الصافات: ﴿ رب هب لي من الصالحين * فبشرنه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يأبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين* فلما أسلما وتله لجبين * وندينه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين ﴾(٢)

وهذا نموذج رفيع من نماذج الصبر، لأنه يمثل الصبر على طاعة الله فيما أمر، مهما يكن وراءه من مخاطر وتضحيات ، فقد رأى الخليل إبراهيم صلوات الله عليه في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي، ففهم الإشارة، وعرف المراد، فجاء بإبنه المطلوب وعرض عليه الأمر ، في غاية من الإيجاز والسهولة، ولكنه يتضمن أمر في غاية الخطر وهو بذل الحياة والروح طاعة لله، لقد كان موقف الفتى إسماعيل عليه السلام وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين ، بعد أن اشتد ساعده وصلب عوده ونضر شبابه، لقد حسم الموقف بجملتين قالهما لأبيه، خلدتاه في سجل الأنبياء الصابرين، وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين ، يا أبت أفعل ما تؤمر ، لا تأخذ برأي ، ولا تنتظر مشورتي ، بل نفذ ما عندك من أمر الله، دون هوادة ولا إبطاء، ومع ذلك لا يدعي بطولة ولا شجاعة ولا يتطاول بقدرته على التحمل ، بل يكل الأمر إلى الله، ويستند في صبره إلى إذنه ومشيئته، وإنه بهذه

---

(١) سورة الفتح من الآية ١-٣ .

(٢) سورة الصافات ، ص١٠٠-١١٠ .

المشيئة المعينة والموفقة سيدخل في زمرة الصابرين، وعند ساعة الذبح كان الابتلاء قد بلغ غايته وحقق ثمرته، لقد نجح الوالد والولد كلاهما في الامتحان ونفذ ما أمر الله به دون تردد أو ارتياب ، فجاءتهم البشرى من السماء بصدق الرؤيا، ونجاحهم في الامتحان، وذكرهم الله في كتابه وعدهم من أئمة الصابرين المحتسبين .([1])

ومن هذه النماذج العظيمة نموذج عظيم في الصبر على البلاء هو نبي الله أيوب عليه السلام الذي صبر وصابر بعزم الأنبياء:

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين* فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾([2])

قصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء ، وأيوب في دعائه لا يزيد على وصف حاله ﴿أني مسني الضر﴾ ووصف ربه بصفته ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ ثم لايدعو بتغيير حاله، صبرا على بلائه، ولا يقترح شيئا على ربه تأدبا معه وتوقيرا، فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء،ولا يتململ من الضر، وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه كانت الاستجابة وكانت الرحمة وكانت نهاية الإبتلاء رفع عنه الضر في بدنه، فإذا هو معافى صحيح، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقده منهم، ورزقه مثلهم، وقيل هم أبناؤه فوهب له مثليهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفادا ، رحمة من عند الله ومنة، والإشارة للعابدين بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وتلك تكاليف العبادة، وتكاليف العقيدة، وتكاليف الإيمان، فالعقيدة أمانة لا تسلم إلا للأمناء

([1]) انظر الصبر في القرآن للدكتور يوسف القرضاوي ، ص ٧١ وما بعدها.

([2]) سورة الأنبياء ، آية ٨٣ ، ٨٤ .

القادرين عليها، المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه ، ولا دعوى يدعيها من يشاء، ولابد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء.

ويقول تعالى في سورة ص: ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب * أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب* ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب * وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾([1])

واذكر يا محمد عبدنا أيوب وهو من سلالة يعقوب حين دعا ربه أن الشيطان تسبب له في التعب والمشقة، والألم في الجسد والمال والأهل فأمره الله أن يضرب برجله الأرض فنبع له منها ماء بارد، فشرب واغتسل منه، فذهب عنه الضر والأذى، فكشف الله عنه الضر واكرمه، ووهب له أهله من زوجة وولد، وزادهم مثله بنين وحفدة ، كل ذلك رحمة من الله، واكراما له على صبره، وعبرة وذكرى لأصحاب العقول السليمة، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج وكشف الضر، وأمره الله أن يأخذ بيده حزمة شماريخ، فاضرب بها زوجك إبرار بيمينك، فلا تحنث لأنه أقسم على ضربها مائة جلدة على خطأ ارتكبته . لقد كان أيوب صابرا على البلاء ، نعم العبد أيوب الصابر، الكثير الرجوع إلى طاعة الله.([2])

([1]) سورة ص من الآية ٤١-٤٤ .

([2]) انظر التفسير الميسر ص ٤٥٥، ٤٥٦ .

المحاضرة الثانية عشرة

أثر المعاصي على الأمم في القرآن الكريم

المبحث الأول:

تحذير القرآن الكريم من المعاصي:

لقد حذر القرآن الكريم في كثير من آياته من ارتكاب المعاصي التي تجعل العبد في عداد العصاة المذنبين، وتخرجه من دائرة عباد الله الطائعين العابدين يقول تعالى في سورة يس :﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾(١)

﴿نختم على أفواههم﴾ ليعرفهم أهل الموقف فيتميزون منهم، أو لأن إقرار غير الناطق وشهادته أبلغ من إقرار الناطق، أو ليعلم أن أعضاءه التي أعانته في حق نفسه من المعصية صارت شهود عليه في حق الله، ختم على أفواههم حتى نطقت جوارحهم، وسمى كلام الأرجل شهادة لأن العمل باليد والرجل حاضرة، فعبر عن ما صدر عن الأيدي بالكلام.(٢)

ويقول تعالى في سورة فصلت:﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون* حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون* وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون* وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾(٣)

---

(١) سورة يس آية ٦٥ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ، عز الدين بن عبد السلام ، ج٣ ، ص٤٣ .

(٣) سورة فصلت من الآية ١٩-٢٣ .

ويوم يحشر أعداء الله إلى نار جهنم ترد زبانية العذاب أولهم على أخرهم حتى إذا ما جاؤوا النار وانكروا جرائمهم ، شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون في الدنيا من الذنوب والآثام، وقالوا معاتبين لجلودهم لم شهدتهم علينا ؟ أجابوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو الذي خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئا وإليه مصيركم بعد الموت للحساب والجزاء، وما كنتم تستخفون عند إرتكابكم المعاصي، خوفا من أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم يوم القيامة، ولكن ظننتم بارتكابكم المعاصي أن الله لا يعلم كثيرا من أعمالكم التي تعصون الله بها، وذلكم ظنكم السيئ الذي ظننتموه بربكم ، أهلككم فأوردكم النار، فأصبحتم اليوم من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم.([1])

إن الذي يعمل الصالحات ويطيع الله ورسوله فلنفسه ثواب عمله،ومن أساء فعصى الله ورسوله فعلى نفسه وزر عمله، وما ربك بظلام للعبيد بنقص حسنة أو يزيد سيئة:﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾([2])

ويقول تعالى محذرا من الوقوع في المعاصي:﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾([3])

ويقول تعالى في ذات السورة الجاثية:﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين ءامنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾([4])

([1]) التفسير الميسر ، ص ٤٧٩ .

([2]) سورة فصلت ، آية ٤٦ .

([3]) سورة الجاثية ، آية ١٥ .

([4]) سورة الجاثية ، آية ٢١ .

بل يظن الذين كذبوا رسل الله، واكتسبوا السيئات ، وخالفوا أمر ربهم أن نجعلهم كالذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله وعملوا الصالحات واخلصوا له العباده دون سواه ، ونساويهم بهم في الدنيا والآخرة، ساء حكمهم بالمساواة بين الفجار والأبرار في الآخرة.([1])

إن اتخاذ الهوى إلها من دون الله ، يجعل الإنسان يفعل كل كبيرة وكل معصية وكل ذنب ما دام يسير على هواه ، ويكون من الذين أضلهم الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه، فلم يسمع ولم يتعظ ولم يعتبر ، فطبع الله على قلبه وغطى بصره، فلا يرى آيات الله، ولم يوفق لإصابة الحق قال تعالى:﴿أفرأيت من اتخذ ألهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾([2])

وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى هو الباعث للمؤمنين على أعمالهم.

ويقول تعالى في سورة الحجرات:﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾([3])

﴿لعنتم﴾ لأثمتم وأهلكتم ونالتكم شدة ومشقة، ولكن الله حبب إليكم الإيمان، حسنه عندكم بما وصف من الثواب عليه، وزينة بما وعد عليه من نصر الدنيا

([1]) التفسير الميسر ، ص ٥٠٠ .

([2]) سورة الجاثية ، آية ٢٣ .

([3]) سورة الحجرات ، الآية ٧ .

وثواب الآخرة، وقبح إليكم الكفر والفسوق والعصيان بما وصف عليه من العقاب ، فالفاسقون هم الكاذبون الخارجون عن طاعة الله.([1])

ويقول تعالى في سورة الجن: ﴿ إلا بلاغا من الله ورسالته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾([2])

"يقول تعالى إنما أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبدا، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها"([3])

إن الإنسان الذي يقع في المعاصي وإن كانت صغيرة في حجم الذرة ،مثل وزن النملة الصغيرة شرا، سيجد عقابه في الآخرة قال تعالى:﴿ومن يعمل مثقال درة شرا يره ﴾([4])

ويقول الإمام ابن القيم محذرا من المعاصي:"إياك والمعاصي فإنها أذلت عز ، يا لها لحظة أثمرت حرارة القلق ألف سنة، ما زال يكتب بدم الندم، سطور الحزن، فرح إبليس بنزول آدم من الجنة ، وما علم أن هبوط الغائص في اللجة خلف الدر صعود"([5])

([1]) تفسير القرآن الكريم ، عز الدين بن عبد السلام ج٣ ، ص٢١٤ .

([2]) سورة الجن ، آية ٢٣ .

([3]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٨ ، ص ٢٤٥ .

([4]) سورة الزلزلة آية ٨ .

([5]) الفوائد للإمام شمس الدين ابن القيم الجوزية طباعة دار اليقين المنصورة الطبعة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ، ص٦٣ .

المبحث الثاني:

آثار المعاصي في القرآن الكريم:

إن للمعاصي آثار وخيمة ومن ذلك زوال النعمة، ومحو البركة من الأرض ، وزال الأمن ، والعقوبة والهلاك، حفظنا الله منها ، ونتناول هذه الآثار كما جاءت في آيات القرآن الكريم.

الأثر الأول: زوال النعمة:

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾(١)

تقرر هذه الآية عدل الله تعالى في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها، ومن الجانب الآخر، يجعل التغير القدري في حياة الناس مبنيا على التغير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم وتصور الآية حقيقة التلازم بين العمل والجزاء في حياة الإنسان ونشاطه وتصور عدل الله المطلق فلا يظلم فيها عبد من عبيده.(٢)

ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيوة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾(٣)

من عمل صالحا وهو مؤمن في فاقة وميسرة فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فمعيشته ضنك لا خير فيها وقال

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٥٣ .

(٢) باختصار من تفسير الظلال ، سيد قطب ، ج٣ ، ص ١٥٣٥ وما بعدها .

(٣) سورة النحل ، آية ٩٧ .

مجاهد: هي الجنة وقال :لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة ﴿ولنجزينهم أجرهم﴾ بالرضا والأجر في الأخرة.([1])

ويقول تعالى في سورة الجن: ﴿وأن لو أستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾([2])

لو استقام الإنس والجن على ملة الإسلام لوسعنا عليهم أرزاقهم ولبسطنا لهم في الدنيا، وإنما خص الماء الغدق بالذكر ، لأنه أصل المعاش وكثرته أصل السعة، وحيثما كان الماء كان المال وحيثما كان المال كانت الفتنة، أن الخصب والسعة لا يوجدان إلا حيث توجد الطمأنينة والعدل، ويزول الظلم، ويكون الناس سواسية في نيل الحقوق، فلا ظلم ، ولا إرهاق، ولا محاباة إن استقاموا ولم يفعلوا المعاصي وإلا فإن عاقبة أمرهم خسرا.([3])

الأثر الثاني من آثار المعاصي:

محو البركة من الأرض:

قال تعالى :﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾([4])

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج١ ص ١٥٤ .

([2]) سورة الجن ، آية ١٦ .

([3]) تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي طباعة دار إحياء التراث العربي بيروت مجلد ٢٨-٣٠ جزء ٢٩ ص١٠١ .

([4]) سورة المائدة آية ٦٦ .

ويقول تعالى في سورة الأعراف :﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾(١)

ولو أن أهل الكتاب عملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أنزل عليك يا محمد وهو القرآن الكريم، لرزقهم من كل سبيل، فأنزل عليهم المطر، وأنبتتا لهم الثمر، وهذا جزاء الدنيا،وكثير من أهل الكتاب ساء ما يعملون وضلوا عن سواء السبيل، والأرض النقية إذا نزل عليها المطر تخرج نباتا بإذن الله ومشيئته، طيبا ميسرا، وكذلك المؤمن إذا نزلت عليه آيات الله أنتفع بها ، وأثمرت فيه حياة صالحة، أما الأرض الرديئة فإنها لا تخرج النبات إلا عسرا رديئا لا نفع فيه ، ولا تخرج نباتا طيبا، وكذلك الكافر الذي لا ينتفع بآيات الله.(٢)

ويقول تعالى في سورة الطلاق:﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا * فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾(٣)

ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب أي من جهة لا تخطر بباله، ولو أن الناس كلهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم ، كما قال النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري ، وهي آية في القرآن كما

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٨ .

(٢) التفسير الميسر ، ص ١١٩ ، ١٥٩ .

(٣) سورة الطلاق من الآية ١-٣ .

قاله ابن مسعود "فرجا" ، ومن يتق الله ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة ، ومن كل شيء ضاق على الناس ، من حيث لا يدري ، ومن حيث لا يرجو ولا يأمل، والله منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه.([1])

ويقول تعالى في سورة نوح: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا* يرسل السماء عليكم مدرارا* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾([2])

فقلت لهم سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم وعبادة ما سواه من الألهة، ووحدوه وأخلصوا له العبادة، ﴿إنه كان غفارا﴾ لذنوب من أناب وتاب منها، متى صدقت العزيمة، وخلصت النية، وصحت التوبة فضلا منه وجودا وإن كانت كزبد البحر، ولما كان الإنسان مجبولا على محبة الخيرات العاجلة، أعلمهم أن إيمانهم بالله يجمع لهم إلى الحظ الأوفر في الآخرة، الخصب والغنى، وكثرة الأولاد في الدنيا، ومن ثم وعدهم بخمسة أشياء:يرسل السماء عليكم متابعا، فتزرعوا ما تحبون، ويكثر الخصب والغلات النافعة لكم في معاشكم، ومن حبوب وثمار ،وتحدث لكم طمأنينة وأمن وراحة لتوافر ما تشتهون ؛ مما هو سبب السعادة والهدى، ويكثر لكم الأموال والخيرات على سائر ضروبها واختلاف ألوانها، ويكثر لكم الأولاد ، ويوجد لكم بساتين عامرة تأخذون من ثمارها ما به تنتفعون ، ويجعل لكم أنهارا جارية بها يكثر الخصب والزرع.([3])

([1]) باختصار من تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج٨ ، ص١٤٥ وما بعدها.

([2]) سورة نوح من الآية ١٠-١٢ .

([3]) تفسير المراغي ج٢٨ -٣٠ جزء ٢٩ ، ص ٨٣ ،٨٤ .

ويقول تعالى في سورة الليل: ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى* وأما من بخل واستغنى* وكذب بالحسنى* فسنيسره للعسرى* وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾(١)

تبين الآيات عاقبة كل عمل من الأعمال، فمن يعطي المال وينفقه في وجوه الخير وحمى نفسه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولم يوصل الأذى إلى الناس، وصدق بثبوت الفضيلة والعمل الطيب، وبالجنة ، فيهيأه الله لأسهل الطرق وأيسرها ، وأما من أمسك ماله أو أنفقه في شهواته ، ولم ينفقه فيما يقربه لربه، وظن أنه لا يحتاج إلى أحد فيصيبه الغرور بكثرة ماله، وكذب بوعد الله والجنة ومرنت نفسه على الشر، فيسهل الله له الخطى للعسرى، فينزل بنفسه إلى حضيض الآثام وأوحال الخطيئة فلن ينفعه ماله إذا هوى إلى أرذل العمر أو هوى في النار .(٢)

الأثر الثالث من آثار المعاصي:

زوال الأمن:

إن الأمن الغذائي، والأمن الاجتماعي، والأمن العام ، نعمة من نعم الله العظيمة على عباده، فإن هم اتقوا الله وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه وأطاعوه واطاعوا رسوله محمد ﷺ ، كتب الله لهم الأمن الكامل الشامل﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾(٣)

---

(١) سورة الليل من الآية ٥ – ١١ .

(٢) انظر تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي ، ج٢٨-٣٠ جزء٣٠ ، ص١٧٦ .

(٣) سورة النحل آية ١١٢ .

يضرب الله مثلا بتلك القرية وهي غير معينة، أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، كانت آمنة غير خائفة، مطمئنة غير منزعجة، لا يخاف أهلها ولا ينزعجون، يأتيها رزقها واسعا من الأمكنة التي يجلب ما فيها إليها ، فكفر أهلها بأنعم الله التي أنعم بها عليهم ، وهذا الكفر منهم هو كفرهم بالله سبحانه وتعالى، وتكذيبهم رسله، فأذاق الله أهلها لباس الجوع والخوف ، فظهر عليهم الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال وما هو كاللباس بما كانوا يصنعون من المعاصي والذنوب.([1])

الأثر الرابع:

العقوبة والهلاك:

قال تعالى:﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾([2])

إنهم يريدون الدنية وقد أراد الله لهم العلية، بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق الدعاء ، فهو موفور في أي مكان ، إذا هبطوا إلى أية قرية فهو موجود فيها، أو إذا عادوا إلى مصر التي خرجوا منها، عادوا إلى حياتهم الخانعة الذليلة، حيث يجدون العدس والبصل والثوم والقثا، فضربت الذلة والمسكنة عليهم،

([1]) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية للشيخ محمد بن علي الشوكاني طباعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م ج٣ ، ص٢٠٠ .

([2]) سورة البقرة ، آية ٦١ .

وعادوا بغضب الله، بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء وعصيانهم الشديد الذي أوصلهم للإعتداء على حرمات الله وحدوده.([1])

ويقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد﴾([2])

يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير ومن شر، فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وود لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقال لشيطانه الذي كان مقرونا به في الدنيا، وهو الذي جرأه على فعل السوء ﴿بئس القرين﴾ يخوفكم الله عقابه، ثم قال جل جلاله مرجيا لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه﴿والله رؤوف بالعباد﴾ من رأفته بهم حذرهم نفسه ، رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم وأن يتبعوا رسوله الكريم.([3])

ومن يعصى الله تعالى ورسوله ﷺ بإنكاره لأحكام الله ، وتجاوزه ما شرعه الله لعباده، يدخله الله نارا فيها عذاب مهين عاقبته معصيته لله تعالى﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾([4])

([1]) انظر ظلال القرآن سيد قطب ج١ ، ص٧٤ وما بعدها.

([2]) سورة آل عمران آية ٣٠ .

([3]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج١ ، ص٤٧٧ .

([4]) سورة النساء آية ١٤ .

ويقول تعالى في سورة المائدة: ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾(١)

يخبر تعالى أنه طرد من رحمته الكافرين من بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله على داود عليه السلام وهو الزبور ، بسبب عصاينهم ، وما أنزل على عيسى عليه السلام وهو الإنجيل بسبب إعتدائهم على حرمات الله، كان هؤلاء اليهود يجاهرون بالمعاصي ويرضونها ولا ينهى بعضهم بعضا عن أي منكر فعلوه ، وهذا من أفعالهم السيئة ، وبه استحقوا أن يطردوا من رحمة الله تعالى.(٢)

ولو أن الناس في كل مكان صدقوا رسلهم واتبعوهم ، واجتنبوا ما نهاهم الله عنه، لفتح الله لهم أبواب الخير من كل وجه ولكنهم كذبوا ، فعاقبهم الله بالعذاب المهلك بسبب كفرهم ومعاصيهم﴿ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾(٣)

ويقول تعالى في سورة الأنفال متحدثا عن آل فرعون والذين كفروا من قبلهم وسوء عاقبتهم على معاصيهم ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب ﴾(٤)

الدأب العادة في تعذيبهم عند قبض الأرواح وفي القبور كعادة آل فرعون والمعنى جوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جوزي آل فرعون بالغرق، وهذا العقاب

---

(١) سورة المائدة ، آية ٧٨،٧٩ .

(٢) التفسير الميسر نخبة من العلماء ، ص١٢١ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٦٩ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٥٢ .

لأنهم كفروا واعتدوا وعصوا ، والله قوي عزيز في أخذ الظالمين، شديد العقاب بالكفار والعصاة المذنبين.([1])

ويقول تعالى في سورة الإسراء : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرنها تدميرا﴾([2])

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين ينعمون بكل سبل الراحة ، فإذا قدر لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، سلط الله هؤلاء المترفون ففسقوا فيها ، فعم فيها الفسق ، فحق عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك ، والآية تقرر محاربة الفساد والمفسدين حتى لا يكونوا سببا لهلاك الجماعة كلها.([3])

ويضع الله تعالى الميزان العادل للحساب يوم القيامة ، ولا يظلم ربك أحدا ، وإن كان هذا العمل قدر ذرة من خير أو شر اعتبرت في حساب صاحبها، وكفى بالله محصيا أعمال عباده ومجاز لهم عليها، قال تعالى في تقرير تلك المعاني:﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾([4])

ويقول تعالى في سورة النور ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾([5])

([1]) انظر جامع الأحكام للقرطبي ، ج٨ ، ص٣١ .

([2]) سورة الإسراء آية ١٦ .

([3]) باختصار من ظلال القرآن لسيد قطب ، ج٤ ، ص ٢٢١٧ وما بعدها.

([4]) سورة الأنبياء آية ٤٧ .

([5]) سورة النور آية ٢٤ ، ٢٥ .

تشهد تلك الجوارح على معاصيهم، ويوم القيامة يجزيهم جزاءهم العـــدل ، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون ويعلمـــون أن الله هو الحق المبين .[1]

ولا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله فيهم حكما أن يخـــالفوه ، بأن يختاروا غير الذي قضى فيهم، ومن يعصى الله ورسوله فقد بعد عـــن طريـــق الصواب بعدا واضحا يقوده للهلاك والعذاب جزاء معصيته لله ولرسوله﴿وما كـــان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومـــن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾[2]

إن كثيرا من الناس يكثر من الوقوع في صغار الذنوب عاصيا لله تعـــالى ، معتقدا أن تلك الصغائر لن يحاسب عليها ، ولكن القارئ المتأمل في آيـــات القـــرآن يعلم أن ميزان العدل الإلهي دقيق في إحصاء أعمال العباد وإن كـــانت مثقـــال ذرة يحاسب عليها الإنسان.

يقول الشيخ القاسمي:"فمن يعمل وزن ذرة والذرة النملة الصغـــيرة، وهـــي مثل في الصغر، وقيل الذر هو الهباء الذي يرى في ضوء الشمس إذا دخلـــت مـــن نافذة، ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه ثمة"[3]

لذا فإنه يجب على المسلم تجنب المعاصي ما ظهر منها وما بطـــن ، ومـــا صغر منها وما كبر، لأنه محاسب على كل عمل يعمله، فآثار المعاصي عاجلة فـــي الدنيا من عقوبة وهلاك ومحو بركة، وآجلة في الآخرة عذاب في جهنم أعاذنـــا الله منها.

([1]) في ظلال القرآن سيد قطب ج٤ ص ٢٥٠٥ .

([2]) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

([3]) محاسن التأويل للقاسمي ، ج١٧ ، ص ٢٢٩ .

المحاضرة الثالثة عشرة

مثال تطبيقي للوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم

تفسير سورة تفسيرا موضوعيا

تفسير سورة النور

المبحث الأول : بين يدي السورة:

سورة النور مدنية، نزلت بعد سورة الحشر وعدد آياتها أربع وستون آية، وسميت بهذا الاسم لكثرة ذكر النور فيها كقوله تعالى ﴿الله نور السموات والأرض﴾(١)

وقوله ﴿ نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴾(٢)

وقوله ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور ﴾(٣)

وقد ذكر النور في هذه السورة بلفظة متصلا بذات الله ﴿ الله نور السموات والأرض﴾، كما ذكر فيها النور بأثاره ومظاهره في القلوب والأرواح، فمثله هذه الآثار في الأداب الأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة ، وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجامعية ، تنير القلب ،وتنير الحياة وهي مستمدة كلها من ذلك النور الكبير .(٤)

ويدور موضوع هذه السورة حول التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود ، وترقي إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيعة التي تصل القلب بنور الله، وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة، وقد بدأت السورة بتقرير هذه

---

(١) سورة النور آية ٣٥ .

(٢) سورة النور آية ٣٥ .

(٣) سورة النور آية ٤٠ .

(٤) دراسات في التفسير الموضوعي د/زاهر الألمعي ، ص١٥٠ .

السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، وآداب وأخلاق ﴿سورة أنزلنا وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾[1]

فيدل هذا البدء على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية وفي نظرة الإسلام عن الحياة الإنسانية.[2]

المبحث الثاني: خصائص السورة:

أختصت سورة النور ببيان الحدود الشرعية لبعض الجنايات التي تصيب النفس البشرية وأن هذه الحدود ، هي الوسيلة الوحيدة لقمع شرور النفس الإنسانية والتي لو تركت بغير هذه الحدود لملأت الأرض فسادا وفجورا وفسوقا.

فالخاصية الأولى: هي محاربة الفاحشة "الزنا" بكل أشكاله حتى يبتعد الناس من الاقتراب منها والوقوع في شرورها.

والخاصية الثانية: هي محاربة القذف وعلة التشديد فيه حتى تصان أعراض الناس بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة. من ضعاف النفوس ، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بكل وسائل النهش في أعراض الناس ، فكان حد القذف هو الحصن الحصين من شر ألسنة الفساق.

والخاصية الثالثة: هي تميز الخبيث من الطيب، فيجمع الخبيث مع مثله، والطيب مع ما يماثله من الطيبين وتحدد هذه العلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء.

أما الخاصية الرابعة: الأداب الاجتماعية من محاربة الفوضى في العلاقة والتعامل بين الرجال البالغين والنساء البالغات ، بين المحارم وغير المحارم، فلا بد من محاربة الاختلاط بين النساء والرجال، حتى تكتمل أسباب العفة ، ويصبح

---

(1) سورة النور آية ١ .

(2) في ظلال القرآن سيد قطب ، ج٤ ، ص ٢٤٨٦ .

المجتمع طاهرا نظيفا بعيدا عن كل الشبهات ، ومصـــائد الشـــيطان العـــدو اللـــدود للإنسان والإنسانية.

والخاصية الخامسة :تحدثت عن آداب الجماعة المسلمة مع المربي والقـــدوة الرسول الكريم محمد ﷺ .

والخاصية السادسة: أشارات إلى ملك الله الواسع ، وعلمه بكل شيء، فـــلا تخفى عليه خافية ، فالناس جميعا راجعون إليه ليحاسبهم على أعمالهم التي يحصيـــها بقدرته وعلمه عليهم فيجازيهم عليها.

المبحث الثالث : أهداف السورة :

تتخلص أهداف هذه السورة فيما يلي:([1])

(١) التربية الإسلامية الهادفة لطهارة الفرد وسلامة المجتمع.

(٢) الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والقيم الروحية السامية.

(٣) الأحكام الحدية الزاجرة لشرور النفس الإنسانية ، كحد الزنـــا وحـــد القـــذف، والأحكام العامة في ثنايا آياتها البيانات.

(٤) احياء القيم الإيمانية الفاضلة التي تربط المؤمنين بنور الله .

(٥) سورة النور دعوة هادفة إلى إضاءة القلب بتعاليم السماء لتكون حصنـــا متينـــا للفرد والمجتمع من الإنحلال والتردي في الخطيئة فقد أمرت السورة بغض البصـــر ، وحفظ الفروج، ونهت عن دخول البيوت بغير إذن من أهلـــها ، وبينـــت عقوبـــة البهتان، وإلصاق التهم والإفتراء على المستقيمين من عباد الله، كما ذمـــت إشـــاعة الفاحشة ، واظهرت عجائب صنع الله في الكون، وحثت على التوبة وأبانت الطريـــق

([1]) راجع أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم د.عبد الله محمود شحاته ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦م ص ٢٥٥ .

الصحيح للإنسان ، ورفعت عنه عوامل الإحباط والإنتكاس ، وأبانت أن الله مطلع على كل شيء.

(٦) ضرب المثل بنور الله الذي أشرقت به الظلمات في السموات والأرض، النور الذي لا ندرك كنهه ولا مداه، إنما هي محاولة لوصل القلوب به، فحيثما توجه إليه القلب رآه، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه ، إنما المثل الذي ضربه الله لنوره وسيلة لتقريبه إلى المدارك ، والله نور السموات والأرض العليم بطاقة البشر، يهدي الله لنوره من يشاء.([1])

المبحث الرابع: موضوعات السورة:

تدور موضوعات سورة النور من خلال أهداف السورة الكريمة حول خمسة مواضيع في وحدة موضوعية متناسقة:

الموضوع الأول:

يتضمن بداية السورة التي فرضها الله في بيان حد الزنا ، وتفظيع هذه الفعلة، ثم بيان حد الفعلة، ثم بيان حد القذف، واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة، وتطرقت السورة إلى حادثة الأفك ، وأقرت مشاكلة الخبيثين للخبيثات، ومشاكلة الطيبين للطيبات.

الموضوع الثاني:

تناول وسائل الوقاية من الجريمة،وتجنب النفوس أسباب الإغراء والغواية، فتبدأ السورة بآداب البيوت والاستئذان على أهلها، والأمر بغض البصر، والنهي عن إبداء الزينة لغير المحارم، والحض على إنكاح الأيامى، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء ، إنها أسباب وقائية لضمان الطهر والتعفف في عالم الضمير

([1]) انظر الأمثال في القرآن محمود بن الشريف دار عكاظ جدة ، ص ٩٨ .

والشعور، ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية من صور خليعة وتفسق، وترهق أعصاب الطاهرين وهم يقاومون عوامل الإغراء والإفساد.([1])

الموضوع الثالث:

هو مجموعة الآداب التي تضمنتها السورة وربطها بنور الله، وإعمار بيوت الله بالذكر والطاعة، وفي الجانب الآخر تصف الذين كفروا وما يقومون به من أعمال، بالسراب في لمعانه وعدم حقيقته، لأنها ظلمات بعضها فوق بعض.

الموضوع الرابع:

نور الله تعالى في الآفاق ، في تسبيح الخلائق كلها بعظميته سبحانه، وفي إزجاء السحاب، وفي تقليب الليل والنهار، وفي خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يشمي على أربع، ومنهم من يمشي على بطنه، فتختلف في أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها، مما هو مشاهد في الكون للبصائر والأبصار.

الموضوع الخامس:

تحدثت السورة عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله ﷺ في الطاعة والتحاكم ، ويصور أدب المؤمنين مع ربطه بالإخلاص والطاعة، ووعد الله لهم بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين لهم ،ونصرهم على الكافرين.

الموضوع السادس:

أداب الإستئذان والضيافة، داخل البيوت بين الأهل والأصحاب، وآداب الجماعة المسلمة واحترامها وتقديرها وطاعتها واتباعها للرسول القدوة محمدﷺ .

([1]) انظر دراسات في التفسير الموضوعي د/الألمعي ص ١٥١ .

الموضوع السابع:

الله مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، رب السموات والأرض وما بينهما، العالم بواقع الناس ،وبكل شيء ، لتشير تلك العظمة الإلهية للحق تبارك وتعالى إلى حتمية العودة إلى الله، والرجوع إليه للحساب يوم القيامة.

وبعد فهذه هي سورة النور بموضوعاتها وأهدافها وخصائصها التي تناولتها، لتعطينا نموذجا واضحا من نماذج سور القرآن الكريم، الدالة على مدى إرتباط السور القرآنية بوحدة الموضوع، في تماسك وتناسق تام.

لقد أبانت هذه السورة الكريمة أن الإسلام منهاج حياة كامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها ، وفي كل علاقتها وارتباطها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثم يتولى بيان الأداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها جميعا، ويتجه بها إلى الله في النهاية، وهذه السورة (النور) نموذج من ذلك التنسيق الفريد.([1])

([1]) انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج ص ٢٥٣١ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات،كانت هذه محـــاضرات فـــي التفســـير الموضوعي، حاولنا فيها الإطلاع على أصل هـــذا اللـــون مـــن التفســـير وإبـــراز خصائصه وسماته فيما يتصل بالموضوع الواحد في القرآن الكريـــم، وقـــد كـــانت حتمية الموضوع، وطبيعة المنهج تفرض علينا أن تكون هذه الدراســـة فـــي شـــكل محاضرات نلقيها على طلاب المعرفة بصفة عامة، وطلاب العلوم القرآنية والتفسير بصفة خاصة.

وقد فرضت علينا منهجية الدراســـة ومفـــردات المقـــررات فـــي التفســـير الموضوعي أن نتناول الدراسة بمقدمة تعريفية عن تاريخ تفسير القرآن الكريم منـــذ عهد الرسول الكريمﷺ والصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم أئمة التابعين الذين تخرجوا من مدارس صحابة رسول الله ﷺ في التفسير في كل من مكـــة المكرمـــة والمدينة المنورة، والكوفة، وتحدثنا في المقدمة عـــن أســـاليب التفســـير المعروفـــة التفسير التحليلي، والمقارن ، والجملي أو الإجمالي، والتفسير الموضوعي وأشـــرنا في المقدمة إلى العناء الذي يجده دارس التفسير الموضوعي وذلك لإفتقار المكتبـــة الإسلامية لهذا اللون من التفسير، فالباحث لا يجد إلا اليسير المفرق هنا وهناك.

ومن هنا فقد اكتسب البحث أهمية في تناوله للتفســـير الموضوعـــي بكـــل أنواعه، فقمنا في المحاضرة الأولى بتعريف التفسير الموضوعي لغة واصطلاحـــا، فالتفسير الموضوعي عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عـــن موضـــوع واحد مشتركة في الهدف،فهو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خـــلال آيات أو سورة أو أكثر.

وتكلمنا عن نشأة وتطور التفسير الموضوعي والذي بدأ مع نـــزول القـــرآن على النبيﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وإن لم يكن معروفا بهذا المصطلـــح ،

وقد بدأ ظهور هذا المصطلح في القرن الرابع عشر الهجري، والمثال على ذلك تفسير آيات الأحكام، والدراسات اللغوية الموضوعية للقرآن الكريم كأمثال القرآن والأشباه والنظائر، واستمر الأمر كذلك إلى عصرنا الحاضر حيث توجهت أنظار علماء القرآن والباحثين في شتى ضروب المعرفة إلى هدايات القرآن في الإقتصاد والاجتماع ،والعلوم الكونية، بالإضافة إلى النماذج القديمة كما فعل ابن كثير رحمه الله فنجده يجمع كثير من الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد، كما فعل في الآيات التي ضرب فيها المثل.

ومن ثم تطور التفسير الموضوعي حتى أصبح علما يبحث فيه الباحثين عن كل ما يتعلق بموضوعات القرآن الكريم، كما فعل الجاحظ في إعجاز القرآن، وابن القيم الجوزية في أقسام القرآن، والبقاعي في تناسب الآيات والسور، فأسهمت كل تلك المؤلفات بشكل فاعل في نشأة التفسير الموضوعي.

وتحدثنا عن أنواع التفسير الموضوعي الثلاثة: كلمات القرآن من جمع الآيات التي تحدثت عن كلمة معينة واستعمالات القرآن الكريم لها، وجمع الآيات القرآنية التي تتناول قضية واحدة بأساليب مختلفة عرضا وتحليلا، وتحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة.

وتكلمنا عن العلاقة بين التفسير الموضوعي وأنواع التفسير الأخرى من تفسير تحليلي، وإجمالي ومقارن، وأثبتنا أنه لا غنى للباحث في التفسير الموضوعي عن أنواع التفسير الأخرى ، لأن التفسير الموضوعي هو ثمرة أساليب التفسير مجتمعة.

وتناولنا أهمية التفسير الموضوعي والذي يستطيع الباحث من خلاله أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه ،

وتكمن أهمية التفسير الموضوعي أيضا في تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها ، لأن التفسير الموضوعي يعطي مدا جديدا لإنتشار تعاليم هدى القرآن، كما يتيح الفرصة للدارسين في مختلف التخصصات من فهم القرآن الكريم.

وأبنا معنى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، فالسورة الواحدة مهما تعددت قضاياها تكون قضية واحدة، فتهدف إلى غرض واحد، وبحث تسلسل الموضوع في السورة الواحدة يقود إلى الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم من خلال سوره وآياته، فالمراد بالوحدة الموضوعية اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثرا فيؤلف وحدة موضوعية كاملة، وبعبارة أخرى البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام، كموضوع الربا أو القتال أو الخمر وتحريمه في القرآن الكريم.

وتناولنا أمثلة لمنهج الوحدة الموضوعية وبحثها من خلال القرآن الكريم ، وتمثل ذلك في الآيات المتفرقة مثل (صفات الأنبياء في القرآن الكريم) أو في سورة واحدة (الوحدة الموضوعية في سورة يوسف) أو الوحدة الموضوعية في السور القصيرة (كسورة الإخلاص) والتي تناولت موضوع الوحدانية.

أما المحاضرة الثالثة فكانت في موضوع : الولاء والبراء في القرآن الكريم، فتناولنا معنى الولاء والبراء لغة واصطلاحا بداية من الجاهلية بجميع مظاهرها من شرك ووثنية ، والمفاصلة بين الكفر والإيمان، فالولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها كما تحدثنا آيات القرآن العظيم، ولابد من وجوب موالاة المؤمنين وبالمقابل وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عدواتهم ويشمل ذلك وجوب البراء من الكفار والمشركين ، وأهل الكتاب من اليهود والنصاري ومن المنافقين ، ووجوب البراء من المحادين لله ورسوله ولو كانوا ذوي القربى،وصور التولي المنهي عنه في القرآن الكريم من صور المحبة والمودة واتخاذهم أنصارا

واعوانا، والإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، والركون إليهم، واتخذاهم بطانة من دون المؤمنين ، وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون ، والتشبه بهم ،وأبنا الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى.

وقد جاء منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم موضوع المحاضرة الرابعة ، والتي تحدثنا فيها عن نشأة إبراهيم عليه السلام ، وصفاته الكريمة وأثرها في الدعوة ، والأساليب النظرية من مناظرة ومحاجاة، ومعاريض، وإستعطاف، واستعارة الخصم، وأساليبه العملية والتي تمثلت في القدوة، والبداءة بالأهم ، والبداءة بالأقربين، واللين والشدة، والتحدي، والمفاصلة، والدعاء والتضرع إلى الله، وتحطيم الأصنام، والهجرة من مكان إلى مكان في سبيل الدعوة إلى الله، وبناء البيت العتيق، وأمتثال أمر الله بذبح إبنه إسماعيل ، فقد كان إبراهيم عليه السلام كما حدثتنا آيات القرآن إمام الموحدين وقدوة للمسلمين إلى يوم الدين.

أما منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث ، والمسالك التي سلكها القرآن من إستدلال على البعث بالنشأة الأولى ، وخلق السموات والأرض وما فيهما، والاستدلال بخروج النبات من الأرض، وغيرها من الدلائل العظيمة كقصة صاحب القرية، الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ، ولم يتغير طعامه طيلة تلك الفترة، واحياء الطيور لإبراهيم عليه السلام بعد أن مزقها إربا إربا، وقصة الملأ من بني إسرائيل الذين أماتهم الله ثم أحياهم ، وقوم موسى السبعون الذين اختارهم الله، وقصة القتيل الذي ضرب بعضو من أعضاء البقرة فعادت إليه الحياة مرة أخرى ، وإخراج النار من الشجر الأخضر، وحصول اليقظة بعد النوم، مع أن حكمة الله وعدله تقتضي البعث والجزاء كان ذلك موضوع محاضرتنا الخامسة.

وتعرضنا لمكائد الشيطان وطرق الحذر منها كما عرضها القرآن الكريم في المحاضرة السادسة، وعلمنا كيف أن الشيطان أعاذنا الله منه يزين الباطل ، ويسمي

الأمور بغير إسمها ،ويوعد ويمني الناس بواسوسه الخبيثة،ويظهر النصح للإنسان وهو لا يريد ذلك، بل يتخذه وسيلة لإغوائه، وينسى الشيطان الإنسان الخير والصلاح ، ويحاول تخويف المؤمنين من أوليائه، ويلقي الشبهات ، ويتخذ من الخمر والميسر والسحر سلاحا فتاكا في هدم الإنسان ، لكن الحق تبارك وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز كيف نرد كيده ونحذر شره وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، واللجؤ إلى الله والاحتماء به، والاستعاذة منه بكثرة ذكر الله ، أعاذنا الله منه.

ولقد خصصنا المحاضرة السابعة في الحديث عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحكمه،وعواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العذاب واللعن والطرد من رحمة الله، والصفات الي يجب أن يتصف بها الداعية من علم، وعمل ، وصبر ورفق ولين ، وتيسير وتبشير، ولذلك كله كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم قواعد الإسلام ومن أهم الواجبات الدينية والتكاليف الشرعية.

أما الجهاد في سبيل الله في القرآن الكريم فقد تناولناه في المحاضرة الثامنة فقمنا بتعريفه لغة واصطلاحا، ووضحنا حكمه، وفضل الجهاد والمجاهدين في القرآن الكريم، والأهداف التي من أجلها شرع القتال في القرآن، من رد اعتداء المعتدين ، وإزالة الفتنة عن الناس وحماية الدولة الإسلامية، وقتل الكافرين وإبادتهم حتى لا يعلو شأنهم وتفسد بهم الحياة وإرهابهم وإيهان كيدهم وإغاظتهم، كما اظهرنا فوائد الجهاد للمسلمين، وفضل الشهداء الأحياء المكرمون عند ربهم، يسيحون في الجنة تلك السلعة الغالية والتي اشتروها كما يخبرنا القرآن بأرواحهم ومهجهم وأموالهم جهادا في سبيل الله.

وفي المحاضرة التاسعة تحدثنا عن أهم أركان الإسلام بعد النطق بالشاهدتين ، إنها الصلاة عماد الدين، درسنا أدلة فرضيتها في القرآن الكريم

ومنزلتها، والخشوع فيها، وأثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع ، والثواب العظيم الذي أعده الله تعالى لمقيمي الصلاة ، المداومين عليها ، إنهم الوارثون ، ليس إرثا فانيا إنما الإرث الدائم الذي لا ينقطع الخالد إنه الفردوس الأعلى في جنات الله.

ودرسنا بر الوالدين في القرآن وكيف أن القرآن اعتنى بالوالدين وأبان حقوقهما ، والإحسان إليهما بالكلمة الطيبة، والتواضع ولين الجانب والدعاء لهما، وحدود طاعتهما في غير معصية الله ، درسنا كل ذلك في المحاضرة العاشرة من هذا السفر.

وجاءت المحاضرة الحادية عشرة في الصبر في القرآن الكريم ، فالصبر هو زاد المؤمن، الموصل لجنات الله، فحدد القرآن مجالاته المتعددة من قيام بالواجبات الدينية، ومخالطة الناس، والجهاد في سبيل الله، والدراسة والبحث العلمي، والصبر على بلاء الدنيا، وشرحنا فضل الصبر وثوابه ، وضرب لنا القرآن الكريم نماذج رائعة للصبر وذلك من خلال صبر الأنبياء والذي اخترنا منهم (محمد ﷺ وإبراهيم وأيوب عليهما السلام) إنها نماذج خالدة يقتدى بها الصابرون المؤمنون إلى يوم القيامة.

أما أثر المعاصي على الأمم وكيف أن الله تعالى حذر منها في القرآن الكريم كانت موضوع محاضرتنا (الثانية عشرة) فالمعاصي سبب في زوال النعم، ومحو البركة من الأرض ، وزوال الأمن ، والعقوبة والهلاك ، فالمعاصي والإصرار عليها والمجاهرة بها سبب رئيسي في عقوبة السماء إلى الأرض ، حفظنا الله منها.

وأقمنا مثالا تطبيقيا للوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن الكريم ، وذلك من خلال تفسير سورة تفسيرا موضوعيا تناولنا ذلك في المحاضرة (الثالثة عشرة) والأخيرة التي ذكرناها في مقدمة البحث لتأتي (سورة النور) خاتمة لمحاضراتنا

والتي استمرت عاما كاملا بحول الله وقوته، فوقفنا بين يدي السورة مستعرضين سبب تسميتها بهذا الاسم ، لكثرة ذكر النور فيها ، متناولين خواص السورة وأهدافها، وموضوعاتها السبع ، والتي تناولنا من خلالها منهجية هذه السورة المتكامل في تنظيم حياة الإنسان في تناسق آياتها عبر وحدة موضوعية شاملة.

وبعد فإننا نورد جملة من التوصيات من خلال هذه الخاتمة وهي نتيجة حتمية لدراستنا والتي كانت عبارة عن محاضرات في التفسير الموضوعي، فبعد الدراسة والبحث نوصي بالآتي:

أولا : نوصي القائمين على أمر الجامعات والكليات الجامعية سواء أكانت حكومية أو أهلية بضرورة تدريس مادة (التفسير الموضوعي) بكافة الكليات الجامعية وعلى اختلاف تخصصاتها ، لحاجة كل مسلم لفهم كتاب الله حتى يبلغه للناس كافة، فواجب الدعوة إلى دين الله وإن أوكل للقيام به للمختصين في العلوم الشرعية إلا أنه لا يعفي من المسؤولية الأطباء والفيزيائيون ، والمهندسون ، والزراعيون ، والطيارون وغيرهم من مختلف ضروب العلم والمعرفة.

ثانيا: كما نوصي كليات الدراسات العليا خاصة أقسام الكتاب والسنة ، والتفسير وعلوم القرآن الكريم، على اختلاف المسميات من جامعة إلى أخرى في تشجيع البحث العلمي في مجال التفسير الموضوعي حتى يهتم الباحثون وتظهر إبداعاتهم في هذا الجانب الهام من أساليب تفسير القرآن الكريم.

ثالثا : ندعوا ونكرر الدعوة إلى الزملاء المختصين من أصحاب الفضيلة علماء التفسير خاصة أساتذة الجامعات إلى المزيد من البحث في مجال التفسير الموضوعي حتى نثري المكتبة الإسلامية بهذا اللون من التفسير والذي نفتقر إليه كثيرا.

رابعا:نوصي دور النشر وأصحاب المطابع في بلاد الإسلام بتنشيط طباعة الكتاب الإسلامي بصفة خاصة ما يكتب في مجال التفسير حتى يؤدي ذلك بدوره إلى تنشيط الباحثين في مجال العلوم الإسلامية.

وأخيرا :أسأل الله رب العالمين أن يجعل هذا الجهد المتواضع خدمة لكتابه العزيز في ميزان حسناتنا، وأن ينفع به إخواننا من طلاب العلم في كل مكان ، هذا والله تعالى أعلا وأعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخرنا دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقد كان الفراغ من كتابة هذا البحث في الساعات الأولى من صبيحة يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان المبارك من عام ألف وأربعمائه وواحد وعشرون الموافق له التاسع والعشرون من شهر نوفمبر من العام الفين في مدينة بيشة بالمملكة العربية السعودية .

كتبه الفقير إلى الله الراجي عفو ربه

د/عباس عوض الله عباس بخيت الهمشري

أستاذ التفسير المشارك وعلوم القرآن الكريم بجامعة أم درمان الإسلامية وكلية المعلمين في بيشة.

المصادر المراجع*

القرآن الكريم

١-دراسات في علوم القرآن الكريم د/فهد الرومي.

طباعة مكتبة التوبة الرياض الطبعة الرابعة ، ١٤١٥ هـ-١٩٩٤م.

٢-مسند الأمام أحمد بن حنبل ، طباعة المكتب الإسلامي ١٣٩٨هـ.

٣-صحيح مسلم بشرح النووي طباعة مكتبة الجندي-مصر.

٤-بحوث في أصول التفسير ومناهجه للدكتور فهد الرومي. طباعة مكتبة التوبة الرياض ، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ .

٥-المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني.

٦-دراسات في التفسير الموضوعي د/زاهر الألمعي.

٧-المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبد الستار سعيد.

٨-مباحث في التفسير الموضوعي د/ مصطفى مسلم.

٩-التفسير الموضوعي د/ محمود قاسم.

١٠- صحيح البخاري طباعة دار المعرفة بيروت لبنان.

١١- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تحقيق عدنان زرزور.

١٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير طباعة دار ابن كثير دمشق.

١٣- دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني د/أحمد جمال العمري.

١٤- مجلة الأزهر الشريف عدد رمضان ١٣٧٧هـ.

١٥- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام د/حسن محمد باجودة ، طباعة دار الكتب الحديثة القاهرة.

١٦- الموافقات للإمام الشاطبي طباعة البابي حلبي وشركاه مصر.

---

* المصادر والمراجع مرتبة حسب أسبقيتها في صفحات الكتاب.

١٧- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم د/محمود محمد حجازي ، طباعة دار الكتب الحديثة مصر .
١٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
١٩- الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام رسالة دكتوراة د/عباس عوض الله عباس .
٢٠- التفسير الموضوعي د/أحمد السيد الكومي،طباعة دار الهدى مصر ١٩٨٠م
٢١- لسان العرب لابن منظور .
٢٢- القاموس المحيط للفيروز آبادي .
٢٣- المصباح المنير للفيومي .
٢٤- كتاب الإيمان لنعيم يس .
٢٥- الولاء والبراء في الإسلام للشيخ محمد سعيد القحطاني ، طباعة دار طيبة السعودية، ١٤١٧هـ .
٢٦- جامع البيان لمحمد بن جرير الطبري .
٢٧- في ظلال القرآن سيد قطب ، طباعة دار الشروق ، بيروت ،مصر .
٢٨- الاحتجاج بالقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية،طباعة المكتب الإسلامي١٣٩٣هـ
٢٩- الجامع الصغير للسيوطي .
٣٠- تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار" للشيخ محمد رشيد رضا، طباعة دار المعرفة بيروت لبنان .
٣١- محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي ، طباعة دار الفكر ،بيروت ١٣٩٨هـ
٣٢- التفسير المنير د/وهبة الزحيلي ، طباعة دار الفكر بيروت -دمشق ١٤١١هـ-١٩٩١م .

٣٣- التفسير الميسر إعداد نخبة من العلماء ، طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ١٤١٨هـ.
٣٤- مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ، عثمان جمعة ضميرية ، طباعة مكتبة السوادي جدة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
٣٥- قصص الأنبياء الشيخ عبد الوهاب النجار.
٣٦- التنبيه والإشراف للمسعودي ، طباعة مصر ١٩٣٨م.
٣٧- تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبري طباعة دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.
٣٨- حياة إبراهيم ، محمود شلبي ، طباعة دار الجيل بيروت ١٩٨٤م.
٣٩- فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ، طباعة دار الحديث مصر ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٤٠- كتاب التوحيد د/صالح بن فوزان الفوزان ، طباعة مكتب الأثير الرياض.
٤١- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، طباعة عالم الكتب بيروت.
٤٢- مسائل من فقه الكتاب والسنة د/عمر سليمان الأشقر،طباعة دار النفائس الأردن.
٤٣- مناظرات مع الشيطان "مناظرات أئمة السلف مع حزب إبليس" أبي أسامة سليم بن عبيد الهلالي، طباعة ابن الجوزي ١٤١٤هـ.
٤٤- مجموعة فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية.
٤٥- مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ، مكتبة محمد علي صبيح،مصر.
٤٦- تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت طباعة دار الشروق ،بيروت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٤٧- الحسبة في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية ، طباعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
٤٨- إحياء علوم الدين للغزالي.
٤٩- المحلى لابن حزم الظاهري.
٥٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أبو بكر الخلال.
٥١- الجهاد للدكتور محمد نعيم ياسين،طباعة مكتبة الأقصى الأردن١٤٠١هـ ١٩٨١م.
٥٢- قطر الندى وبل الصدى لأبي عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري مؤسسة الكتب الثقافية -بيروت ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
٥٣- إرشاد الساري للقسطلاني.
٥٤- الجهاد في الإسلام للشيخ صالح اللحيدان،طباعة دار اللواء الرياض ١٣٩٧هـ.
٥٥- أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية د/علي بن نفيع العلياني ، طباعة دار طيبة الرياض ١٤١٦هـ.
٥٦- السير الكبير للشيباني طباعة دار الحديث -مصر.
٥٧- أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية طباعة دار ابن القيم -دمشق.
٥٨- كتاب الأم للأمام الشافعي ، طباعة دار المعرفة، بيروت.
٥٩- هذا الدين ، سيد قطب ، طباعة دار الشروق بيروت.
٦٠- أحكام الصلاة والطهارة للشيخ محمد علي الصابوني ، طباعة دار القرآن الكريم ، بيروت ١٤١٨هـ.
٦١- الفقه على المذاهب الأربعة عبد الرحمن الجزيري، طباعة دار الفكر بيروت.

٦٢- تعليم الطهارة والصلاة للشيخ حسن أيوب ، طباعة دار القلم الكويت.
٦٣- روح الصلاة في الإسلام، عفيف عبد الفتاح طبارة دار العلم للملايين ، بيروت .
٦٤- فقه السنة العبادات / سيد سابق ، طباعة دار البيان مصر.
٦٥- جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ لابن الأثير تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني مصر ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
٦٦- صحيح الترمذي.
٦٧- سنن إبي داود.
٦٨- الصبر في القرآن الكريم د.يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبه مصر ١٤١٠هـ-١٩٨٠م.
٦٩- تفسير القرآن للشيخ عبد العزيز عبد السلام السليمي الدمشقي الشافعي تحقيق د.عبد الله إبراهيم ، طباعة المؤلف بدون الأولى١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٧٠- الفوائد للإمام شمس الدين ابن القيم الجوزيه، طباعة دار اليقين المنصورة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
٧١- تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي طباعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
٧٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للإمام محمد بن علي الشوكاني طباعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٧٣- أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم د.عبد الله شحاته طباعة الهيئة العامة للكتاب مصر.
٧٤- الأمثال في القرآن محمد بن الشريف طباعة دار عكاظ جدة.

فهرس محتويات الكتاب

المقدمة..... ١

المحاضرة الأولى: مدخل إلى التفسير الموضوعي (المبحث الأول تعريفه).. ١٠

المبحث الثاني: نشأة وتطور التفسير الموضوعي..... ١٣

المبحث الثالث: أنواع التفسير الموضوعي..... ١٩

المبحث الرابع: أهمية التفسير الموضوعي..... ٢٤

المحاضرة الثانية: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم (المبحث الأول)... ٢٧

المبحث الثاني: أمثلة للوحدة الموضوعية في القرآن الكريم..... ٣٢

المحاضرة الثالثة: الولاء والبراء في القرآن الكريم (المبحث الأول)..... ٤٢

المبحث الثاني: الولاء والبراء من مقتضيات العقيدة ولوازمها..... ٤٦

المبحث الثالث: وجوب موالاة المؤمنين..... ٥٥

المبحث الرابع: وجوب البراء من جميع أعداء الله وإظهار عدواتهم..... ٦٠

المبحث الخامس: صور من التولي المنهي عنه في القرآن الكريم..... ٧٨

المبحث السادس: الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى..... ٩٠

المحاضرة الرابعة: منهج إبراهيم عليه السلام في الدعوة كما عرضه القرآن ٩٣

المبحث الأول: صفات إبراهيم عليه السلام وأثرها في الدعوة..... ٩٤

المبحث الثاني: أساليب إبراهيم الدعوية كما عرضها القرآن..... ١٠٠

المحاضرة الخامسة: منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث..... ١١٨

الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى..... ١١٨

الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيها..... ١٢٢

الاستدلال بخروج النبات من الأرض..... ١٢٤

الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت..... ١٢٦

الاستدلال بحدوث اليقظة بعد النوم..... ١٣٠
الاستدلال بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء..... ١٣١
المحاضرة السادسة: مكائد الشيطان وطرق الحذر منها كما عرضها القــرآن
الكريم..... ١٣٤
المبحث الأول مكائد الشيطان..... ١٣٤
تسمية الأمور بغير اسمها..... ١٣٥
الوعد والتمنية..... ١٣٦
إظهار النصح للإنسان..... ١٣٧
إنساؤه للإنسان الخير والصلاح..... ١٣٨
تخويف المؤمنين من أوليائه..... ١٤٠
القاء الشبهات..... ١٤١
الخمر والميسر والسحر..... ١٤٢
المبحث الثاني: طرق الحيطة والحذر من الشيطان..... ١٤٤
المحاضرة السابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن..... ١٥١
مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن..... ١٥٢
حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ١٥٤
عواقب إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ١٥٧
الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.... ١٥٩
المحاضرة الثامنة: الجهاد في سبيل الله في القرآن الكريم..... ١٦٧
حكم الجهاد..... ١٦٨
المبحث الأول فضل الجهاد في القرآن..... ١٦٩
المبحث الثاني: أهداف القتال في القرآن الكريم..... ١٧١

المبحث الثالث: فضل الشهداء..... ١٧٨
المحاضرة التاسعة: الصلاة في القرآن الكريم..... ١٨٢
المبحث الأول: أدلة فرضيتها في القرآن الكريم..... ١٨٢
المبحث الثالث: الخشوع في الصلاة..... ١٨٩
المبحث الرابع: أثر الصلاة في حياة الفرد والمجتمع..... ١٩١
المبحث الخامس: الثواب العظيم لمقيمي الصلاة..... ١٩٤
المحاضرة العاشرة: بر الوالدين في القرآن الكريم..... ١٩٩
عناية القرآن بالوالدين، الصورة الأولى: الإحسان إليهما..... ١٩٩
الصورة الثانية: الكلمة الطيبة وحسن المعاملة..... ٢٠٢
الصورة الثالثة: التواضع ولين الجانب..... ٢٠٣
الصورة الرابعة: الدعاء لهما..... ٢٠٤
الصورة الخامسة: طاعتهما في غير معصية الله..... ٢٠٥
المحاضرة الحادية عشرة: الصبر في القرآن الكريم..... ٢٠٨
المبحث الأول: مجالات الصبر..... ٢٠٨
المبحث الثاني: فضل الصبر وثوابه..... ٢١٢
المبحث الثالث: من روائع أمثلة الصبر على البلاء..... ٢١٤
المحاضرة الثانية عشرة: أثر المعاصي على الأمم في القرآن الكريم..... ٢١٨
المبحث الأول: تحذير القرآن من المعاصي..... ٢١٨
المبحث الثاني: آثار المعاصي في القرآن الكريم..... ٢٢٢
المحاضرة الثالثة عشرة:مثال تطبيقي للوحدة الموضوعية لبعض سور القرآن..... ٢٣٢

تفسير سورة تفسيرا موضوعيا "سورة النور" ٢٣٢
المبحث الأول: بين يدي السورة..... ٢٣٢
المبحث الثاني: خصائص السورة..... ٢٣٣
المبحث الثالث: أهداف السورة..... ٢٣٤
المبحث الرابع: موضوعات السورة..... ٢٣٥
خاتمة البحث..... ٢٣٨
توصيات البحث..... ٢٤٤
المصادر والمراجع..... ٢٤٦
فهرس محتويات الكتاب..... ٢٥١